مركز توثيق سيرة الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود
KING ABDULLAH BIN ABDULAZIZ ALSAUD
BIOGRAPHY DOCUMENTATION CENTER

عبدالله بن عبدالعزيز

إضاءات في سيرة ملك

أ.د. سعد بن عبدالرحمن البازعي

الطبعة الثالثة
١٤٤٢هـ/٢٠٢٠م

عبد الله بن عبد العزيز

إضاءات في سيرة ملك

أ.د. سعد بن عبد الرحمن البازعي

الطبعة الثالثة
١٤٤٢هـ/٢٠٢٠م

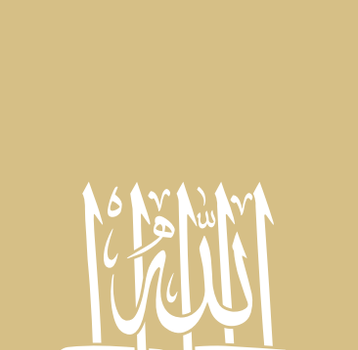
بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ **مركز توثيق سيرة الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود ، ١٤٤٢هـ**
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البازعي ، سعد عبدالرحمن

عبدالله بن عبدالعزيز: إضاءات في سيرة ملك/ سعد عبدالرحمن البازعي - ط٣ .- الرياض ، ١٤٤٢هـ
١٩٣ ص ؛ ٢٣*٢٨ سم

ردمك: ٨-١-٩١٤٣٩-٦٠٣-٩٧٨

١- عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود ، ملك السعودية ٢- السعودية - تاريخ - الملك عبدالله أ .العنوان

ديوي ٩٥٣,١٠٩١ ١٤٤٢/٤٦٥٤

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٤٦٥٤
ردمك: ٨-١-٩١٤٣٩-٦٠٣-٩٧٨

المحتويات

الموضـــــــــــــــــوع	الصفحة
تقديم صاحبة السمو الملكي الأميرة عادلة بنت عبدالله بن عبدالعزيز	٧
مقدمة	١١
الباب الأول: مقدمة في تاريخ الدولة السعودية	١٧
الفصل الأول: استعادات التوحيد: الدولتان السعودية الأولى والثانية	١٩
الفصل الثاني: عبد العزيز وتأسيس المملكة العربية السعودية	٣١
الفصل الثالث: الملوك من أبناء عبد العزيز	٣٩
الباب الثاني: عبد الله بن عبدالعزيز	٥٣
الفصل الأول: رحلة الرجولة: من الطفولة إلى الأبوة	٥٥
الفصل الثاني: من قيادة الحرس الوطني إلى قيادة الوطن	٩٩
الباب الثالث: منجزات على الطريق	١٤١
الباب الرابع: الختام «لا تنسوني من دعاكم»	١٨٣
المراجع	١٩٣

تقديـــر

إذا أراد الله عز وجل الخير لأمة، قيّض لها قائداً مخلصاً هاجسه رفعتها وسعادتها وعزتها وكرامتها. وصاحب هذه السيرة عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود .... رجل لا تستطيع فصل سيرته عن الأمة، ولا سيرة الأمة عنه؛ لأنه نذر حياته لخدمة وطنه والأمة الإسلامية والعربية والإنسانية جمعاء .

إن تأسيسي و أخواتي و إخواني لمركز توثيق سيرة والدنا يأتي عرفاناً بمكانته الجليلة في قلوب أسرته، وتقديراً لما أحاطنا به من حب، وما أولانا من رعاية رغم مسؤولياته الجسام، فأن نكون أبناء هذا القائد المتميّز فضل كبير من الله علينا، وأحسب أنّ توثيق سيرته – طيب الله ثراه – جزء يسير مما تستحقه قامته الرفيعة.

وحيث إنه لا يمكن الإلمام بمآثر هذه الشخصية في كتاب هنا أو مقالة هناك، فقد اقتضت المبادرة أن يكون مركز التوثيق وبناء قاعدة المعلومات أكثر التصاقاً وإقراراً بالعرفان اللائق بعطائه النمير لأسرته و شعبه و أمته.

باكورة إصدارات المركز كتاب « عبدالله بن عبدالعزيز ... إضاءات في سيرة ملك » أنجزه الدكتور سعد ابن عبد الرحمن البازعي، وهو الباحث السعودي المتميز بموضوعيته وأكاديميته وثقافته ومعرفته، وهي محاولة لرصد ومضات في سيرة ملك، يقر –في بدايتها– المؤلف أن سيرته هي سيرة أمة و وطن، لذلك لا يستطيع أي باحث أن يلتزم السيرة الذاتية أمامه، فما عرف عن شخصه السامي يلامس الأمة في جوانبها المختلفة، ولا يقتصر على المملكة فحسب، بل يتجاوزها إلى العالم العربي والعالم الإسلامي بل العالم بأكمله، وخاصة فيما دعا إليه بمبادرة غير مسبوقة من سبل الحوار، والسلام والتفاهم بين الشعوب، وما قام به من دعم ومساندة لمشروعات تنمويّة شملت مواطنيه وشعوب الأرض من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

وحرصاً على أن يتاح الكتاب لغير الناطقين بالعربية قامت –بترجمته إلى اللغة الإنجليزية الأكاديمية– السعودية الدكتورة هيلة الخلف، فجاءت ترجمتها مميّزة حافظت بمهنية عالية على روح الكتاب وتوجه المؤلف.

وللتأكد من سلامة المحتوى وصحته وثرائه، قام بمراجعة الكتاب كُلٌّ من معالي د. عبدالرحمن السعيد و سعادة د. عبدالكريم الزيد، فلهما الشكر والتقدير. وإضافة إلى ذلك، تمت إجازة الكتاب من دارة الملك عبدالعزيز واللجنة العلمية بمركز توثيق سيرة الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود.

وبين يدي القاريء الكريم إضاءات في سيرة ملكٍ أحبَّ شعبه فأحبوه، ولم يَسع العالم سوى احترامه وتقديره أسوة بنهج مؤسس المملكة العربية السعودية الملك عبدالعزيز وأبنائه البررة ملوك المملكة: سعود و فيصل و خالد و فهد رحمهم الله. ويأتي خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز حفظه الله استمراراً لهذه السيرة العطرة لقادة هذا الوطن منذ تأسيسه.

حلّق الصقر الشامخ ... رحل بهدوء موحش أسمع صداه العالم أجمع ... رحل بعد عمر حافل بالعطاء والإنجازات في خدمة شعبه وأمته العربية والإسلامية، وبقيت أعماله الجليلة شاهدة على كريم خصاله وسجاياه، وأياديه البيض ورعايته لمصالح المواطنين وقضاء حوائجهم، ودعمه المشهود في مسيرة البناء والنماء، ومواقفه المشرِّفة في دعم القضايا العربية، وتسخير علاقاته الدولية المتميزة لنشر الأمن والسلام والعدالة، كما حرص – رحمه الله – على مؤازرة الجهود الدولية الإنسانية كافة لمساعدة الدول ذات الموارد المحدودة، وعمل جاهداً لتحقيق قناعاته في التجسير بين الحضارات، وتأسيس قاعدة رحبة للحوار بين أتباع الأديان لتقليص النزاعات وتشجيع السلام في العالم، ندعو المولى عزّ وجلّ أن يتغمد حبيبنا الغالي بواسع رحمته ويسكنه الفردوس الأعلى .

سيبقى عبدالله بن عبدالعزيز خالداً في روحنا، وسنذكره كل يوم ونحن نشهد تأثير أعماله وإنجازاته في الوطن وخارجه؛ إنجازات تجمع بينها قواسم مشتركة، وهي أن تكون أداة تحوّل وتطوير، ومحرك للتغيير الإيجابي، و دافع لتحسين حياة المواطن السعودي خاصة والشعوب العربية والإسلامية والعالم عامة.

سنشتاق كثيراً لعبدالله بن عبدالعزيز الوالد والقائد رغم أننا مؤمنون أن لكلّ أجل كتاب، وسيظل لفراقه غصّة في الصدر، ولغيابه وقع ألم جسيم في القلب، فالموت لا يقهر العظماء؛ لأن سيرتهم تمتد إلى ما بعد وفاتهم.... لكنه يكسر محبيهم لأنهم يدركون أن من فقدوا لا يعوّضون أبداً.

عادلة بنت عبدالله بن عبدالعزيز

رئيسة مجلس إدارة مركز توثيق سيرة

الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود

مُقدِّمة

يسعى أدب السيرة إلى سبر شخصية الإنسان بتحليل سيرته والوقوف على أهم معالمها، والمراحل التي مرت بها وأسهمت من ثم في تشكلها، أي أن السيرة التي تكتب عن فرد من الناس هي تاريخ لذلك الفرد؛ تاريخ يتعمق في تلك الشخصية، ويستجلي ما فيها من جوانب تسترعي الانتباه وتستحق الوقوف والتأمل. ولاشك في أن في حياة كثير من الناس ما يستحق الوقوف عنده وتأمله لفهمه والإفادة منه، على الرغم مما قد يكتنف تلك الحياة من تعقيد سواء في مراحل تطورها أو في تداخلها مع حياة أفراد آخرين، وبمناشط كثيرة شغل بها الفرد فأثرت فيه وأثر فيها، الأمر الذي يجعل كتابة السيرة تنطوي على صعوبات، وخاصة في مجال البحث والتأليف. غير أن صعوبات من نوع مختلف تنهض أمام الكاتب حين تكون شخصية الإنسان – موضوع السيرة – متداخلة على مستويات عدة ليس مع أفراد آخرين أو بألوان مختلفة من النشاط فحسب، وإنما مع وطن بأكمله، مع شعب بأكمله، بل مع عالم كبير استطاعت تلك الشخصية أن تؤثر فيه بقدر تأثرها به وربما بشكل يفوق ذلك. عندئذٍ تتحول السيرة من سيرة فرد إلى سيرة أفراد كثيرين، كثيرين بحجم البلاد وبحجم العالم الذي تفاعل مع تلك الشخصية. ولاشك في أن هذه مهمة مستحيلة لأي كاتب، الأمر الذي يترتب عليه أن يتواضع الكاتب فلا يسعى إلى استجلاء أو تقصٍ لمعالم تلك الشخصية وسبر أغوارها المتعددة كافة، وإنما يكتفي بما اكتفى به الشاعر من ممدوحه حين قال:

وما عليك إذا ما الزورة اختصرت بعض الربيع ببعض العطر يختصر[1]

إننا إذاً إزاء مسعى غيض من فيض، فعبدالله بن عبدالعزيز – الذي قاد بلاده لعقد ونيف ورحل إلى جوار ربه وهي في أعلى مراتب العزة والكرامة تصعد سلم التطور والمجد بسرعة غير مسبوقة – ليس ممن يمكن تقديمهم في حيز ضيق، والحيز ضيق ويضيق أكثر كلما ازدادت الشخصية اتساعاً، ويتضاءل كلما ازدادت ضخامة، ويتواضع كلما تعالت إنجازاً وعلت قدراً. لكنه الربيع الذي لا نستطيع امتلاكه كله فنكتفي ببعض عطره، وهو ما استقر عليه الرأي في ما يلي من صفحات. ومع ذلك فإنه حتى ذلك العطر ليس مما يسهل الإمساك به؛ لأسباب نشير إليها في ما يلي:

عند البدء بكتابة هذه السيرة واجهت الكاتب صعوبتان متناقضتان، تتمثل الأولى في كثرة المعلومات من ناحية، وتتمثل الثانية في قلتها من ناحية أخرى. فعند الكتابة عن ملك قاد دولة، وطور شعباً، وأثر في العالم كله

---

١) عمر أبو ريشة من قصيدته "بنات الشاعر"، ديوان عمر أبو ريشة (دار العودة، ١٩٧١) ص٦٩.

الملك عبدالله يرعى سباق للخيل

من موقعه القيادي فإن كم المعلومات العامة كثير، بل هائل، لسبب يسير هو أن شخصية ملك مثل عبدالله ابن عبدالعزيز – رحمه الله – متداخلة مع جوانب كثيرة من الدولة نفسها وشعبها، وما يتصل بذلك من جوانب وأمور لا حصر لها. فالإنسان العادي يؤثر ويتأثر ضمن محيطه العائلي أو العملي، وهو محدود بدرجات متفاوتة، لكنها درجات لا تخرج عن محيط ضيق نسبياً. لذا تكون الدائرة ضيقة في حالة الفرد العادي، ويكون مجال البحث فيه محدوداً، في حين أن الوقوف أمام سيرة ملك وقائد دولة يعني التعامل مع كل ما يتصل بالدولة والقيادة. إننا بتعبير آخر نكتب سيرة وطن وعالم مترامٍ تتوزع سيرة الملك القائد على أطرافه وفي ثناياه.

من ناحية أخرى تتمثل الصعوبة في أننا بقدر ما نجد من المعلومات العامة لا نكاد نعثر على الكثير من المعلومات الخاصة التي تكثر حين يكون الملك أو الرئيس أو القائد من بلاد كالبلاد الغربية حيث تسمح القيم والأعراف بتداول أدق التفاصيل عن حياة الأفراد مهما كان علوهم في القدر ومكانهم من الأهمية. القيم الراسخة في مجتمع عربي إسلامي كالمجتمع السعودي تؤكد خصوصية الحياة الفردية وتحيطها بسور من الحرمة والاحترام، وهذه دون شك قيم عظيمة حري بنا أن نتمثلها ونتأمل في دلالاتها؛ لأنها مما يميز ثقافتنا التي أثراها الإسلام العظيم، ورعتها قيم العرب وأعرافهم. غير أن الأمر يوجِد بعض الإشكال حين تزداد رغبة الإنسان في المعرفة، ولاسيما حين يكون موضوع المعرفة رجلاً ترك أثره العميق في حياة الكثيرين. تتكاثر الأسئلة عندئذٍ وتتعاظم: كيف عاش ذلك الرجل؟ ومن أين استقى ما استقى من رؤى وقيم؟ من الذي ترك أثره فيه؟ وكيف تأتى له أن يجمع كل ذلك ويبثه في من حوله وفي مجتمعه الكبير بل وفي أماكن أخرى عرفته وتفاعلت معه؟ هذه أسئلة أساسية يطرحها الناس حين يودون التعرف على أفراد تركوا أثراً في حياتهم، كآبائهم وأجدادهم والأشخاص الذين تعرفوا عليهم وكانوا شامخين في عطائهم، وهو ما جعل أدب السيرة يزدهر وينتشر في الثقافات المختلفة. غير أن الناظر في التاريخ العربي الإسلامي سيجد أن أمتنا كانت سباقة في الاعتناء بأدب السيرة، وأن مؤرخيها وعلماءها تتبعوا سير أعلامهم، وعلى رأس أولئك صفوة الخلق محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم. فأدب السيرة ليس غريباً على ثقافتنا وإن لم يستمر لزمن طويل على ذات القدر من القوة والاهتمام، فقد أرخ المسلمون الأوائل لكثير من الناس مولين اهتمامهم للمميزين الموهوبين ممن تركوا أعمق الأثر في حياة مجتمعاتهم وأممهم، وحري بنا أن نولي ذلك الجانب ما نستطيعه من بحث وتأمل؛ لنستفيد وتستفيد الأجيال اللاحقة مما ترك الكبار في التاريخ من أثر.

ذلك الاهتمام هو منطلق هذه السيرة، فنحن إزاء رجل من الكبار، تسلم زمام الأمور في بعض مؤسسات بلاده أولاً، ثم تحمل مسؤولية البلاد بأكملها بعد ذلك، لينطلق من ذلك إلى فضاءات التأثر والتأثير العالمي فيشاطر قادة العالم همومهم ومسؤولياتهم، ويشارك – من ثم – في إعادة صياغة الخارطة السياسية والاقتصادية

الدولية، وهو ما يجعل احتفاؤنا به ضرورة كما احتفى تراثنا برموزنا الأوائل، وكما احتفت الأمم الأخرى بالرموز من أفرادها، فرسمت سيرهم واحتفت بتفاصيلها.

إن طرح الأسئلة المتعلقة بتفاصيل الحياة حين يتعلق الأمر برجل مثل خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله – غفر الله له – أمر ضروري وحيوي من ناحية؛ لأننا إزاء مثال ينبغي التعرف عليه وترسّم أثره والإفادة منه، ولأننا نود أن نعرف مجمل الإنجازات والأعمال التي اضطلع بها، فمعرفتها جزء من معرفته. لكننا من ناحية أخرى ندرك أن طرح الأسئلة المشار إليها ليس ضروريا وحيوياً فحسب وإنما هو أيضاً صعب لضخامة الميدان وكثرة التفاصيل، سواء ما عرفنا منها أو ما لم نعرف. فلابد لحياة مثل تلك التي عاشها الملك عبدالله ابن عبدالعزيز أن تكون ضخمة ضخامة عطائه وعميقة عمق منجزه. من هنا كان على هذه السيرة أن تواجه التفاصيل الكثيرة المتعلقة بحياة الملك العامة لتنتقي ما تراه ذا دلالة مباشرة وواضحة على الشخص نفسه، وأن تقوم من ناحية أخرى في البحث في الشأن الخاص لتكتشف ما لا يتصل مباشرة بالحياة العامة مما هو دال على الشخص، وكاشف لما تنطوي عليه شخصيته.

يتصل ما نشير إليه هنا بما يمكن أن نسميه فلسفة السيرة، هذه السيرة وكل سيرة يمكن وصفها بالجادة. فالهدف لم يكن تقديم حكاية أو قصة بطلها عبدالله بن عبدالعزيز، فهذا ليس هدف السيرة أصلاً وإن جنح بعض ما ينشر من السير إلى ذلك. كما أنه لم يكن أبداً إدراج قائمة بمنجزات عبدالله بن عبدالعزيز بوصفه قائداً وملكاً على ما لتلك المنجزات من أهمية وقيمة تاريخية وحضارية. الهدف لم يكن أياً من ذلك وإنما كان النظر في كلا الجانبين، جانب القصة الشخصية، أو أحداث الحياة وتطوراتها، من ناحية، وجانب العمل والإنجاز على المستوى العام من ناحية أخرى، من حيث يمكّننا الجانبان من فهم الشخص، الإنسان، الذي ينشر حضوره على الجانبين معاً. ذلك أن الإنسان بشكل عام ليس حكاية شخصية ولا عملاً وظيفياً أو سلسلة منجزات، وإنما ما يتألف من هذه كلها؛ لأنه كان فاعلاً للأحداث ومتفاعلاً معها في وقت واحد.

من هنا جاء التركيز في السيرة الحالية، (فهي ليست الأولى التي تتناول شخصية الملك عبدالله، على التحليل الذي يجمع بين تفاصيل الحياة الشخصية ومنجزات العمل في الشأن العام في محاولة لتقديم صورة منصفة للإنسان الواقف خلف الجانبين: الشخصي والعام). الإنصاف هدف أساس، وهو بالطبع يعني تحقيق التوازن، أي مقاومة الاكتفاء بالثناء الذي تغري به شخصية كشخصية الملك رحمه الله. ومع أن المقاومة ليست سهلة، كما أدرك ذلك شاعر العربية الكبير المتنبي حين وقف أمام إحدى الشخصيات المرموقة في التاريخ العربي الإسلامي، أي سيف الدولة الحمداني، فقال: أغالب فيك الشوق والشوق أغلب، على الرغم من صعوبة ذلك، فإن السعي إلى تحقيق التوازن بمغالبة الثناء المفرط مطلوب لأسباب عدة، أولها: أن الشخص موضوع السيرة ممن

عرفوا بزهدهم في الثناء المفرط، بل كراهتهم له، وثانيها أن الهدف من هذه السيرة هو تعريف القارئ، سواء السعودي المعني مباشرة بقائد كبير لبلاده، أو غير السعودي ممن يود التعرف على هذا الرجل الذي أثار الكثير من الانتباه العالمي، وكتب عنه الكثير وما يزال يكتب.

هذه السيرة تتوجه إلى القارئ بصورة تقريبية قدر الإمكان وقدر ما يتوافر من معلومات يمكن تقديمها في كتاب، وهي تعلم أن الكثيرين يحبون عبدالله بن عبدالعزيز ولكنهم لا يعرفون عنه ما يكفي، ولاسيما عن حياته الشخصية. كما أنها سيرة تتوجه إلى القارئ غير السعودي في محاولة للتعريف بقائد أثار اهتمام العالم، ولكنه نبت في تربة الجزيرة العربية المسلمة، وضمن سياق عريق ومتفرد، قد لا يعرفه من لم يعش في هذا الجزء من العالم ولم يعرف تاريخه أو ظروف المعيشة التي عرفها أهله، وما واجهوا من تحديات وحققوا من إنجازات. غير أن حقيقة الأمر هي أنه حتى أبناء هذه البلاد بحاجة إلى من يذكّرهم ببعض فصول التاريخ التي تمخضت عن الكيان السياسي الذي نعيش فيه، وما تطور في رحابه من حياة اقتصادية واجتماعية وثقافية، ناهيك عن الأجيال الجديدة التي قد لا تلم بالصورة على نحو مترابط.[1]

من هنا كان ضرورياً لهذه السيرة أن تبدأ برسم السياق التاريخي للدولة السعودية، فمع أن ذلك السياق مبثوث في ثنايا الكتب والمقررات المدرسية في نظام التعليم السعودي، وأنه ليس غريباً تماماً على القارئ العربي حيثما كان، فإن التذكير به بوصفه إطاراً مهماً لإدراك الكثير من التطورات التي جاءت فيما بعد هو مما اتضحت ضرورته لكاتب هذه السيرة، لاسيما أن هناك الكثير ممن يتوجه الكتاب إليهم ممن لا يعرفون ما يكفي عن التاريخ الكبير لهذه البلاد. فعبدالله بن عبدالعزيز الذي ترسم هذه الصورة بعض ملامح شخصيته، أو بالأحرى تتبعها، هو من أبناء ذلك السياق التاريخي، مثلما هم آباؤه وإخوته وأبناؤه سواء من عائلة آل سعود التي أسست هذا الكيان ورعته، أو من أبناء هذا الوطن ممن شاركوا في البناء. الباب الأول من الكتاب مكرّس لهذا السياق التاريخي، الذي ينتقل من الدولتين السعوديتين الأولى والثانية في فصله الأول إلى الثالثة، في فصله الثاني، وهي المتمثلة بالمملكة العربية السعودية التي وضع أسسها وجاهد لبنائها الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن طيب الله ثراه. أما الفصل الثالث فيتوقف عند أبناء الملك عبدالعزيز ممن سبقوا أخاهم الملك عبدالله بتولي الملك، وهم: الملوك سعود وفيصل وخالد وفهد، رحمهم الله جميعاً.

البابان الثاني والثالث من الكتاب مكرسان للملك عبدالله بن عبدالعزيز. الباب الثاني بفصليه ينظر في سيرته الشخصية منذ ولادته حتى تسلمه الملك عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م). والحق أن هذا الباب هو الباب المفصلي

---

١) اعتمد في تحديد تواريخ هذه السيرة على التاريخ الميلادي في معظم الحالات وذكر التاريخ الهجري في بعض المواضع التي بدا أن من المهم ذكره، وذلك بسبب توجه الكتاب إلى قراء قد لا يعرفون التاريخ الهجري في حين أن التاريخ الميلادي صار تاريخاً متبعاً في معظم مناطق العالم.

من الكتاب، أي هو السيرة المباشرة أو المتعلقة بحياة الملك عبدالله حتى وفاته – رحمه الله – في الثالث من ربيع الثاني من عام ١٤٣٦هـ (٢٣ يناير ٢٠١٥م). المعلومات الواردة في هذا الباب استمدت من مصدرين رئيسين: الأول ما يتوافر من معلومات في كتب ومصادر صحفية وإعلامية مختلفة عربية وأجنبية، سواء اتصلت بالملك عبدالله مباشرة أو بالمملكة أو بالملك عبدالعزيز – رحمه الله – أو بأحد أبنائه، وهذه دون شك مادة ضخمة كان لابد من الإفادة منها –وإن على نحو انتقائي– لضخامتها والبحث عن الأكثر قيمة؛ معلوماتياً ومعرفياً. أما المصدر الثاني فقد تمثل في ما استقاه كاتب السيرة من لقاءات مسجلة مع عدد من القريبين من الملك عبدالله سواء أكانوا من أفراد الأسرة أو ممن عملوا معه. بعض المعلومات التي توافرت من خلال تلك التسجيلات هي مما ينشر لأول مرة وهي من ثم جديدة وبالغة الأهمية بقدر ما تضيء تفاصيل وجوانب من حياته وحياة من حوله لم تكن شائعة أو معروفة على نطاق واسع.

إننا إذ نقدم للقارئ هذا الكتاب فإننا نأمل أن نتيح له أياً كان زمانه ومكانه صورة متوازنة وعادلة لرجل كرس حياته لخدمة دينه وبلاده، رجل تربى في كنف مؤسس هذه البلاد وتعلم منه، كما عاش وخدم بلاده في ظل إخوته ممن سبق أن رعوا هذا الكيان وقدموا له أجل الخدمات، فهو على أثرهم سائر ولعطائهم مكمل. فالكتاب إذاً محاولة لإيصال الصورة صحيحة ودقيقة قدر الإمكان للأجيال الحالية والقادمة، والله من وراء القصد والهادي سواء السبيل.

أ. د. سعد البازعي

الباب الأول

مقدمة في تاريخ الدولة السعودية

الفصل الأول: استعادات التوحيد

الدولتان السعودية الأولى والثانية

المملكة العربية السعودية

الفصل الأول

استعادات التوحيد

الدولتان السعودية الأولى والثانية

ظلت الجزيرة العربية على مدى يقارب عشرة قرون، أي منذ نهاية العهد النبوي وعهود الخلافة الإسلامية الأولى، وهي لا تكاد تعرف نظاماً سياسياً مكيناً وشاملاً يلملم أطرافها، ويزيل الشتات عن جهاتها، ويوفر لأهلها فرص الائتلاف والعيش الآمن الكريم من خلال نظام سياسي يمكنها أيضاً من النمو الاجتماعي والاقتصادي والثقافي. ولعل هذه من مفارقات التاريخ المأساوية في منطقة عرفت أزهى عصورها في ظل مفهوم كبير هو «التوحيد»، التوحيد بدلالتيه الكبريين: العقدية، والسياسية المجتمعية. الجزيرة العربية التي حضرت إلى التاريخ من أوسع أبوابه غادرته قروناً طويلة، لأسباب من أهمها شتاتها وغياب التوحيد أو الوحدة عن أرجائها.

لقد غاب التوحيد بمفهومه السياسي، وكاد أن يغيب أيضاً بمفهومه العقدي/الديني والمجتمعي، فكان ذلك مؤدياً حتماً إلى أن تغيب دلائل الحضارة. ودلائل الحضارة يأتي في طليعتها الأمن والاستقرار، مثلما يأتي في مقدمتها العدل والإيمان بالقيم التي تعلي من شأن الإنسان، وتعينه على عمارة الأرض. لقد توارى الأمن عن معظم الأرجاء، وحل الغزو والنهب بدلاً منه، وصارت السطوة والقوة الغاشمة أقوى من معاني الرحمة والإنسانية. ومن ناحية أخرى انتشر الجهل، وشاع الاعتقاد بالخرافة وما يتصل بهذين من معتقدات وممارسات. فكان طبعياً والحال كذلك أن تعيش الجزيرة العربية عصوراً مظلمة بحق أو تكاد وهي التي كانت مصدر النور والحق.

بحلول القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) بدأت الجزيرة العربية تصحو على صوت التوحيد، دينياً وسياسياً وجغرافياً. جاء ذلك من وسط الجزيرة، من نجد، حيث جاء أفراد ذوو انتماء عربي يؤسسون لما سيصبح دولة التوحيد الأولى في أرجاء الجزيرة بعد سبات دام عشرة قرون. كان الصوت خافتاً في البدء لكنه لم يلبث أن تعالى حتى إذا جاءت أواسط القرن الثامن عشر كان صوته مسموعاً محبباً لكثيرين ومزعجا لكثيرين أيضاً، لكنه في كلتا الحالتين فاعل في السعي إلى تحقيق حلم النهوض واستعادة الوحدة والتوحيد. ومع أن القصة باتت مألوفة مطروقة في كتب التاريخ فإن استعادتها هنا، أو استعادة بعض معالمها الرئيسة ضروري؛ لرسم السياق الذي أشرنا إليه في مقدمة هذا الكتاب.

كمجمل قصص التاريخ، هناك قدر من الاختلاف في التفاصيل، وهو اختلاف طبعي لاختلاف الرواة واختلاف مفسري الروايات واجتهاداتهم، لكننا سنبتعد قدر الإمكان عن تلك التفاصيل الخلافية ونشير إلى ما نرى أنه الصورة الأقرب إلى الإجماع. ما يهمنا هو الجانب المتصل مباشرة بظهور الدولتين السعوديتين: الأولى والثانية، أي العناوين الكبيرة أو الأحداث المفصلية ذات الدلالة، ومبرر الجمع بين الدولتين في هذا التمهيد هو أنهما تشكلان معاً مرحلة واحدة في تطور الدولة السعودية على الرغم مما بينهما من انقطاع سياسي. هما مرحلة واحدة من الناحية السياسية؛ لأن الانقطاع لم يدم طويلاً، ولأن الصلات بينهما أقوى من أن تكرس الاختلاف. هذا إلى جانب أنهما تنتميان إلى مرحلة تاريخية متشابهة الظروف من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ويتضح ذلك إذا ما قورنتا بالدولة السعودية الثالثة التي بدأت مع الملك عبد العزيز وما تزال قائمة حتى اليوم، وذلك على النحو الذي سيتضح في سياق هذا الكتاب.

للحديث عن الدولتين السعوديتين الأوليين ينبغي القول أولاً: إن عائلة آل سعود التي أسست الدولة السعودية بمراحلها الثلاث تعود نسباً إلى المردة من بني حنيفة بن بكر بن وائل ويجتمعون مع عنزة في وائل المنتشرة على مساحات كبيرة من الجزيرة العربية ولاسيما الشمال والوسط. فمانع المريدي، أول الأجداد المسجل ذكرهم في التاريخ، هاجر في منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) من قرية على الساحل الشرقي للجزيرة العربية متجهاً إلى وسط نجد، حيث أقام على أرض المليبيد وغصيبة نواة الدرعية منحها إياه قريب له يقيم في حجر اليمامة (الرياض حالياً) هو ابن درع، حيث تأسست من جراء ذلك قرية الدرعية المعروفة.

تولى سعود بن محمد بن مقرن الذي حملت عائلة آل سعود اسمه إمارة الدرعية عام ١١٣٢هـ(١٧٢٠م)، وبعد وفاته عام ١١٣٧هـ(١٧٢٥م) تولى زيد بن مرخان الإمارة لمدّة تقل عن السنتين، وتولى بعده محمد بن سعود عام ١١٣٩هـ(١٧٢٦م) الذي يعد المؤسس الحقيقي للدولة السعودية نتيجة للتحالف الذي قام بينه وبين الشيخ محمد بن عبد الوهاب. فبذلك التحالف تغيرت الرؤية السياسية بناء على معطيات جديدة لم تكن متوافرة من قبل، وهي رؤية نقلت زعامة آل سعود من زعامة محلية لا تختلف عن غيرها من الزعامات المنتشرة في أرجاء الجزيرة العربية -ولاسيما في منطقة نجد والأحساء- إلى زعامة ذات طموحات واسعة وأقرب إلى مفهوم الدولة الإسلامية التي وضعها الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب، وتعاونا في رسم أهداف الدولة الناشئة.

وذكر ابن بشر -في كتابه المعروف «عنوان المجد في تاريخ نجد»، الذي يعد مصدراً رئيساً لتاريخ الدولة السعودية الأولى والثانية وعلاقة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بقيام الدولة-، ذكر أنه في عام ١١٥٧هـ

(حوالي ١٧٤٤م) وفد الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الدرعية قادماً من العيينة بعد أن فشل تحالف سابق بينه وبين أمير العيينة عثمان بن معمر. تلك الحادثة التي تشكل المنعطف الأول والحاسم في تاريخ الدولة السعودية تستحق التوقف لتأملها من ناحيتين: الأولى أن الشيخ ابن عبد الوهاب جاء وهو يحمل رؤية إصلاحية بكل المقاييس في وقتها، وكان يبحث عمن يدعم تلك الرؤية سياسياً لتغدو فاعلة في واقع الحياة من حوله، ولم يكن يهمه من يدعم تلك الرؤية التي عرفت بالدعوة الإصلاحية؛ لأنه عرضها على ابن معمر ولم تدم طويلاً. الناحية الثانية، أن قبول محمد بن سعود لمؤازرة الشيخ مرت بصعوبة مشابهة لما مرت به حين التقى ابن معمر. ذلك أن السبب في فشل التعاضد بين الشيخ وأمير العيينة كان اقتصادياً في المقام الأول، فقد جاءه من حاكم الأحساء وزعيم بني خالد سليمان بن محمد تهديد بقطع المعونة السنوية له إن هو واصل الدعم لرجل يأمر بقطع الأشجار التي يتبرك فيها الناس، ويهدم الأضرحة التي يتوسلون بها، وفي الرواية المعروفة أن الشيخ حاول إقناع ابن معمر بأن الله سيعوضه عن ذلك بما هو خير، لكن الأخير رفض ذلك.

الأمر نفسه تكرر في حالة الإمام محمد بن سعود؛ إذ كانت هناك مشكلة اقتصادية أيضاً، فبعد ترحيبه بالشيخ وإعلان الدعم له، طلب منه ألا يعترض على استمراره في الحصول على ضرائب يتقاضاها من أهل الدرعية. الفرق كان في أن محمد بن سعود حين سمع النصيحة نفسها التي سبق للشيخ أن قدمها لعثمان بن معمر قبل تلك النصيحة، وقرر الاستمرار في الدعم، ومع أنه لم يكن تحت ضغط اقتصادي من جهة خارجية فإن ضغطاً اقتصادياً آخر كان يلح عليه لكنه جاء من الداخل، فإمارة الدرعية ستتخلى عن مصدر دخل مهم. ذلك كان المفصل في استمرار الدعوة، وتطور الدولة السعودية إلى ما صارت إليه من قوة ومنعة على النحو المعروف.

كانت حجة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في إقناع محمد بن سعود بترك الضريبة الداخلية؛ لأن موارد الدولة ستزداد؛ لأن توسعها في سبيل الله. هنا اجتمعت الرؤية الدينية الإصلاحية بالرؤية السياسية المتطلعة إلى توسع الدولة وتمكين الحكم. وكان من نتائج ذلك المبدئية أن فاز الشيخ ابن عبد الوهاب بدعم أهالي الدرعية الذين تخففوا من ضغط اقتصادي، لكن النتائج السياسية والدينية على المستوى الأوسع كانت بالطبع أكبر بكثير. ذلك أن الدرعية لم تلبث أن تحولت إلى واحدة من المراكز السياسية الكبرى في نجد.

يتضح من ذلك أن قوة العقيدة كانت الحافز الأقوى لتأسيس الدولة والتغلب على العقبات التي كان يمكن أن تحول دون تأسيسها. ما أكده الشيخ محمد بن عبد الوهاب للأمير محمد بن سعود تحقق فعلاً، حين تطورت الدرعية وتعددت مواردها، مع أن ذلك لم يحدث بين يوم وليلة، فقد كثرت الصعوبات في البداية، ولكن قوة الإيمان بما تعد به الرؤية الإصلاحية، وإعادة الناس إلى الطريق القويم في عبادة الله واتباع سنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ظلت هي الحافز الأقوى للتغلب على الصعاب مهما كثرت. ومما يجدر ذكره في هذا السياق

تلك العبارات التي قالها الشيخ محمد بن عبد الوهاب لمحمد بن سعود في بدء تحالفهما: «أبشرك بالعز والتمكين والنصر المبين. وهذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم، فمن تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك البلاد والعباد. وأنت ترى نجداً كلها وأقطارها أطبقت على الشرك والجهل والفرقة والاختلاف وقتال بعضهم بعضاً. فأرجو أن تكون إماماً يجتمع عليه المسلمون وذريتك من بعدك».

استمر حكم الأمير محمد بن سعود حوالي أربعين عاماً تمتد من توليه الإمارة عام ١١٣٩هـ (١٧٢٦م) حتى وفاته عام ١١٧٩هـ (١٧٦٥م). ويعني هذا أن ذلك الأمير الذي أصبح إماماً للمسلمين قضى عشرين عاماً في دعم الحركة الإصلاحية/السلفية للشيخ محمد بن عبدالوهاب، وهي فترة شهدت توسع الدولة السعودية الأولى لتشمل منطقة العارض ومعظم بلاد سدير والوشم والمحمل والخرج. الرياض وحدها، التي كانت من القرى الصغيرة المجاورة، بقيت خارج السيطرة السعودية ولم تدخلها إلا في عهد عبد العزيز بن محمد الذي خلف أباه.

قبل رحيل الإمام محمد بن سعود كانت معالم الدولة ودلائل التحضر قد بدأت ترتسم على ملامح المكان وعلى حياة الناس. وقد اشتملت تلك على إلغاء الإتاوات غير الإسلامية، كما سبقت الإشارة، واستبدلت بها الأنظمة الإسلامية التي أدت أيضاً إلى إلغاء الحكم العشائري، ووضع أسس لنظام الحكم والإدارة وربط الأطراف بالعاصمة الدرعية. وكان من نتائج ذلك تضاؤل الفوضى والخوف اللذين كانا منتشرين في كل مكان. وكان التوسع في ذلك كله مما أخذه الإمام عبد العزيز بن محمد وابنه الإمام سعود بن عبد العزيز على عاتقهما في المرحلة التالية من تطوير الدولة السعودية.

الإمام عبد العزيز بن محمد والإمام سعود بن عبد العزيز

واصلت الدولة السعودية تطورها في عهد الإمامين عبد العزيز بن محمد ثم ابنه سعود على مستويين: المستوى السياسي بزيادة رقعة الدولة، والمستوى التنظيمي بتثبيت الأنظمة المختلفة ونشرها وتطويرها. غير أن هذه الإنجازات لم تخلُ من معوقات ومشكلات كانت لها آثارها السلبية فيما بعد.

سار عبد العزيز، الذي تولى عام ١١٧٩هـ (١٧٦٥م)، على خطى والده في دعم الدعوة الإصلاحية سواء في سلوكه الشخصي حيث كان تلميذاً من تلامذة الشيخ ومتحمساً للمبادئ التي دعا إليها، أو في التأكد من تمسك الناس بها من خلال نشر الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كما أنه سار على خطى والده في السعي إلى توسيع رقعة الدولة فانضمت الرياض ونجران وعسير ومعظم مناطق الحجاز إلى جانب الأحساء والبحرين.

كان ضم الحجاز أحد قرارين سياسيين وعسكريين خطيرين في عهد عبد العزيز بن محمد. فقد أدى دخول قوات الدرعية مكة المكرمة إلى إثارة الدولة العثمانية التي ظلت لقرون عديدة ترى نفسها حامية الأماكن المقدسة في الحجاز. أما القرار الثاني فكان انطلاق ولي العهد سعود إلى العراق توسيعاً لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتمكينها من الوصول إلى مناطق لم تكن قد وصلتها. كلا القرارين أديا إلى أن توجه الدولة العثمانية جيوشها في مرحلة لاحقة لمحاربة الدولة السعودية الأولى. لكن قبل حدوث المواجهة الفاصلة جرت مناوشات عديدة مع الولاة العثمانيين في العراق وغيره حققت فيها الدولة الفتية انتصارات أكدت مكانتها المتنامية على المسرحين الإقليمي والدولي.

بيد أن تلك الانتصارات لم تتم دون دفع ثمن مبكر تمثل في مقتل الإمام عبد العزيز على يد رجل شيعي من العراق أثناء أداء الإمام صلاة العصر في مسجد الطريف بالدرعية، وكان الرجل قد تنكر في هيئة (درويش). وكان واضحاً أن الرجل أراد أن يثأر مما اعتبره مساساً بالمزارات والقباب والأضرحة خلال حملات الأمير سعود بن عبدالعزيز على جنوب العراق والتي كانت منتشرة في المناطق السنية والشيعية على حد سواء.

كان من منجزات الدولة السعودية الأولى تثبيت دعائم الحكم وفق أنظمة سياسية غير شائعة في تلك الفترة. ومن تلك ولاية العهد والمبايعة المسبقة، وهي أنظمة كان للشيخ محمد بن عبد الوهاب دور أساس في تثبيتها اقتداءً بالدولة الإسلامية في عهودها الأولى. وعلى هذا الأساس تمت مبايعة سعود بن عبد العزيز خلفاً لأبيه عام ١٢١٨هـ (١٨٠٣م). ومع أن سعود سار على خطى والده في كل ثوابت الدولة الدينية والإدارية والسياسية، فقد كان مثل أبيه تلميذاً متميزاً للشيخ محمد بن عبدالوهاب، فإن عهده يعد من أقوى العهود من حيث اتساع الدولة وتثبيت الأمن في نواحيها إلى جانب ما استحدثه من وجوه التطوير الإداري الذي تم بموجبه ربط مختلف نواحي الدولة والمسؤولين عنها بالحاكم الإداري الذي يطالبهم بتحقيق أقصى درجات الامتثال لتعاليم الدين الحنيف ومتطلبات التطوير الجديدة. ولعل تسميته بـ «الكبير» جاءت اعترافاً بمنجزاته غير المسبوقة. يقول الرحالة السويسري يوهان بوركهارت الذي عاصر تطور الدولة السعودية الأولى: «كانت كل الصحراء والمدن الداخلية في جزيرة العرب سابقاً خاضعة لحالة الفوضى التي لا تزال قائمة بين تلك القبائل التي لم تتبع الوهابيين... وقد علم عبد العزيز وابنه سعود قومهما على إطاعة النظام، والمحافظة على الأمن العام، والخضوع في خلافاتهم لقرار القضاء دون أي لجوء إلى السلاح. وكان عبد العزيز أول من أرسل قضاة إلى كل المناطق الخاضعة له. وقد اختارهم من بين أكثر علمائه مقدرة واستقامة، وقرر لهم مكافآت سنوية من الخزينة العامة، أو بيت المال؛ محرماً عليهم أن يقبلوا أجرة أو رشوة من المتخاصمين. وكان أولئك القضاة يحكمون بين الناس طبقاً لأحكام القرآن والسنة».[١]

١) مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة عبدالله الصالح العثيمين (الرياض: جامعة الملك سعود)ص٣.

أما من حيث توسع الدولة فقد توطد الحكم السعودي في الحجاز في تلك الفترة، وامتدت حدود الدولة شمالاً إلى حدود الشام، وجنوباً حتى حدود اليمن، مثلما امتدت من ساحل الخليج العربي شرقاً حتى البحر الأحمر غرباً. غير أن ذلك التوسع ما لبث أن استرعى اهتمام الدولة العثمانية التي خشيت على سيطرتها على المنطقة أن تزول، ولأن تلك الدولة كانت تعاني من الضعف في جهات كثيرة فقد أوعزت إلى حكام المناطق الواقعة تحت سلطتها – وإن كانت سلطة اسمية أحياناً – بالتصدي للدولة السعودية المتعاظمة القوة. من هنا تحرك والي مصر محمد علي فأرسل قواته في عدة حملات لم تحقق النجاح المطلوب.

توفي الإمام سعود بن عبد العزيز عام ١٢٢٩هـ (١٨١٤م)، أي بعد أن أمضى أحد عشر عاماً في الحكم بلغت فيها الدولة السعودية الأولى قمة مجدها. لكن القمة لم تطل كثيراً، فكما حدث من قبل، خلف سعود ابنه الإمام عبد الله وتعاظمت المشكلات في عهده. فقد كان من النتائج المباشرة لوفاة الإمام سعود، -كما لحظ بعض الباحثين[١]-، أن انتعشت آمال محمد علي بالقضاء على الدولة السعودية فأرسل جيشاً بقيادة طوسون باشا إلى نجد (حيث وصل القصيم لكي يفاوضه عبد الله بن سعود ويتوصلا إلى صلح). لكن محمد علي لم يوافق على الصلح فأرسل ابنه إبراهيم باشا بحملة جديدة حاصرت مدن القصيم واحتلتها ثم اتجهت إلى الدرعية التي كان الإمام عبد الله قد انسحب إليها حماية لعاصمة حكمه واستمرار دولته.

الحصار الذي ضربه إبراهيم باشا حول الدرعية من الأحداث التاريخية المفصلية في تاريخ الدولتين السعوديتين بشكل عام، ذلك أن التهديد والقرارات التي اتخذت لمواجهته كانت مصيرية، وهو ما حدث بالفعل حين حاول الإمام عبد الله أن يقاوم واستبسل في ذلك هو ومن معه من المقاتلين، لكن الإمكانيات العسكرية للجيش المصري/التركي كانت أقوى بمراحل سواء من حيث العدد أو التسليح الأحدث أو التخطيط الأفضل. في النهاية كان لابد للقائد أن يرفع شعار المفاوضات، الأمر الذي قبله إبراهيم باشا. وتروي المصادر التاريخية تفاصيل مؤلمة عن استسلام الإمام عبد الله إنقاذاً لبلاده وأهلها وحقناً للدماء، فمع أن إبراهيم باشا عامل الإمام باحترام فإن الصعوبة كانت في خضوعه لشروط القوى المحاصرة وقبوله لما فرض عليه. فقد اضطر للسفر إلى مصر امتثالاً لأمر محمد علي ومن ورائه السلطان العثماني، ثم اضطر للسفر إلى اسطنبول امتثالاً مرة أخرى لأمر السلطان. وفي إسطنبول لم يكن السلطان العثماني راغباً في إبداء أي نوع من الرأفة بالإمام السعودي ومن معه، وذلك على الرغم من رسالة الاسترحام التي أرفقها معه محمد علي باشا، فأمر بقتلهم جميعاً انتصاراً لسلطة الدولة العثمانية وتحذيراً لمن تحدثه نفسه بالخروج على تلك السلطة.

---

١) ضاري الرشيد: نبذة تاريخية عن نجد أملاها ضاري الرشيد وكتبها وديع البستاني (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٦هـ).

الدولة السعودية الثانية: الإمام تركي بن عبد الله (١١٨٣هـ - ١٢٤٩هـ)

بمقتل الإمام عبد الله بن سعود انتهت الدولة السعودية الأولى لتبقى بعدها جذوة الإصلاح الديني والسياسي حية في نفوس ورثتها من أبناء الدولة الأولى حكاماً وعلماء ومواطنين. وبطبيعة الحال فإنه كان لابد من رجال ينهضون بالمهمة الصعبة وهي تحويل تلك الجذوة إلى بناء فعلي، والذي فعل ذلك كان الإمام تركي بن عبد الله بن محمد آل سعود؛ ابن عم الإمام سعود بن عبد العزيز (الكبير). وقصة تولي الإمام تركي معروفة بالتفصيل في كتب التاريخ، نستعيد منها هنا أن الحكم انتقل بمقتل الإمام عبد الله وانتهاء الدولة السعودية الأولى إلى آل معمر لبعض الوقت ثم استعاده مشاري بن سعود بن عبد العزيز، أخو الإمام عبد الله، وكان الإمام تركي في ذلك الحين أميراً على الرياض، غير أن استعادة ابن معمر الحكم مرة أخرى اضطرت الإمام تركي للهرب وجمع الدعم من بعض أهالي نجد الذين مكنوه من استعادة الدرعية ثم الرياض والقضاء على محمد بن مشاري بن معمر وابنه محمد ليستتب له بذلك الحكم الذي انتقل معه إلى الرياض، فتأسست بذلك الدولة السعودية الثانية.

امتد حكم الإمام تركي إلى نواحي نجد وسواحل الخليج العربي من ١٢٤٠هـ إلى ١٢٤٩هـ (١٨٢٤م – ١٨٣٤م). وخلال تلك الأعوام العشرة من حكم الإمام تركي عادت الأمور إلى طبيعتها، وتوحدت البلاد على النحو الذي كان سائداً إبان الدولة السعودية الأولى، لكن يد الفتنة لم تبتعد كثيراً، فقد اغتيل الإمام تركي على يد مشاري بن عبد الرحمن آل سعود، وهو ابن أخته، انتقاماً لعزله من إمارة منفوحة نتيجة الشك في نواياه تجاه خاله. وهكذا توفي الإمام تركي – وهو جد الملك عبد العزيز – بينما هو خارج من «جامع الرياض» الذي عرف فيما بعد بـ «جامع الإمام تركي»، فتولى مشاري الحكم لمدة لم تزد عن أربعين يوماً؛ حيث إن فيصل ابن الإمام تركي الذي كان خارج الرياض أثناء مقتل والده قد عاد وقضى على مشاري عام ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م).

الإمام فيصل بن تركي

تميز الإمام فيصل بن تركي –مثلما تميز من قبله والده الإمام تركي – بأن تولى الحكم فترتين منفصلتين. امتدت الفترة الأولى من عام ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م) حتى ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م)، والثانية بعد انتهاء الأولى بخمسة أعوام وامتدت ثلاثة وعشرين عاما، أي أنه حكم ما مجموعه سبعة وعشرين عاماً، وهي مدة استثنائية دون شك استطاع خلالها أن يصل بالدولة السعودية إلى مراتب عليا على المستوى الإقليمي. وكان فيصل قد اشترك في الحملة التي قادها الإمام سعود الكبير وأدت إلى دخول مكة المكرمة وكان عمره آنذاك خمسة عشر عاماً. كما أنه

اشترك في الدفاع عن الدرعية حين حاصرها إبراهيم باشا وممن أسرهم المصريون، حيث أرسل إلى مصر وذاق مرارة الأسر والغربة. استمر ذلك حتى استطاع الهرب والعودة إلى الرياض عام ١٢٤٣هـ (١٨٢٧م)، وحين قتل والده كان مشغولاً بالقضاء على فتنة محلية، لكنه عاد مسرعاً ليتولى الحكم في الفترة الأولى.

بتولي الإمام فيصل الحكم بدأ القلق يساور العثمانيين ووواليهم على مصر محمد علي باشا الذي سارع بإرسال حملة تمثلت هذه المرة بمكيدة، فقد أرسل على رأس الحملة أحد أمراء آل سعود هو خالد بن سعود بن عبد العزيز الذي كان بمصر أيضاً في محاولة ذكية لتقسيم العائلة وتقسيم الولاء الذي تتمتع به في المنطقة. وكانت المفاجأة مرة للإمام فيصل حين وجد خالد بن سعود دعماً من بعض أهالي المنطقة ولم يستطع فيصل أن يقف في وجه تلك الحملة المضادة فترك الرياض إلى الخرج ثم إلى الأحساء ليدخل خالد الرياض في صفر من ١٢٥٤هـ (الرابع عشر من مايو ١٨٣٨م).

غير أن الحكم لم يستتب لخالد بن سعود على الرغم من القوة المحلية والعثمانية التي ساندته لإخضاع بعض المناطق التي تمردت على حكمه، الأمر الذي شجع الإمام فيصل بن تركي على العودة من الأحساء بقوة واجهت قوات خالد بن سعود فهزمتها، ولكنه لم يستطع دخول الرياض بسبب الدعم العثماني بقيادة خورشيد باشا. ومع استمرار ذلك الدعم وعدم قدرة فيصل على التغلب عليه اضطر لقبول المفاوضات مع العثمانيين على النحو الذي أرغمه على الرحيل إلى مصر لقاء إعطاء الأمان لأنصاره. وبذلك انتهت فترة حكم فيصل الأولى.

تولى الحكم في فترة غياب فيصل الأمير خالد بن سعود بدعم عثماني، ثم تولى بعده الأمير عبد الله بن ثنيان مستغلاً كراهية الناس لتدخل العثمانيين، فاستطاع أن يزيح خالد عن الحكم. غير أن فيصل لم يلبث أن خرج من السجن وعاد إلى نجد، ويقال إن خروجه كان برغبة مصرية/عثمانية في التخلص من ابن ثنيان الذي طرد الحاميات العثمانية من المنطقة، وأملاً في كسبه حليفاً في المستقبل. وقد تحقق بالفعل ما كان متوقعاً فحشد فيصل قواته وعرض على ابن ثنيان الصلح لكن الأخير رفض فاقتحم فيصل الرياض وقبض على ابن ثنيان وسجنه حتى توفي في سجنه.

بلغت الدولة السعودية في عهد فيصل مناطق واسعة شملت مجمل أرجاء الجزيرة العربية من جبل شمر شمالاً حتى سواحل عمان جنوباً ومن الحجاز غرباً إلى الأحساء شرقاً، بل إن بعض شيوخ الخليج العربي دفعوا له الخراج. وبرؤية سياسية تراعي المصلحة البعيدة للدولة واستقرارها رأى الإمام فيصل أن من الضروري الاعتراف بالسيادة الاسمية للدولة العثمانية والتزم بضريبة سنوية كبقية ولاة تلك الدولة محتفظاً باستقلاله الداخلي. وكان من التطورات السياسية في ذلك العهد اتصال الحكم السعودي آنذاك ببريطانيا وعقد المعاهدات

معها فيما يتعلق بالمصالح البريطانية في منطقة الخليج العربي.

توفي الإمام فيصل عام ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) بعد عهد طويل من الأمن والاستقرار والنماء.

أبناء الإمام فيصل وانتهاء الدولة السعودية الثانية

اختلف أبناء الإمام فيصل على الحكم، وكان ذلك مؤذناً بالضعف السياسي ومنذراً بانتهاء الدولة السعودية الثانية. وأولئك الأبناء هم: عبدالله وسعود ومحمد وعبد الرحمن، تولوا جميعاً وتعاقب اثنان منهم، هما عبدالله وعبد الرحمن على الحكم في فترتين متفاوتتين، ونشير هنا إلى أن من بينهم إلى الإمام عبد الرحمن، الابن الأصغر، الذي جاء بعده ابنه الملك عبد العزيز مؤسس الدولة السعودية الثالثة والحالية.

جاء تولي الإمام عبد الرحمن الحكم بعد أن تحققت المخاوف من سقوط الدولة السعودية الثانية وضياع الحكم السعودي. فقد سعى الإمام إلى تجميع القوات التي تمكنه من طرد العثمانيين من الأحساء لكنه لم يتمكن من ذلك فعاد إلى الرياض ليبايَع بالإمارة عام ١٢٩١هـ (١٨٧٥م). غير أن الإمام عبد الرحمن الذي عرف بالتدين والاعتدال، إلى جانب صفات نبيلة أخرى، لم يلبث أن تنازل لأخيه الأكبر عبد الله عن الحكم، لكن الفتنة استمرت بقيام أبناء أخيهما سعود ضد عبد الله فسجنوه ليتيح ذلك الفرصة لمحمد العبد الله الرشيد، حاكم جبل شمر، أن يتدخل ويبسط سيطرته فيُخرج الإمام عبد الله من سجنه ويعين حاكماً من قبله على الرياض هو سالم السبهان واصطحب معه الأخوين عبد الله وعبد الرحمن إلى حائل، غير أنه أذن لهما بالعودة حين مرض عبد الله، فلما توفي عبد الله بايع الناس أخاه عبد الرحمن فكان من أول الإجراءات التي اتخذها أن اعتقل سالم السبهان فعاد ابن رشيد وحاصر الرياض لكنه لم يستطع اقتحامها ففاوضه عبد الرحمن بإرسال أخيه محمد والشيخ عبدالله بن عبد اللطيف ومعهم الشاب عبد العزيز بن عبد الرحمن، فاتفقوا على تولي آل سعود حكم العارض مع إطلاق سراح ابن سبهان.

غير أن الأمور ما لبثت أن تدهورت مرة أخرى بمهاجمة ابن رشيد القصيم وعزمه التحرك نحو الرياض. أدى ذلك إلى تحرك عبدالرحمن لمساعدة أهل القصيم، لكن أخبار هزيمتهم على يد ابن رشيد في موقعة المليداء ثبطت من عزمه، فقرر الرحيل عن الرياض متوجهاً برجاله إلى الدهناء، بينما أرسل النساء إلى البحرين بعد استئذان أميرها عيسى بن علي آل خليفة. ظل عبد الرحمن يسعى لاستعادة الرياض من آل الرشيد إلى أن وقعت معركة حريملاء التي عبرت عن رغبة ابن رشيد في إنهاء المقاومة السعودية التي هزمت فيها قوات عبد الرحمن

وذلك عام ١٣٠٩هـ (١٨٩١م) التي اضطر بعدها عبد الرحمن أن يعود إلى البادية مع ابنه عبد العزيز ليظلا هناك حوالي سبعة أشهر حتى أذنت لهما الدولة العثمانية بالذهاب إلى الكويت مع بقية عائلة آل سعود ممن كانوا في قطر، وذلك في عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م). ومن الكويت شارك عبد الرحمن في معركة الصريف التي خاضها مبارك آل الصباح ضد آل الرشيد، والتي كانت الغلبة فيها لآل الرشيد ومن ورائهم الدعم العثماني.

مع انتهاء مساعي عبد الرحمن في استعادة الرياض وحكم آبائه من قبل انتهت الدولة السعودية الثانية، لكنها النهاية التي لم تأت دون بذور تعد بدولة أخرى ستعيد أمجاد تلك الدولة على نحو لم يحدث من قبل. تلك البذور تمثلت في الفتى عبد العزيز بن عبد الرحمن الذي استوعب تاريخ الدولتين الأوليين وما قامتا عليه من عقيدة ورؤى سياسية جعلتهما حالتين استثنائيتين في تاريخ الجزيرة العربية الحديث. وكان استيعاب عبدالعزيز وعزيمته الفذة هي التي ستتمخض -قريباً -عن دولة أخرى تفوق بكثير ما سبق أن تحقق.

الفصل الثاني: عبد العزيز

وتأسيس المملكة العربية السعودية

الفصل الثاني

عبدالعزيز وتأسيس المملكة العربية السعودية

يروي الباحث والمؤرخ خالد الفرج أن الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، حاكم البحرين، أراد أن يلاطف الشاب عبد العزيز بن عبدالرحمن فسأله: قطر أحسن أم البحرين، فأجاب: «الرياض أحسن منهما»، فقال: «سيكون لهذا الغلام شأن».[1]

ذلك المسكون بهاجس الرياض هو من كلفه والده بالذهاب إلى البحرين لاستئذان حاكمها ببقاء النساء والأطفال في كنف آل خليفة، وهو من عاد بالإذن، دون أن ينسى أنه معني بالرياض قبل أي مكان آخر، الرياض التي كان قد ولد فيها عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م)، والتي نشأ فيها تحت رعاية والده الإمام عبد الرحمن وتلقى تعليمه على يد علمائها، فتعلم القراءة والكتابة، وحفظ سوراً من القرآن الكريم إلى جانب علوم عامة أخرى. وكانت الخبرة والممارسة رافداً كبيراً من روافد مكتسباته المعرفية مثل كثير من أبناء عصره، وهي روافد كان له منها نصيب غير عادي كما اتضح فيما بعد وهو يعارك الحياة مبكراً في أسفاره ومهامه الصعبة المبكرة.

إلى جانب ذلك كله تعلم الشاب عبد العزيز ما كان يحتاجه بشكل خاص من جنّد نفسه لمهام كبرى؛ كتلك التي هيّأته لها الظروف واستجابت لها شخصيته المشرئبة إلى أعالي الحلم، فتعلم الفروسية مبكراً، وعرف بين أقرانه بالشجاعة والحنكة، وبصفات استثنائية بين من هم في سنه كالحكمة والروية إلى جانب الخلق القويم وقوة الإرادة، مثلما عرف مبكراً باللطف وحسن المعشر وما يتصل ذلك من صفات كريمة أخرى.

ميلاد عبد العزيز في الرياض جعله على اتصال مباشر ومبكر جداً بمنجز الأجداد وبحلم الأبناء. فقد عرف منذ تكوينه التربوي الأول أنه ينتمي لأسرة كانت دائماً على موعد مع التاريخ فأنشأت دولتين، وأن دولة ثالثة هي قيد الإنشاء تنتظر منشئاً آخر مثل محمد بن سعود وتركي بن عبد الله، ورجالاً من طراز سعود بن عبد العزيز وفيصل بن تركي وغيرهم ممن أعلوا شأن الدولتين وفرشوا سيادتهما على أرجاء الجزيرة العربية. لكن الولادة أيضاً عرّفته بالواقع المؤلم الذي وصلت إليه الأسرة وهي تقاوم هيمنة آل الرشيد، وتسلط الدول الكبرى لاسيما العثمانية أو البريطانية إلى جانب ما يشيع في الأرجاء من فوضى أمنية تعيد البلاد إلى عهود السلب والنهب والقتل. وأدرك عبد العزيز أن قدراً كبيراً من ذلك يعود إلى أن الشريعة الإسلامية التي أحيتها دعوة الشيخ محمد

---

١) خير الدين الزركلي: الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز (بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٤م) ص ١٧.

الملك عبدالله برفقة جلالة الملك عبدالعزيز أثناء استقبال الملك فاروق لهم في مصر وعن يساره الملك فهد والملك خالد والأمير محمد بن عبدالعزيز

ابن عبد الوهاب وتبنتها الأسرة السعودية منذ البدء، أن تلك الشريعة لم تعد سيدة الموقف في حياة الناس كما قُدّر لها أن تفعل لعقود خلت.

كل ذلك كان حافزاً لعبد العزيز أن يلتفت يمنة ويسرة ويتحين الفرص، حتى إذا استتب المقام لوالده وأسرته في الكويت في ظل آل الصباح في نهاية القرن التاسع عشر، بدأ الشاب المتقد حماسة يحدّث والده برغبته في فعل شيء، وأن طول البقاء بعيداً عن الرياض وأواسط الجزيرة لا يحتمل. ولم يطل الوقت قبل أن تتمخض المساعي عن غزوة أولى للرياض لم يحالفها التوفيق، فظل الشاب المتحمس يلحّ مرة أخرى حتى سمح له والده بالعودة إلى الرياض لكن هذه المرة بعتاد غير العتاد السابق وبتصميم أكبر وتخطيط أفضل. وكما سجل التاريخ، استطاع عبدالعزيز ورجاله أن يحققوا مرة أخرى ما سبق أن حققه مؤسسو الدولتين السعوديتين السابقتين وأن يتجاوزوه إلى ما هو أكبر. فباستعادة الرياض عام ١٣١٩هـ (١٩٠٢م) حقق عبد العزيز حلماً سيمتد إلى ما لم تمتد إليه الأحلام السابقة: ستولد دولة عصرية مترامية الأطراف ومستقلة الكيان تضع التوحيد نصب أعينها، سواء التوحيد بدلالته الإسلامية العقدية، أم التوحيد بدلالته السياسية النابعة من تماسك البلاد في كيان سياسي موحد.

تحقيق ذلك المشروع الكبير كان موعوداً بتحديات كبرى سياسية واقتصادية وعسكرية واجتماعية، وتاريخ المملكة العربية السعودية يتضمن فصولاً طويلة وبالغة الدلالة على طبيعة تلك التحديات والجهود الهائلة التي بذلها الملك عبد العزيز - رحمه الله - لتجاوزها. فقد ورث الملك وضعا مبعثراً مملوءاً بالأعداء على المستويين السياسي والعسكري، ومثقلاً بالتخلف والجهل على المستويين الاجتماعي والثقافي، وبالفقر على المستوى الاقتصادي. صحيح أن المستويات الأخيرة لم تبرز بمشكلاتها إلا في مرحلة لاحقة، لكنها حين برزت أحضرت تحديات لا تقل خطراً عن غيرها.

المبايعة وتحديات التوحيد

بعد استعادة الرياض وضم الأمير عبد العزيز كل البلدان المحيطة أرسل لوالده الإمام عبد الرحمن ليحضر هو والأسرة المقيمة في الكويت، وقال لوالده: «الإمارة لكم وأنا جندي في خدمتكم»، فكان جواب الأب هو الإصرار على أن تكون الإمارة لعبد العزيز فقبلها شريطة أن يكون لوالده الإشراف عليه وتوجيهه. وفي اجتماع عام بعد صلاة يوم جمعة في المسجد الكبير بالرياض أعلن الإمام عبدالرحمن تنازله عن الإمارة لابنه عبد العزيز وأهداه «سيف سعود الكبير»، وتمت البيعة سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م).

المرحلة اللاحقة مباشرة كانت مرحلة القضاء على التشرذم، وتثبيت الأمن، وقد اقتضت مدة زمنية لا تقل عن ربع قرن ابتدأت بتوحيد المناطق الواقعة جنوب الرياض، وامتدت إلى مناطق نجد ثم الأحساء وشملت حائل وجبل شمر وعسير ثم الحجاز التي ضمت أخيراً عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) والتي أُنجز بها توحيد البلاد تحت اسم مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها، ليصار بعد ذلك إلى تبني الاسم الجديد «المملكة العربية السعودية» في ٢١ جمادى الأولى من عام ١٣٥١هـ (٢٣ سبتمبر من عام ١٩٣٢م)، اليوم الذي صار فيما بعد – في عهد الملك فهد بن عبدالعزيز، وتوجيه من الأمير عبدالله بن عبد العزيز – اليوم الوطني للمملكة.

عملية توحيد البلاد وتثبيت هويتها السياسية رافقتها خطوات سياسية لها بعدها الرمزي، فالملحوظ أن الملك عبد العزيز لقب بعدة ألقاب واكبت تطور البلاد من مرحلة الإمارة، أي إمارة الرياض وما حولها، إلى ما هو أكبر (السلطنة ثم المملكة)، ففي البدء لقب بالأمير ثم بسلطان نجد وملحقاته، ثم بملك الحجاز ونجد وملحقاته إلى أن لقّب بملك عند إطلاق اسم «المملكة العربية السعودية». وهذه الألقاب، كما هو واضح، لم تتضمن لقب «إمام»، وقد يعود ذلك إلى أحد سببين أو إليهما معاً: فمن ناحية كان والد الملك عبد العزيز، الإمام عبد الرحمن، موجوداً حتى ضم الحجاز، أي قبيل تحويل البلاد إلى مملكة بفترة قصيرة وكان من الطبعي أن يحتفظ الوالد الإمام عبد الرحمن باللقب حتى لو تولى ابنه مقاليد الإمامة التقليدية في التاريخ السعودي. أما السبب الثاني فربما يعود إلى رغبة الملك عبد العزيز في تحديث البلاد وتبني الصبغة السياسية السائدة دولياً، الصبغة التي تمثلت باسم مملكة واقتضت نتيجة لذلك لقب «ملك» بدلاً من أي لقب آخر.

لتثبيت الدولة الجديدة أكد الملك عبد العزيز أولاً شعار الدولة وعلمها الحاليين، وأعلن أن دستور البلاد هو القرآن الكريم، وأن الحكم فيها يقوم على تطبيق شرع الله المستمد من القرآن والسنة النبوية الشريفة وما أثر عن صحابة رسول الله والتابعين وكذلك ما أثر عن الأئمة الأربعة. وكانت قد سبقت الإعلان عن ولادة المملكة سلسلة من التنظيمات الإدارية الجديدة وغير المسبوقة في تاريخ الدولتين السعوديتين الأوليين، وهي تطورات جاءت مواكبة لتطورات الإدارة الحديثة، فأُعلن عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م) عن منصب نائب عام في الحجاز، ولّي عليه الأمير فيصل بن عبد العزيز، ثم أنشئ مجلس الشورى عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٧م)، وهكذا إلى أن أنشئت بعض الوزارات، لتنقل البلاد إدارياً إلى مرحلة أكثر تقدماً في عهد الملك سعود بن عبد العزيز. كما أقامت الدولة السعودية الجديدة علاقات دبلوماسية مع كثير من الدول، وكانت شريكاً مؤسساً في إنشاء جامعة الدول العربية ثم هيئة الأمم المتحدة، وأعلن الملك عبدالعزيز مناصرته للقضايا العربية والإسلامية، وفي طليعتها كفاح الشعب الفلسطيني لاسترداد حقوقه.

غير أن هذه الإنجازات لم تقف وحدها، وإنما رافقتها إنجازات كبرى غيرها، في طليعتها اهتمام الملك

عبد العزيز بالتعليم النظامي المجاني ونشره في مختلف أرجاء المملكة، وتأسيس المكتبات، وطباعة الكتب لاسيما الدينية، وإرسال البعثات الأولى للطلاب خارج المملكة ممن عادوا فيما بعد ليكونوا نواة الحركة العلمية والإدارية والاقتصادية والسياسية، وكذلك قيام جلالته بمشروعه الريادي في توطين البادية، المشروع غير المسبوق على مستوى المنطقة والذي جاء نقلة حضارية تهيئ قطاعاً كبيراً من سكان البلاد ليكونوا شركاء فاعلين في عملية التنمية التي انطلقت في كل مكان. كما حرص الملك عبد العزيز على التأكيد على الهوية الإسلامية للمملكة في شتى الميادين، وفي توسعة الحرمين المكي والمدني، وطباعة الكتب ولاسيما الإسلامية.

أما على المستوى الاقتصادي فكان الحدث المشهود اكتشاف النفط واستخراجه بكميات تجارية عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) إلى جانب عدد من المعادن، الأمر الذي أدى إلى تدفق الثروة على نحو غير مسبوق، الأمر الذي أدى إلى دعم مشروعات التنمية المختلفة فضربت العملة السعودية (الريال) وتمكنت الدولة من تطوير قطاعات كثيرة كالاتصالات والنقل، فأنشئت سكة الحديد، ووضعت نواة الطيران المدني، وعبدت الطرق، وأنشئت الموانئ، ووضع نظام الجوازات، وافتتحت الإذاعة السعودية. هذا إلى جانب الاهتمام بالقطاع العسكري وتطوير الجيش السعودي وتحديثه. كل ذلك لم يكن من السهل تصديق أن يتم خلال نصف قرن: أن تنتقل البلاد من بضعة إمارات وبلدات مشتتة تسودها الفوضى الأمنية، ويعمها التخلف؛ لتصير دولة عصرية توحِّد معظم أجزاء الجزيرة العربية، وتضيف لبنة أساسية لبناء الأمة العربية والإسلامية، وتسهم في الاستقرار والرخاء والتنمية العالمية. فحين توفي الملك عبد العزيز - رحمه الله - عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م)، كانت المملكة دولة لها وزنها العربي والإسلامي والعالمي بعد أن قطعت شوطاً في مضمار النمو الحضاري واحتلت موقعها السياسي والاقتصادي على خريطة العالم.

غير أن هذه المنجزات لم تتحقق دون معوقات وتحديات كثيرة ومتنوعة، فقد كان من الصعب في كثير من الأحيان إقناع الناس بأهمية بعضها أو بمشروعيته، كما حدث مثلاً حين أراد الملك عبد العزيز تطوير الاتصالات؛ إذ رآها البعض أصواتاً للشيطان، وكما حدث حين دخلت السيارة لأول مرة؛ فقد أحرقت علناً في بعض المناطق من نجد. وكان الملك عبد العزيز يولي رأي المشايخ من أهل العلم الشرعي أهمية خاصة ويقربهم في مجلسه، وكثيراً ما يأخذ برأيهم، بل إن الأمر وصل درجة أكبر من الخطورة عند الاعتراض على دخول الأمريكيين المنطقة الشرقية للتنقيب عن البترول؛ فقد نُظر إليهم بوصفهم كفرة سيحضرون المفاسد من خمر وفونوغراف وغيره.

هذه التحفظات والاعتراضات ما لبثت أن أسفرت عن تمرد بعض زعماء البادية امتزجت فيه الرغبة باستعادة السلطة القبلية التقليدية بدعاوى خروج الدولة السعودية عن نهج الشريعة. قاد ذلك التمرد فئة قليلة من زعماء الإخوان، واستطاع الملك عبدالعزيز بعد صراع مضنٍ امتزجت فيه الحكمة بالبأس والروية، والعفو

بالشدة وصرامة القرار أن يقمع ذلك التمرد ويحقق الأمن وسلطة النظام على النحو الذي تطمح إليه البلاد ومواطنوها وبالمستوى الذي جدد الولاء للملك عبد العزيز رحمه الله.

علاقات الملك عبد العزيز الأسرية

سار الملك عبد العزيز على ما سار عليه من قبل آباؤه وأجداده، وما سار عليه حكام وزعماء الخليج والجزيرة العربية، ومن قبل ذلك زعماء العشائر العربية طوال التاريخ، فوسع دائرة النسب لتتسع بذلك دائرة الصلات الاجتماعية من ناحية وتتوثق عرى الدعم السياسي من ناحية أخرى. تمثل ذلك بزواج الملك عبد العزيز من عدد كبير من الأسر التي تمثل شرائح واسعة ومختلفة على المستويين القبلي والحضري، وكن سيدات أنجبن له ستة وثلاثين ابنا وسبعاً وعشرين ابنة، وأول الأبناء تركي الأول الذي توفي عام ١٣٣٧هـ (١٩١٩م) وآخرهم حمود الذي توفي عام ١٤١٤هـ (١٩٩٤م)، أما البنات فأولهن نورة الأولى وآخرهن طرفة. وأنجب هؤلاء عدداً كبيراً من الأحفاد هم امتداد لهذه الأسرة المباركة.

كانت علاقة الملك بأسرته بشكل عام علاقة تتسم بالأبوة الحانية والرعاية المتصلة والحرص على أن ينشؤوا نشأة صالحة. فكان - رحمه الله - يتابعهم شخصياً، ويكلف من يتابعهم في غيابه بالقدر نفسه من الحرص. وكان له اهتمام خاص بنساء الأسرة، كما ذكر أحد أحفاده وهو الأمير عبدالله الفيصل- رحمه الله - حسب خير الدين الزركلي. فقد كان يخصص ما بين المغرب والعشاء من ليلة الجمعة لنساء الأسرة. وكذلك يوم الجمعة حيث يتغدين عنده في القصر دون أن يغيب منهن واحدة. وإن تغيبت إحدى المسنات فإنه يسأل عنها، فإن كانت مريضة أمر طبيبه الخاص بزيارتها، وظل يسأل عنها.

من أمثلة ذلك عنايته - رحمه الله - بزوجته الأميرة فهدة بنت العاصي بن شريم، والدة خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز. ففي مرضها الذي توفيت فيه - رحمها الله - حرص جلالته على رعايتها أفضل ما تكون الرعاية؛ فأمر بإحضار أفضل الأطباء، ومنهم طبيب إنجليزي مشهور أحضر لتقديم ما يمكن تقديمه مما توصل إليه الطب الحديث، غير أنه لم يكن راداً لإرادة الله فتوفيت رحمها الله عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م). ومثل ذلك أمثلة كثيرة يصعب حصرها.

الفصل الثالث

الملوك من أبناء عبد العزيز

الفصل الثالث

الملوك من أبناء عبد العزيز

بعد وفاة الملك عبد العزيز – رحمه الله – تولى ملك البلاد ستة من أبنائه هم الملوك: سعود وفيصل وخالد وفهد وعبدالله وسلمان، توفي الأربعة الأُول تغمدهم الله بوافر رحمته إلى أن تولى الحكم الملك عبد الله غفر الله له. في هذا الفصل عرض لعهود الملوك الأربعة؛ تمهيداً للوقوف المفصل عند عهد الملك عبد الله في الباب الثاني من هذه السيرة.

أولاً: عهد الملك سعود

عين الملك سعود بن عبد العزيز – قبل توليه الملك – ولياً للعهد بناء على نظام لتولي الحكم وضعه الملك عبد العزيز. فبناء على ذلك النظام انعقد مجلس الوكلاء في ١٦ المحرم ١٣٥٢هـ (١١ مايو ١٩٣٣م) وتمت على إثره مبايعة الأمير سعود ولياً للعهد. ثم تولى الملك سعود العرش بعد وفاة والده في ٢ ربيع الأول ١٣٧٣هـ (نوفمبر ١٩٥٣م)؛ ليصبح بذلك ثاني ملوك الدولة السعودية الثالثة، وأول الدلائل على توطد دعائم تلك الدولة الفتية واستمراريتها.

ولد الملك سعود في الكويت في العام الذي استعاد فيه والده الرياض، فكان ميلاد الملك سعود متزامناً مع ميلاد الدولة التي سعى والده إلى بعثها من جديد، ولم يمض نصف قرن حتى تولى الملك سعود مسؤولية تطوير تلك الدولة، فحققت الدولة في عهده خطوات واسعة في دعم الاستقرار السياسي، وفي تحقيق المزيد من المنجزات الحضارية التي كان من شأنها دعم مكانة البلاد دولياً وتعزيز الرخاء لمواطنيها. وكان الملك سعود قد تولى إدارة الدولة قبل وفاة والده بمدة طويلة؛ حيث كان الملك عبد العزيز يعهد إليه بتصريف شؤون الدولة وتطوير مرافقها، فما حدث في عهده من قفزات حضارية على مختلف المستويات كان استمراراً لما كان منشغلاً به في عهد والده.[1]

(١) تجدر الإشارة إلى أن أسلوب توليه ولي العهد دوراً أوسع هو أسلوب جرت عليه الدولة السعودية الحديثة، فقد حدث في عهد الملك سعود بتولية أخيه الأمير فيصل، وفي عهد الملك خالد بتوليه أخيه الأمير فهد، وفي عهد الملك فهد بتولية أخيه الأمير عبدالله، وهو يتضمن تعاضداً وانسجاماً بين ولاة الأمر.

الملك عبدالله بمعية جلالة الملك سعود واخوانه الأمير سلطان والأمير طلال والأمير بندر والأمير ناصر والأمير نواف

كان من الطبعي أن يؤكد الملك سعود على ما سبق أن أكده والده وأجداده من قبل في الدولتين السعوديتين الأولى والثانية من التزام بمبادئ الشريعة الإسلامية، فكان ذلك باعثاً على الشعور بالطمأنينة باستمرارية الكيان. وكان مما أكد ذلك صدور بيان عن الديوان الملكي يعلن إبقاء مسؤولي الدولة في مواقعهم كما كان الأمر في عهد الملك عبد العزيز وعدم تغيير الرواتب والمساعدات التي كانت تقدم حسب الأنظمة السابقة.

على المستوى السياسي واجه عهد الملك سعود أزمة سياسية كبرى على المستوى العربي تمثلت في العدوان الثلاثي على مصر عام١٣٧٦هـ (١٩٥٦م)، فكان رد فعل المملكة الوقوف إلى جانب الشقيقة مصر بقطع علاقات المملكة بكل من بريطانيا وفرنسا اللتين اشتركتا في العدوان. وكان ذلك الموقف مؤشراً مبكراً على ما سيحدث عام١٣٩٦هـ (١٩٧٣م) حين قام الملك فيصل بقطع إمدادات النفط عن الدول الغربية نتيجة لدعمها إسرائيل في حربها ضد الدول العربية في ذلك العام.

حفل عهد الملك سعود بالمنجزات غير المسبوقة على المستوى الحضاري فأنشئت أربع وزارات للمعارف والزراعة والتجارة والمواصلات، كما أنشئت لأول مرة جامعة في المملكة هي جامعة الملك سعود التي تعد أول جامعة تنشأ في الجزيرة العربية بأكملها وذلك عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م)، كما أسست أول كلية عسكرية هي كلية الملك عبدالعزيز الحربية. إلى جانب ذلك افتتحت أول مدرسة لتعليم البنات في المملكة. كما حرص الملك سعود على أن يمتد العمران إلى أطهر بقاع الأرض وهما الحرمان الشريفان؛ فوسع المسجد النبوي، وبدأ توسعة الحرم المكي على النحو الذي أراح المعتمرين والحجاج.

في عام ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م) صدر قرار الأسرة المالكة السعودية مؤيداً برأي العلماء وأهل الحل والعقد بمبايعة الأمير فيصل بن عبدالعزيز ملكاً بدلاً من أخيه الملك سعود، فسافر الملك سعود إلى خارج المملكة لظروفه الصحية حيث توفي في اليونان لينقل جثمانه بعد ذلك، ليصلى عليه في مكة المكرمة، ثم يدفن في مقبرة العود بالرياض، حيث دفن والده وأجداده من آل سعود رحمهم الله جميعاً.

الملك عبدالله بمعية الملك فيصل

ثانياً: عهد الملك فيصل

كان للملك فيصل دور مميز في تطور المملكة العربية السعودية، فقد دخل معترك العمل الحكومي الإداري والسياسي في مرحلة مبكرة، إذ كان في سن لا تتجاوز الثالثة عشرة حين كلفه والده الملك عبد العزيز بأول مهامه، حيث سافر لزيارة بريطانيا وفرنسا بعد الحرب العالمية الأولى، ثم قام بزيارات أخرى للدول الغربية بعد ذلك ولاسيما بعد تأسيس المملكة، حيث عبر عن امتنان الدولة الوليدة للاعتراف بها. هذا بالإضافة إلى سفره إلى سان فرانسيسكو عند تأسيس هيئة الأمم المتحدة وتوقيعه على ميثاقها في مؤتمر «المائدة المستديرة» عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٥م).

ولد الملك فيصل عام ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م) وتوفيت والدته طرفه بنت عبد الله آل الشيخ بعد ولادته بفترة قصيرة فتربى عند أخواله من آل الشيخ حيث نشأ نشأة دينية، وعمقت القيم والمبادئ الإسلامية في شخصية الشاب فيصل على النحو الذي يتصل بما عرف عنه من ورع وصلاح، وكذلك اهتماماته بكل ما يتصل بالبعد الإسلامي، سواء في حياته الخاصة، أو في شؤون الدولة وتطورات السياسة وعلاقات المملكة ودورها على المسرح الدولي.

بويع الملك فيصل، كما سبقت الإشارة، عام ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م)، ولكن دوره في إدارة شؤون البلاد سبق ذلك، حيث كان قد عين في عهد والده نائباً له على الحجاز عام١٣٤٥هـ، (١٩٢٦م) ثم رئيساً لمجلس الشورى عند إنشائه عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م)، ليتولى - بعد ذلك - وزارة الخارجية عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) وكان أول وزير لها. في عهد أخيه الملك سعود تولى الأمير فيصل ولاية العهد ورئاسة مجلس الوزراء. وهكذا فإنه حين بويع ملكاً كانت خبرته وقدراته الإدارية والسياسية وصلت إلى قدر غير مسبوق من النضج في تاريخ الدولة السعودية الحديثة. ومن هنا يمكن التعرف على الخلفية التي تكمن وراء مختلف التطورات التي عمت المملكة في عهده سواء على المستوى الاقتصادي، كما في المشروعات الزراعية (مشروع الري والصرف في الأحساء ومشاريع السدود وبنك التسليف الزراعي)، أو على المستوى التعليمي، حيث انتشر تعليم البنات في خطوة اجتماعية وثقافية هائلة لمجتمع ظل زمناً طويلاً لا يكاد يرى للمرأة دوراً خارج سور بيتها. وتعدى الأمر ذلك إلى تأسيس محطة للبث التلفزيوني في خطوة جريئة أخرى، إلى جانب نشاط البعثات وتطور التعليم المهني والضمان الاجتماعي وما يتصل به من أنظمة، وكذلك المواصلات بأنواعها.

على المستوى السياسي عرف الملك فيصل بدعم القضايا العربية والإسلامية خاصة قضية فلسطين، ويتذكر الجميع دعاءه ألا يموت قبل الصلاة في المسجد الأقصى. كما عرف بدعوته للتضامن الإسلامي لجمع

الملك عبدالله بمعية الملك خالد يرعى سباق الهجن

الكلمة بين المسلمين، وكان للمملكة في عهده دور الريادة في تنظيم عقد مؤتمر القمة الإسلامي الأول عام ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م).

استشهد الملك فيصل في الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام ١٣٩٥هـ (الخامس والعشرين من مارس ١٩٧٥م) وخلفه في الحكم ولي عهده الأمير خالد بن عبد العزيز، رحمهما الله أجمعين.

ثالثاً: عهد الملك خالد بن عبد العزيز

تولى الملك خالد حكم المملكة إثر وفاة أخيه الملك فيصل، ويعد عهده من عهود الرخاء والتطوير في تاريخ المملكة الحديث، حيث شهد عهده ما يعرف بالطفرة الاقتصادية الأولى التي بني - بما وفرته من سيولة - كثيرٌ من دعائم البنى التحتية للنهضة في أواخر السبعينيات وحتى منتصف الثمانينيات من القرن العشرين. غير أن سمة الخير التي ارتبطت بعهد الملك خالد لدى مواطني المملكة ارتبطت بسمة أخرى هي الإصلاح، فقد عرف الملك خالد بأنه «الملك الصالح»، وهي صفات لا يختلف حولها أحد ويظل الناس يذكرونها له، ولاسيما أنها تربط عهده بالمشروع الذي قامت عليه الدولة السعودية في تأسيسها ثم في مراحلها التالية، أي مشروع الإصلاح الذي اتخذ سمة العقيدة في البدء، ثم استمر ليشمل مجالات الحياة كافة.

ولد الملك خالد في الرياض عام ١٣٣١هـ (١٩١٣م)، ونشأ كما نشأ إخوته في كنف أبيهم الملك عبد العزيز نشأة تقوم على التدين العميق والحرص على اكتساب المعرفة والخبرة منذ الصغر. وكان الأمير خالد في هذا المضمار عوناً لأخيه الأمير فيصل حين عينه والده الملك عبدالعزيز نائباً للملك على الحجاز فكان مستشاراً لأخيه، ليتولى بعد ذلك إدارة مكة المكرمة نيابة عن أخيه فيصل. وقد صحب أخاه فيصلاً في رحلات كثيرة خارج البلاد كانت له معيناً للمعرفة السياسية والخبرة في الشؤون الدولية. من هنا جاء تعيينه مندوباً مفوضاً من الملك عبد العزيز لحل الخلافات بين المملكة واليمن عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م) في المفاوضات التي تمخض عنها توقيع معاهدة الطائف بين البلدين الشقيقين. ثم حضر مؤتمر لندن عام ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م) حول القضية الفلسطينية.

بعد تولي الملك فيصل الحكم بويع الأمير خالد ولياً للعهد، بعد تنازل أخيه الأمير محمد بن عبد العزيز عن ولاية العهد، ليعين بعد ذلك نائباً لرئيس مجلس الوزراء. وبعد استشهاد الملك فيصل بويع الملك خالد ملكاً، حيث تولى أيضاً رئاسة مجلس الوزراء، لكنه قرر في بيان صدر في ١٣٩٥/٣/١٦هـ (١٩٧٥/٣/٢٩م) أن ينوب عنه ولي العهد الأمير فهد في تصريف أمور الدولة سواء في حضوره أو غيابه. وقد عمل الملك خالد وولي عهده على عدد

الملك عبدالله مع الملك فهد في صالة المطار

من المشروعات التي أحدثت نقلة كبيرة في تاريخ المملكة سواء على المستوى المحلي أم الدولي. ففي عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) أُقر تشكيل جديد لمجلس الوزراء دخل على إثره عدد من أساتذة الجامعة السعوديين المجلس، وأسهم أولئك في النقلة الحضارية التي اتسم بها عهد الملك خالد.

من أهم المشروعات التنموية التي شهدتها البلاد على المستوى الاقتصادي إنشاء مؤسسة سابك للصناعات البتروكيماوية، وإنشاء صوامع الغلال ومطاحن الدقيق، وتأسيس وزارة الصناعة والكهرباء. أما على المستوى التعليمي فقد أسست جامعتا الملك فيصل بالدمام وأم القرى بمكة المكرمة. هذا بالإضافة إلى العديد من المشروعات في قطاعات مختلفة كالقطاع الصحي.

إلى جانب ذلك شهد عهد الملك خالد أحداثاً جساماً منها على المستوى المحلي الاعتداء على الحرم المكي على يد جهيمان ومن معه عام ١٤٠٠هـ (١٩٧٩م) والجهود التي بذلتها الدولة لاحتواء تلك الفتنة والقضاء عليها. كما أن من الأحداث الكبيرة التي استدعت وقفة سعودية كبيرة الاعتداء الإسرائيلي على لبنان في صيف ١٤٠٣هـ (١٩٨٢م). وكان الملك خالد قد دعا في العام الذي سبقه إلى مؤتمر قمة إسلامي عقد في رحاب البيت العتيق بمكة المكرمة لمناقشة القضايا التي تهم العالمين العربي والإسلامي وصدر عنه ما عرف بـ «بيان مكة التاريخي».

في عام ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) انتقل الملك خالد إلى رحمة الله في الطائف، ودفن كما دفن والده وأجداده وإخوانه في مقبرة العود بالرياض رحمهم الله جميعاً.

رابعاً: عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز

بدأ إسهام الملك فهد في حكم المملكة وإدارة شؤونها على كافة الأصعدة قبل مبايعته ملكاً بعدة سنوات، وذلك في عهد سلفه الملك خالد رحمه الله. وهو بهذا شبيه بالملك فيصل الذي تسنم الكثير من المسؤوليات أثناء حكم سلفه الملك سعود – رحمهم الله جميعاً – فكان عهده استمراراً لما سبق أن بدأ به في مرحلة سابقة، كما أنه شبيه بأخيه الملك عبدالله الذي سيوكل إليه إدارة أمور البلاد فيما بعد على النحو الذي سيأتي تفصيله فيما يلي.

لقد حفل عهد الملك فهد بأحداث وسمات أخرى، منها طول عهد حكمه (ثلاثة وعشرون عاماً)، وامتلاء ذلك العهد بأحداث جسام في طليعتها احتلال الكويت وحربا الخليج الأولى والثانية، وكان الملك فهد قد تولى إدارة شؤون البلاد بتكليف من الملك خالد حين وقعت حرب الخليج الأولى، أي الحرب العراقية الإيرانية عام ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م). كما شهد عهده حرب الخليج الثانية المعروفة بحرب تحرير الكويت عام ١٤١١هـ (١٩٩٠م).

هذا بالإضافة إلى أن عهده شهد حادثة الإرهاب الكبرى المتمثلة في هجوم الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م (١٤٢٢هـ) على أبراج نيويورك من قبل القاعدة. واستطاع الملك فهد في مواجهة تلك الأحداث أن يقود البلاد إلى بر الأمان وأن يجنبها الكثير من الدمار الذي كان يمكن أن يلحق بها لولا حنكته السياسية وبعد نظره، فقد كان قراره التاريخي بالسماح للقوات الدولية بالدخول إلى أراضي المملكة العامل الأهم بعد توفيق الله في تحرير الكويت ودرء العدوان المتوقع. تلك الحنكة والشجاعة انعكست على ميادين سياسية وغير سياسية كثيرة، سواء أكان ذلك في المؤتمرات أو في مواجهة التحديات المختلفة.

كان استعداد الملك فهد، الذي ولد عام ١٣٤٠هـ (١٩٢١م)، لتولي المهام المختلفة قد بدأ مبكراً، أي منذ نشأته في كنف والده الملك عبد العزيز ودراسته في مدرسة الأمراء التي أقامها والده، ثم التحاقه بالمعهد العلمي بمكة وتلقيه دروساً مبكرة في اللغة الإنجليزية. وكانت المهام الجادة قد بدأت مبكرة حيث رافق أخاه الملك فيصلاً إلى مؤتمر التوقيع على ميثاق هيئة الأمم المتحدة ومثل المملكة في حفل تنصيب الملكة إليزابيث، ملكة بريطانيا، عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م).

تولى الملك فهد الحكم في ٢١ شعبان ١٤٠٢هـ (١٣ يونيو ١٩٨٢م) إثر وفاة أخيه الملك خالد رحمه الله، وكانت منجزاته في ذلك العهد استمراراً لما كان قد بدأ به قبل ذلك، كما سبقت الإشارة. غير أن البلاد في تلك الفترة واجهت تحدياً اقتصادياً تمثل في هبوط أسعار النفط مما أثر في ميزانية الدولة وقدرتها على تنفيذ الكثير من المشروعات، ومع ذلك فقد تمكنت الدولة من مواجهة تلك الأزمة بحزمة خطوات تقشفية ساعدت على تخطي الأزمة، لاسيما في الفترة التي أعقبت حرب تحرير الكويت وتحمل الدولة عبئاً اقتصادياً كبيراً لصد العدوان ومساعدة الأشقاء.

حققت المملكة في عهد الملك فهد منجزات تنموية عديدة في كل القطاعات على الرغم مما واجهته من تحديات سياسية واقتصادية. فعلى مستوى التعليم ازداد عدد الجامعات والكليات والمعاهد والمدارس بشكل ملحوظ. ومن ناحية أخرى اهتمت الدولة بتحقيق الأمن الغذائي من خلال دعم الزراعة، على نحو غير مسبوق نتيجة الإعانات السخية التي قدمتها الدولة. هذا إلى جانب تأسيس مؤسسة صناعية عملاقة هي سابك التي دعمت توجه المملكة نحو التصنيع وإيجاد بدائل اقتصادية لتصدير البترول. كما شمل التطوير القطاعات العسكرية كالجيش والحرس الوطني والأمن، إلى جانب شق الطرق وتطوير وسائل النقل والاتصال وإنشاء المطارات.

يضاف إلى ذلك الإنجازات الكبيرة التي تحققت في عهده رحمه الله والتي تمثلت بصدور ثلاثة أنظمة كبرى هي: نظام الحكم، ونظام مجلس الشورى، ونظام المناطق. وهي أنظمة تعد نقطة تحول في التطور السياسي

والإداري للمملكة ومسيرة التنمية التي رعاها الملك فهد وتابعها من بعده الملك عبدالله. ففي تلك الأنظمة تثبيت للبناء المؤسسي للدولة وتكريس لمبدأ التمييز بين السلطات ودعم بعضها بعضاً. وتعد إعادة مجلس الشورى للعمل من المنجزات العملاقة للملك فهد، فالمجلس الذي أسسه الملك عبدالعزيز كان بحاجة إلى من يدعمه بوصفه مؤسسة ضرورية وحيوية لتعضيد مجلس الوزراء في إصلاح الأنظمة والمؤسسات وفي سن التشريعات اللازمة.

من ناحية أخرى اعتنى الملك فهد بالشأن الإسلامي عناية بالغة فأصدر أوامره بالقيام بأكبر مشروع توسعة للحرمين الشريفين حتى ذلك التاريخ، وأنشأ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة، لتوفير المصحف الشريف لدول العالم الإسلامي كافة. وفي عام ١٤٠٧هـ (١٩٨٦م) حمل لقب خادم الحرمين الشريفين بدلاً من جلالة الملك تكريساً لمهامه الكبرى بوصفه قائداً لدولة تعد القلب من العالم الإسلامي. واللقب يحمل مغزى خاصاً لمن يتابع تاريخ الدولة السعودية في مرحلتيها الأولى والثانية، إذ إنه يذكر بلقب الإمامة الذي تلقب به حكام الدولتين السعوديتين الأولى والثانية للتأكيد على دورهم الإسلامي، ودور بلادهم في خدمة الإسلام ورفع رايته.

توفي الملك فهد في ٢٦ جمادى الثانية من عام ١٤٢٦هـ (١ أغسطس ٢٠٠٥م) إثر مرض ألم به قبل ذلك بسنوات. وكان ولي عهده الأمير عبد الله ساعده الأيمن طوال سنوات توليه ولاية العهد، سواء في التصدي للتحديات أو في تحقيق المشروعات التنموية، إلى جانب توليه رئاسة الحرس الوطني، ثم ازدادت مسؤولياته بعد مرض الملك وما واجهه من صعوبة في ممارسة مهامه. وقد حرص الملك عبد الله بعد مبايعته ملكاً على المملكة العربية السعودية أن يسير على خطى سلفه الكبير فلقب نفسه أيضاً «خادم الحرمين الشريفين».

الباب الثاني

عبد الله بن عبد العزيز

الفصل الأول

رحلة الرجولة من الطفولة إلى الأبوة

الفصل الأول

رحلة الرجولة من الطفولة إلى الأبوة

طفولة وشباب مبكر

في نهاية شهر أكتوبر من عام ١٣٤٠هـ (١٩٢١م) مكّن الله للملك عبدالعزيز ضم مدينة حائل إلى مساحة حكمه المتنامية، ذلك الحدث الذي شكل منعطفاً في جهاده - رحمه الله - لتأسيس الدولة السعودية الثالثة التي صارت المملكة العربية السعودية بعد ذلك بعشرة أعوام تقريباً. وكانت حائل قبل أن تنضم لحكم الملك عبدالعزيز تحت حكم سعود بن عبدالعزيز الرشيد، وشهدت مرحلة من الفوضى والاغتيالات أودت بحياة عدد من أسرة حكامها من آل الرشيد، ومن أولئك أميرها سعود الذي قتل ولم يكد يتجاوز العشرين من عمره على يد ابن عمه عبدالله الطلال الرشيد. من هنا جاء ضم حائل إلى الدولة السعودية إيذاناً بمرحلة جديدة من الاستقرار والنماء، وكانت سياسة الملك عبدالعزيز عند ضم حائل سياسة في غاية الحكمة، فقد طمأن أهليها ورسخ صلته بهم، وعمل كل ما من شأنه تثبيت الأمن بينهم، وإشعارهم بأنهم بين أهلهم من مناطق أخرى كانت النواة لدولة تتشكل.

إحدى الخطوات المهمة التي اتخذها الملك عبدالعزيز - ولم يكن إذ ذاك قد صار ملكاً بعد - تمثلت في زواجه من أرملة الأمير سعود بن رشيد، وهي الأميرة فهدة بنت العاصي بن شريم، التي كانت قد أنجبت لسعود ابناً واحداً هو مشعل الذي رعاه الملك عبدالعزيز كأحد أبنائه. ومما يسترعي الانتباه أن سعوداً بن رشيد كان قد خاض معارك ضد عبدالعزيز نفسه، غير أن ذلك لم يحل بين عبدالعزيز ورعاية عائلته ولحم أواصر الصلة بين العائلتين متجاوزاً ما كان بينهما من خلاف دامٍ.

أما فهدة فكانت سليلة أسرة من كبار الأسر في قبيلة شمر التي تقيم في شمال الجزيرة وتتخذ من حائل قاعدة لها، ووالدها العاصي بن شريم كان معروفاً على نطاق واسع بالشجاعة والفروسية وبتمثل القيم العربية الأصيلة الأخرى، ولم تكن مصاهرة تلك الأسرة لآل الرشيد، حكام حائل وما جاورها ورؤوس قبيلة شمر آنذاك، إلا دلالة على أهمية تلك الأسرة ورغبة آل الرشيد في تحقيق صلة أسرية داعمة. تلك الصلة هي أيضاً ما أراده عبدالعزيز حين خطب الأميرة فهدة من والدها، فبزواجه منها صار والدها حليفاً له ومن كبار رجاله، حارب معه في مواقع كثيرة منها موقعة «السّبَلَة» المشهورة، علماً بأن شهرة عبدالعزيز ومكانته في الجزيرة العربية بوصفه قائداً سياسياً وعسكرياً كانت كافية بحد ذاتها لتقريب الكثيرين منه وسعيهم للانضمام إلى مشروعه الوحدوي الكبير.

الأميرة فهدة في الرياض: الولادة واليتم المبكر[١]

بزواجها من عبدالعزيز بن سعود انتقلت الزوجة الشمرية إلى الرياض لتعيش في كنف زوجها وتنضم إلى الأسرة المتنامية هناك، حيث كان عبدالعزيز قد اقترن بزوجات أخريات أنجبن له العديد من الأبناء والبنات وارتبط من خلال الجميع بعلاقات مصاهرة كانت جزءاً من مسعى شمولي لتوسيع قاعدة الدولة الجديدة وتوطيد دعائمها.

مع أن الرياض التي وصلتها الأميرة القادمة من حائل هي عاصمة الدولة الجديدة وفي طور تنام سريع انتقل بها من القرية الصغيرة التي استعادها عبدالعزيز ورجاله قبل وصول الأميرة بعشرين عاماً تقريباً، فإنها كانت لما تزل في عداد البلدات. أحد الرحالة الأجانب الذين زاروا الرياض في تلك الفترة وصفها بأنها «ليست أكبر كثيراً من شقراء»،[٢] ولم تكن شقراء يومئذٍ سوى بلدة صغيرة. كانت تحد بالأسوار وعلى كل سور بوابة رئيسة، وكانت بساتين النخيل تحفها من مختلف الجهات. وقد قُدر عدد السكان في تلك الفترة ما بين عشرين وخمسة وعشرين ألف نسمة. ومما يشير إلى التنامي السريع للرياض ما يذكره الرحالة عبدالله فيلبي من أن سكان الرياض كانوا قد بدأوا في تلك الفترة في البناء خارج السور.

في تلك الرياض المتنامية أقامت الأميرة فهدة في منزل أعد لها وسط البلدة. كان المنزل في المنطقة التي أقيم فيها قصر الحكم، أو قصر الحاكم الإداري لما أصبح منطقة الرياض فيما بعد. هناك أنجبت فهدة ابنها عبدالله وابنتيها نوف وصيته،[٣] تحفهم رعاية الأب الحانية ويحوطهم العديد من الخدم والحشم. غير أن الحياة الهانئة لم تدم طويلاً، فقد أراد الله جل شأنه أن تصاب الأم بداء عضال أدى إلى تردي حالتها الصحية باستمرار. إثر ذلك أمر الملك عبدالعزيز بجلب أفضل الأطباء لها وعندما لم يستطع الأطباء المحليون فعل الكثير أمر بإحضار طبيب من الخارج فأتي بطبيب أمريكي من البحرين اسمه «لويس ب. ديم» ولكنه لم يستطع عمل الكثير.[٤] نقلت الأميرة فهدة بعد ذلك إلى قصر البديعة، لكن ذلك لم يفد كثيراً فتوفيت الأم الرؤوم تاركة خلفها

---

(١) اعتمد كثير من المعلومات الواردة هنا على ما ذكرته سمو الأميرة نوف بنت عبدالعزيز في لقاء شخصي مسجل مع الكاتب.

(٢) وليام فيسي: الرياض: المدينة القديمة، ترجمة د/ عبدالعزيز الهلابي (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٩٩٩) ص٣٤٦.

(٣) انتقلت صاحبة السمو الملكي الأميرة صيتة بنت عبدالعزيز إلى رحمة الله أثناء إعداد هذا الكتاب، وذلك في جمادى الأولى من عام ١٤٣٢هـ (أبريل، ٢٠١١م) وكان فقدها مؤلماً للجميع لما عرف عنها من نبل الشخصية، وحب للخير، وحرص على رعاية المحتاجين والجمعيات الخيرية، وقد أسس "ملتقى نساء آل سعود" الذي كانت مشرفة عليه، كرسياً باسمها هو "كرسي الأميرة صيتة لأبحاث الأسرة" في كلية الآداب بجامعة الملك سعود لدعم الأبحاث المتصلة بالأسرة السعودية. رحمها الله رحمة واسعة وأجزل مثوبتها.

(٤) الطبيب Louis B. Dame جاء من الإرسالية العربية الأمريكية في البحرين.

أطفالها الثلاثة: عبدالله وعمره حوالي عشرة أعوام وأخته نوف حوالي ثمانية وصيته حوالي ستة. وكانت ولادة الأمير عبدالله عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م).

هكذا إذاً خسر عبدالعزيز زوجة أحبها وحرص على شفائها وبقائها إلى جانبه بكل الوسائل الممكنة، لكن إرادة الله غالبة. وهكذا أيضاً خسر الأطفال الثلاثة، عبدالله وأختاه، أماً حنوناً رعتهم حق الرعاية وأحاطتهم بكل ما يمكن لأم أن تحيط به أبناءها. كان ذلك حتى قضى الله أمراً كان مفعولا. كان اليتم المبكر إذاً ظلالاً مبكرة أحاطت بقتامتها طفولة هانئة ومستبشرة تتطلع إلى المستقبل بأمل واثق. غير أن براءة الطفولة المعتادة لازمت عبدالله وأختيه فلم يأبهوا لتلك الظلال ولم يبد عليهم، كما تتذكر الكبرى من البنتين – الأميرة نوف – ما يشير إلى تأثر بوفاة الأم. كانت الأميرة الصغيرة تمارس حياتها الطفولية باللعب والغناء مع بقية الأطفال. غير أن ذلك لم يصدق تماماً، كما يبدو، على أخيها الأمير عبدالله، فهي تشير إلى أنه حين سمع بخبر وفاة والدته رحمها الله انطلق إلى مجلس في أعلى المنزل الطيني واستلقى على السجادة واضعاً على رأسه «مسنداً» من تلك الموزعة في أرجاء المجلس وتكون عادة متكأ لظهور الجالسين. هل كان يعبر عن حزن عميق يتجاوز الكلمات؟ الأمير الصغير الذي صار ملكاً لا يتذكر – كما تقول الأميرة نوف – لكن لعل ذلك الحزن هو بالفعل ما كان يحركه في تلك التجربة المبكرة من الفقد، مع أن تصرفه كان تصرفاً بريئاً يشي بمزيج من الاحتجاج والإذعان إلى جانب الحزن الطفولي الطبعي تجاه حدث لا مرد له وإن لم يكن مفهوماً على الأرجح لصبي في نهاية عقده الأول.

سلوك الأمير الصغير عند سماعه وفاة والدته، وما عبر عنه ذلك من حزن يشير إلى علاقة وثيقة بينه وبين والدته التي فقد، ومن الصعب تصور أن طفلاً بذلك العمر لا يتأثر بفقد والدته أو أن ينسى بسرعة حدثاً هائلاً مثل ذلك. غير أن الدراسات العلمية تشير إلى أنه كلما ازداد عمر الطفل ازدادت استقلاليته العاطفية والنفسية وقدرته من ثم على التعامل بواقعية مع ذلك الفقد وتحمل نتائجه والتأقلم معها.[١] ولعل من الطبعي عندئذٍ أن يزداد اعتماد الطفل على نفسه وثقته بقدراته واعتزازه بما يملك من قدرات، بل وأن يحرص أكثر على تنميتها على النحو الذي يجعله قادراً على تحمل المسؤولية ليس تجاه نفسه فحسب، وإنما تجاه إخوته الصغار، كما هو الحال مع الأمير عبدالله في تلك السن من نموه. وفي معالم الشخصية التي اتسم بها الأمير عبدالله شاباً ثم رجلاً ما يؤكد الأثر الذي تركه الفقد المبكر من استقلالية واعتزاز بالنفس، على النحو الذي تشير المعلومات المتوافرة مما تتضمنه الصفحات الآتية.

---

(١) تشير بعض الأبحاث – ومنها ما نشرته إحدى المجلات العلمية المتخصصة بالولايات المتحدة – إلى تفاوت ردود الأفعال لدى الأطفال دون الثامنة وإلى قدرة من هم من الثامنة فما فوق على التعامل بواقعية ونضج أكبر مع وفاة الأم. انظر: Wolmer, Leo, et al., "The Mother-Child Dyad Facing Trauma: A Developmental Outlook," The Journal of Nervous and Mental Disease vol. 188, issue 7 (July, 2000).

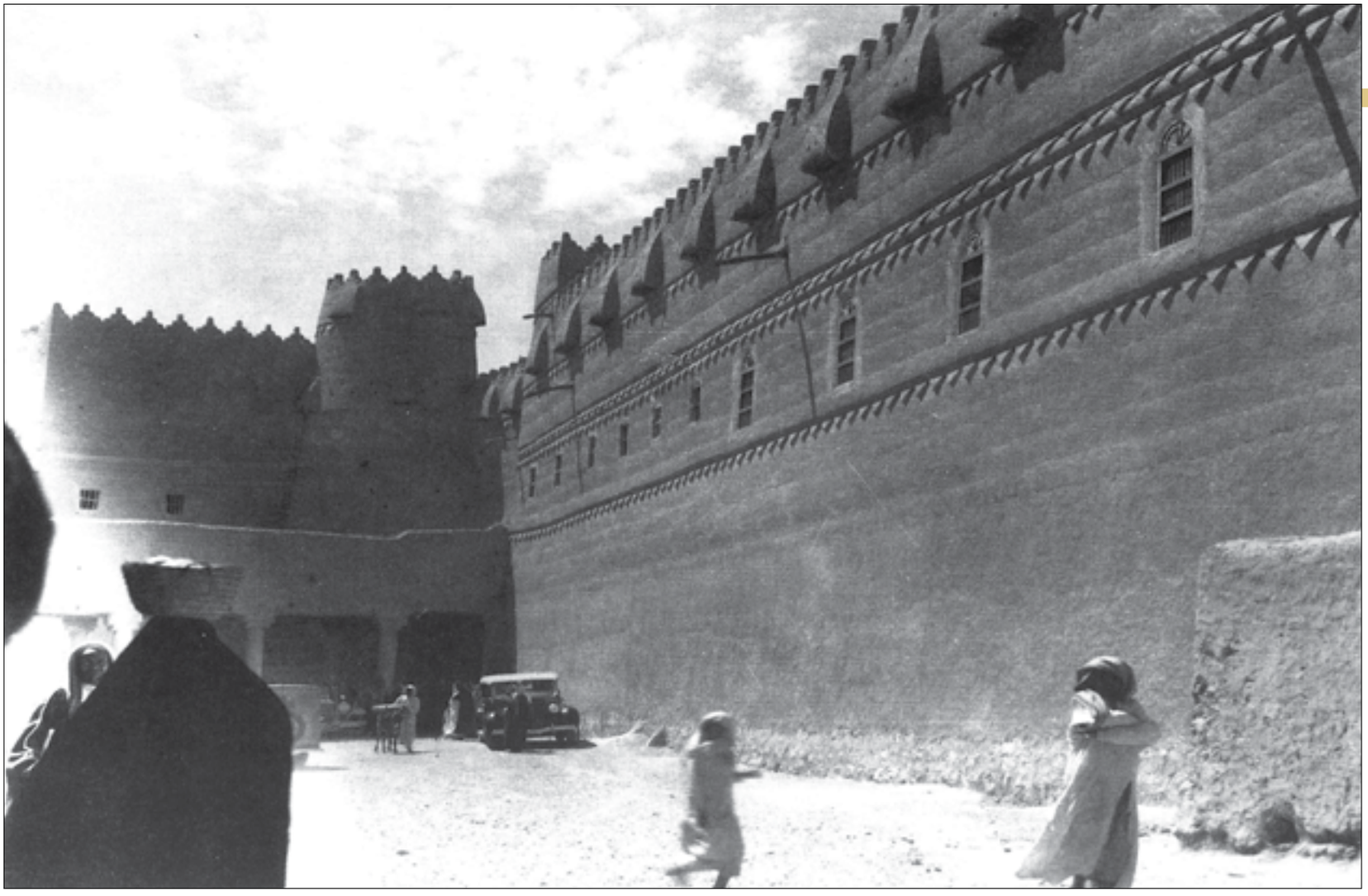

معالم المكان

يقول الأستاذ عبدالرحمن بن سليمان الرويشد - المعروف بتأريخه للدولة السعودية وأسرة آل سعود بشكل خاص[1] - إن الملك عبدالله ولد في قصر الديرة وهو قصر الإمام فيصل الذي بني وفقاً للعمارة الحربية المدنية الشائعة في الجزيرة العربية آنذاك، فكان قصراً للسكن وحصناً منيعاً. وفي وصف القصر يضيف الأستاذ عبدالرحمن: «وكان أهم ما يميز عمارته، الأسوار والأبراج العالية القائمة على بواباته، وعلى أجزاء متساوية من أبعاده، كما تميز بالممرات الضيقة، والممرات الخارجية المحمولة، لتوصل إلى جميع نواحيه بأمان، ويكون مع وحداته السكنية المرتبطة به قرية مستقلة ذات طابقين، وأفنية مكشوفة تلتف حولها غرف الوحدات، عبر ممرات

(١) من مذكرة أعدها لمركز توثيق سيرة الملك عبدالله بن عبدالعزيز رحمه الله.

أرضية وعلوية حملت على أعمدة من الحجر. أما سقفه وأبواب الغرف والنوافذ، فهي مصنوعة من المواد المحلية، كخشب الأثل، وجريد النخل، وله مزاريب (مرازيم) خشبية لتصريف أمطار السيول، وفي داخله قاعات وغرف واسعة، وتبلغ مساحته أكثر من عشرة آلاف متر مربع».

إلى جانب هذا القصر شيد الملك عبدالعزيز منذ وقت مبكر قصوراً إلى الجنوب والشرق لوالده الإمام عبدالرحمن ولبقية زوجاته ولكبريات عماته من بنات الإمام فيصل، «وكانت جميع تلك القصور»، كما يذكر الأستاذ عبدالرحمن الرويشد، «ينتظمها ممر محمول يتيح لعبدالعزيز، ولبعض سكان القصور، الوصول إلى بقيتها المرتبطة به بكل سهولة وأمان. أما ناحية القصر الشمالية فتطل على الساحة الكبرى للبلدة، وتعرف بـ (الصفاة) وهي ميدان فسيح يتسع للقادمين للبلاد من البلدان الأخرى للتسوق أو للسلام على الملك».

الأسرة الصغيرة ضمن المحيط الكبير

في قصر الملك الوالد استمرت الحياة، كما كان لابد أن تفعل، وأحيط الصغار الثلاثة بعناية فائقة من قبل المحيطين بهم، ولاسيما من والدهم الجليل الذي حرص كل الحرص على ألا يحسوا بمرارة الفقد الذي أصاب الجميع. أبرز الخطوات التي أمر بها الملك عبدالعزيز كانت إحضار سيدة ترعاهم رعاية أمومية ومسؤولة، فوقع اختياره على سيدة من عائلة «الرتيق» تقيم في الرياض. تلك السيدة، واسمها «نورة»، وإن كانت تعرف بـ «نويّر»، كانت تعمل لدى شقيقة الملك عبدالعزيز، الأميرة نورة بنت عبد الرحمن، وكانت تضطلع بمهام رئيسية في قصر الأميرة التي كانت متزوجة من الأمير سعود الكبير، ابن عمها. وتذكر الأميرة نوف بنت عبدالعزيز أن الأميرة نورة، على الرغم من حرصها الذي لا شك فيه على أبناء أخيها، فقد أبدت له مدى الصعوبة التي ستواجهها بغياب تلك السيدة عن قصرها الذي لا يكاد يهدأ من كثرة الولائم التي يقيمها الأمير سعود. لكن عبدالعزيز أصر على إرسال تلك السيدة مقدماً حاجة الصغار على حاجة الكبار، فكان أن جاءت نورة (أو نويّر) لتقيم مع عبدالله وأخته أماً بديلة لهم ترعى احتياجاتهم واحتياجات المنزل، ولم تلبث طويلاً حتى غدت أماً حقيقية أخرى كما أكدت بعض الخطوات التي اتخذتها.

حين ولد عبدالله بن عبدالعزيز كان ترتيبه التاسع بين إخوته الأحياء آنذاك وأكبرهم سعود، المولود سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م)، وأصغرهم منصور، الذي كان يكبر عبدالله بحوالي العامين. غير أن عدداً من أولئك الأخوة كانوا مثل منصور قريبين من سنه، وهم: ناصر وسعد وفهد وبندر وسلطان ومشعل ومساعد وعبد المحسن، منهم من هو أكبر بقليل ومنهم من هو أصغر بقليل. وكان التقارب في السن بطبيعة الحال مدعاة للتقارب في الاهتمامات وما يغلب على الفتيان من هوايات وطباع في تلك المرحلة من العمر. ويدخل في ذلك الإطار التنافس والسعي إلى تحقيق الذات ضمن الضوابط المرعية من قيم دينية واجتماعية وغيرها. كان جميع الإخوة، ولاسيما من بلغوا الحلم، يخضعون لمتابعة صارمة من والدهم الذي كان حريصاً على تنشئتهم تنشئة إسلامية ورعة وتلقينهم قيم الحياة العربية الأصيلة، إلى جانب إعدادهم لتولي مسؤوليات دولة في طور النمو وتواجه العديد من التحديات داخلياً وخارجياً. لذا كان من الطبعي أن يتوقع منهم قدراً عالياً من الانضباط في السلوك وفي الالتزام بقيم الدين والمجتمع، وبما أن كثيراً من أولئك الأبناء كانوا يعيشون في بيوت مستقلة مع أمهات مختلفات فإن الملك عبدالعزيز كان حريصاً على أن يكون القائمون على رعاية أبنائه وبناته حريصين مثله على تبني القيم والضوابط التي كان يتبناها هو ويرى أن تكون مرعية على الدوام.

حين أوكل أمر رعاية عبدالله وأخته إلى نورة الرتيق، أو «نوير» كما جرت العادة على تسميتها، سعت

تلك المرأة إلى فعل كل ما بإمكانها – وبكل ما أوتيت من حنان وأمومة – لتعويض الأطفال الثلاثة عن غياب أمهم. كانت تسعى إلى توفير الإشباع العاطفي وتوفير المستلزمات المادية لهم كي لا يشعروا بأنهم أقل من إخوانهم في كل وجوه المسلك والملبس وفي المظاهر الأخرى. وكان الملك عبدالعزيز حريصا من جانبه على توفير كل الاحتياجات من مصروف وغيره. كان القصر يبعث باحتياجات القصور الملكية من أطعمة، وكانت هناك مخصصات شهرية للباس وغيره من المصروف من خلال وكيل مسؤول عن تلك الاحتياجات. غير أن تلك الاحتياجات كانت أحياناً تتجاوز ما يصل من الملك عبدالعزيز سواء تمثل ذلك في لباس للأميرتين الصغيرتين أم للأمير عبدالله أو في بعض الكماليات التي لم يكن من السهل مطالبة وكيل الملك بتأمينها، مثل السيارة أو المزيد من الخيول أو بعض الألبسة النسائية.

تذكر الأميرة نوف أنه حين توفيت والدتهم تركت مصوغات ثمينة ورثتها من زواجها الأول تضمنت بعض اللؤلؤ الثمين وكذلك بعض ما تلبسه الفتيات في ذلك الوقت مثل «المُسرّح» والقلائد الذهبية وما إليها. كانت الأميرتان نوف وصيته يلبسن من تلك المصوغات الثمينة، أما الأمير عبدالله فكانت «نوير» تراعي احتياجاته لكيلا يكون أقل من إخوانه، فكانت ترهن بعض تلك المصوغات للحصول على المال. بهذا تمكنت من شراء سيارة لعبدالله وتحقيق بعض احتياجاته الأخرى. غير أن المشكلة لم تلبث أن اتضحت حين علم الملك عبدالعزيز بما فعلته «نوير» فاستدعاها وأنّبها بشدة وأمرها ألا تفعل ما فعلته مرة أخرى. وكان من الطبعي أن يغضب الملك الكبير والعطوف فهو لم يعتقد لوهلة أن ابناً أو بنتاً له سيحتاج إلى توفير المال بالرهن وهو القادر على توفير كل احتياجاتهم لو علم بها. بل كان من المتوقع أن يحرص الملك عبدالعزيز على احتياجات أبناء صغار تيتموا بسرعة فحرموا مما لم يحرم منه إخوة وأخوات لهم كثر، معهم أمهاتهم ولا تكاد ترد لهم طلبات، وقد نفهم استياءه الشديد من هذه الناحية، فحرصه على أولئك الأبناء والبنات لا يقل إن لم يفق حرصه على غيرهم واكتشافه لحاجتهم سيكون مؤلماً له بشكل خاص. غير أن موقف «نوير» كان مفهوماً أيضاً فقد تصرفت مثل كثير من الأمهات حين تدفعهن العاطفة لفعل ما لن يفعله كثير من الآباء وما لا يقبلون أن يفعل فيغدو من الضروري إخفاء الأمر عنهم، هذا إلى جانب الحرج الذي ربما شعرت به إزاء فكرة أن تطلب المزيد من المساعدة من وكيل الملك. كان من المهم بالنسبة لتلك المرأة ألا يشعر عبدالله بأنه أقل من غيره وألا تشعر البنتان بأنهما ليستا بمستوى أخواتهن أو غيرهن من البنات.

هذه الصورة من صور الطفولة والتراحم تجاورها صورة أخرى من صور تتمثل في موقف الأمير الصغير عبدالله من أختيه، فمنذ البدء كان واضحاً أنه أحس بأنه هو المسؤول عنهما وأنه بمثابة الأب القريب، وهو شعور لا يستغرب في الأسر الكبيرة والممتدة مثل أسرة – أو بالأحرى أسر – الملك عبدالعزيز حيث تكثر الأمهات والأولاد

الملك عبدالله في حديقة نادي الفروسية في شبابه

والبنات ويحتدم الوزراء والوكلاء والخدم والحشم، بل وحيث تحتشد الدولة بأكملها من وزراء دولة وموظفين. كانت القصور الملكية خلايا تعج بالحركة، ومن الطبعي في أجواء كتلك أن تنشأ وحدات صغيرة ضمن المنظومة الكبرى، وحدات تربطها بتلك المنظومة قيم وضوابط وأواصر محبة واحترام، بقدر ما ترتبط في داخلها بقدر عالٍ من التماسك وتلمس الاحتياجات سواء كبرت أو صغرت. تذكر الأميرة نوف في هذا السياق أنها كانت تعد عبدالله أباً لها بقدر ما كان هو يعدها أماً وبقدر ما كانت شقيقتها الصغرى صيتة تعد عبدالله أباً ونوف أماً أيضاً، وهي بدورها تعد صيته أماً وهكذا. كان الأشقاء الثلاثة ينامون حين يأتي الصيف في سطح المنزل، كعادة سكان الرياض وغيرها من مدن الصحراء، وبعد وفاة والدتهم أصبحوا أشد تقارباً والتصاقاً. تتذكر الأميرة نوف أن صيته، وهي الصغرى، كانت أحياناً تنهض من فراشها في منتصف الليل لتندس مع شقيقها عبدالله في تصرف عفوي من طفلة فقدت أمها وجعلها صغر السن أكثر إحساساً بالفقد. وكان الفتى عبدالله بحكم السن الأقرب إلى أن يكون الأقدر على أداء دور الأب القريب، الأب الحامي والحاني، والأقدر كذلك على توفير احتياجات لشقيقتيه لم يكن بمقدورهما تحقيقها. كان يشاركهن في كل ما يأتيه من دعم مالي، وكان يطلعهن على كثير من الأمور. كان التكاتف الحميم شعار تلك الوحدة الأسرية الصغيرة.

من الأمثلة اللافتة بدلالتها ما حدث حين منح الملك عبدالعزيز ابنه الشاب عبدالله «شيكاً» لم يعرف الأمير الشاب، الذي لم يكد يبلغ العشرين، ما يعنيه، حتى أخبر بأنه ورقة موثقة يمكنه بواسطتها الحصول على المال، وبالطبع لم يكن الشاب استثنائياً في عدم معرفته بما صار يعرف بالشيك، فتلك كانت نقلة حضارية في عمر مجتمع ينمو في كل الاتجاهات الاقتصادي منها والسياسي والاجتماعي وغيره. كانت الإعانات الملكية في تلك الفترة، سواء كانت على شكل ما يعرف بالشرهات أو ما يكون على شكل مخصصات للعائلة المالكة، تأتي إما على شكل مواد عينية من أطعمة ولباس، أو تأتي على شكل نقود معدنية ثقيلة الحمل. أما الشيك فكان جديداً – ومن المتوقع أن يكون – كما تقدّر الأميرة نوف، نتيجة اكتشاف النفط في المملكة وبداية تدفق الثروة، أي أننا نتحدث عن نهاية الأربعينيات الميلادية (اكتشف النفط عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م). الشيك المشار إليه تضمن مبلغاً كبيراً من المال أُخبر أنها من والده، وأن المبلغ سيكون مخصصات سنوية يصرفها على احتياجاته واحتياجات أسرته وما يضمه بيته من خدم معظمهم من الرقيق.[1] ما فعله الأمير عبدالله هو أنه حصل على المبلغ وأتى إلى شقيقتيه ومنح كل واحدة منهما نصفه قائلاً إنه لا يحتاج المبلغ؛ لأنه يجد ما يكفيه. روح الإيثار هذه هي التي ستجعل الشاب بعد أن صار قائداً لبلاده بعد عقود من الزمن يشرك الجميع في أحلامه ومشروعاته، ابتداءً من الفرد البسيط وانتهاء بالوطن والشعب. فعل الإيثار والمشاركة تحدّث عنها غير شخص ممن سيأتي ذكرهم لاحقاً، وما نلحظه

(١) كان في المنزل، حسب تقدير الأميرة نوف، نحو العشرين من الخدم.

هنا هو أن تلك الروح هي كانت هناك في الرياض القديمة حين كان الشاب عبدالله بن عبدالعزيز يتربى في كنف والده الملك.

البيئة التعليمية

لاشك في أن البيئة التعليمية الأولى لكل إنسان هي البيت، لكن البيوت ليست واحدة، والتعليم من ثم ليس واحداً. حين يكون البيت بيت ملك، فإن التعليم يأخذ طابعاً مختلفاً، يحمل أبعاداً مختلفة متجاوزاً المقررات الدراسية التقليدية باتجاه معارف يمتزج فيها المألوف وغير المألوف. فإلى جانب التعليم التقليدي لابد لتعليم يتلقاه أبناء يتهيؤون لقيادة وطنهم على أعلى المستويات أن يكون متميزاً أيضاً بعلومه ومسؤولياته.

كان المعلم الأول في حياة أبناء الملك عبدالعزيز هو عبدالعزيز نفسه، ولم يكن عبدالعزيز معلماً عادياً بطبيعة الحال. فقبل أن يعلم أولاده كان عبدالعزيز مشغولاً بتعليم شعب بأكمله، وذلك بنقله من مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة، وبإرساء مؤسسات وبناء المجتمع. وكان إلى جانب ذلك قائداً يجعل من نفسه هو مثلاً أعلى لمن حوله، ويؤسس لبيت قيادي يكون هو أيضاً مثلاً أعلى للآخرين. لكن إلى جانب التعليم الأبوي كان من الطبعي أن يسعى الملك المؤسس إلى تعليم نظامي تأسيسي لأبنائه، مثلما كان يؤسس لتعليم نظامي للشعب كله. واتسم سعيه بالبحث الجاد عن أفضل العلوم وأنسبها وكذلك أنسب أساليب التعليم وأفضل المعلمين.

يقول الأستاذ عبدالرحمن الرويشد[1] : «إنه حين بلغ الأمير عبدالله سن الدراسة ألحقه والده بإخوته في المدرسة الأميرية بالقصر الملكي، وكانت تضم عدداً كبيراً من أبناء الملك ممن يكبرون عبدالله أو يصغرونه سناً. فقد سبقه إليها حين تأسست عام ١٣٢٧هـ (نحو ١٩٠٩م) إخوته الأكبر سناً مثل: محمد وخالد (الملك فيما بعد) وناصر وأمراء آخرين يقاربونهم سناً. وحين ألحق الأمير عبدالله بالمدرسة كان معه من إخوته الأمراء: سعد ومنصور وفهد (الملك فيما بعد) وبندر ومساعد وعبدالمحسن، إلى جانب من هم أصغر سناً بقليل مثل: مشعل وسلطان. كما ضمت المدرسة عدداً من أبناء الأسر السعودية المعروفة أو القريبة من قصر الملك مثل: عبدالله بن نافع بن فضلية، ومحمد بن فضلية، وراشد بن رويشد، وعبدالعزيز بن شلهوب، وسليمان بن حمد السليمان».

كانت المدرسة، كما يشير الأستاذ عبدالرحمن الرويشد، «حجرات متواضعة، لكنها واسعة ونظيفة،

---

(١) استندت المعلومات الواردة هنا من المذكرة التي أعدها الأستاذ الرويشد لمركز توثيق سيرة الملك عبدالله بن عبدالعزيز رحمه الله التي سبقت الإشارة إليها، مع إضافة من معلومات ذكرها على موقع الملك فهد على الانترنت: http://www.kingfahad.ws/templet/res02.htm

أرضها مفروشة بالمداد الأحسائي، وهي جيدة التهوية والإضاءة، تقع في الدور الثاني من القصر، تختلف قليلاً عن الكتاتيب الشعبية في الرياض، من حيث الاتساع والنظافة والتهوية فقط». أما معلمو المدرسة فقد حرص الملك عبدالعزيز على أن يكونوا من خيرة المعلمين آنذاك ولم يكن يتردد في استبدالهم بآخرين حين يتطلب الأمر. وممن كان يتولى التدريس في المدرسة عند التحاق الأمير عبدالله بها - كما يشير الأستاذ عبدالرحمن الرويشد- الشيخ صالح بن محمد الهلالي، ابن خال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والمعلمان محمد بن عقيف الأحسائي وأخوه عبدالرحمن، والأستاذان ناصر بن حمدان ومحمد بن عبدالله السناري، العماني الأصل والمقيم في مكة المكرمة قبل أن يستقدمه الملك عبدالعزيز ليكون ضمن هيئة التدريس في المدرسة. وكان السناري يقوم بتدريس المواد الرياضية والخط وبعض الفنون الأخرى. هذا إلى جانب الأستاذ أحمد العربي، الأديب المعروف، وكذلك محمد الحساوي، وهو من أهل الرياض، وكان يطلق عليه «الحساوي» لكثرة زياراته وأسفاره إلى الأحساء وبلدان الخليج.

وكان الملك عبدالعزيز شديد الاهتمام بالمدرسة وبما يتلقاه أبناؤه من علم بها وكذلك باستمرار تعليمهم، فكان إذا خرج لنزهاته خارج الرياض آنذاك يأمر بأن تنتقل المدرسة معه سواء أكان ذلك في «روضة خريم» أو «روضة التنهات» أو «روضة المزيرع» أو نواحي «رماح»، وكلها متنزهات معروفة وجميلة ولاسيما في موسم الأمطار وإزهار الأرض. كانت المدرسة تقام على شكل خيام ويأتي المعلمون وتستمر الدراسة للأبناء المرافقين. وكان يحدث مثل ذلك حين ينتقل الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة للحج أو العمرة، غير أن الاستعدادات هناك كانت تختلف، فقد أمر بتخصيص قسم من قصره بالسقاف بمكة للمدرسة ثم أنشئت مدرسة قرب القصر.

كانت المدرسة - سواء في الرياض أو غيرها - تسير وفق نظام دقيق يتجاوز مستوى الكتاتيب القديمة، فقد كانت مفروشة الأرضيات وبها كراسيٌّ للمعلمين، وكان تعمل وفق منهج وجدول للحصص وتعتمد وسائل الإيضاح المتاحة آنذاك. أما المواد فكانت المدرسة تعنى بالعلوم الشرعية كالقرآن الكريم حفظاً وتجويداً واللغة العربية جنباً إلى جنب مع العلوم الحديثة كالحساب. وكان الملك يشرف شخصياً على اختيار المواد وهو الذي يحدد بدء الدراسة وانتهائها ومتى يحصل التلاميذ على إجازتهم. وكانت المدرسة، كما يشير الأستاذ عبدالرحمن الرويشد، «تعمل في الفترة الصباحية حتى قبيل الظهر، ليواكب ذلك خروج الملك من عمله اليومي فيصحب أنجاله لأداء الصلاة جماعة، وتناول طعام الغداء معهم، وكان ذلك ملزماً لصغاره ممن هم في سن الدراسة فقط. وفي أثناء الدراسة كان يرسل إلى طلاب تلك المدرسة من يسجل غيابهم، ويسأل مدرسيهم عن مدى اجتهادهم وتنفيذهم لواجباتهم المدرسية».

تلك الجوانب من خصائص المدرسة والدراسة وحرص الملك المؤسس عليها وعلى أبنائه ممن يدرسون

الملك عبدالله في إحدى رحلاته وبمعية (من اليمين) الأمير ماجد والأمير بدر والأمير متعب

بها حملت رؤية تربوية حديثة سبقت عصرها. وكان من دلائلها أمر الملك بأن يوافيه مدير المدرسة بتقرير عن حضور الطلاب وانضباطهم، كما كان «يوجه»، كما يذكر الأستاذ عبدالرحمن الرويشد، «بعدم التعامل مع طلابها – عند ارتكاب المخالفات أو التقصير في الأداء – بالعقاب البدني؛ لأنه كان يرى أن ذلك الأسلوب يدفع بالطلاب لكراهية المدرسة والمعلمين». تلك الرؤية التربوية الحديثة تبناها الملك عبدالعزيز وأفاد منها أبناؤه في وقت كان العقاب البدني هو الشائع ليس في المملكة وحدها وإنما في معظم أرجاء الوطن العربي والإسلامي. كان الملك يوجه بألا يتجاوز العقاب تأخير خروج التلميذ المقصر بعد خروج زملائه أو بإلزامه بواجب مدرسي إضافي. كما أن جلالته كان يفاجئ الجميع بين الحين والآخر بالحضور ومناقشة المدرسين. ومن الطرائف في هذا السياق ما يذكره الأستاذ الرويشد من أنه «زارهم ذات مرة فوجد أحد صغاره يحاول أن يخفي بقعة حبر تلطخ بها لباسه، فنظر إليه الملك في تلك الحالة، وابتسم قائلاً: لا تخفي البقعة .. فالحبر هو عطر العلماء والدارسين».

في هذا السياق المضيء من العلم والتعلم حرص الملك عبدالعزيز على إقامة احتفال كبير عند ختم أحد أنجاله القرآن الكريم، ومن ذلك ما حدث حين ختم الأمير عبدالله القرآن، وكان ذلك، كما يذكر الأستاذ عبدالرحمن الرويشد، عام ١٣٥٤هـ (نحو ١٩٣٥م). اشتمل حفل التخرج على إعلان في اليوم الأول عن تلك المناسبة فانتشر الخبر وأمر الملك عبدالعزيز بأن يشارك في الاحتفال طلاب الكتاتيب في أنحاء الرياض. وفي اليوم الثاني اقتصر الحفل على تلاوة دعاء ختم القرآن الكريم. ذلك الختم هو الذي أثر عن شيخ الإسلام ابن تيمية وبدايته: «صدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم، ونحن على ذلك من الشاهدين ...» ليستمر بعد ذلك الدعاء بأن يجعل الله الكتاب حجة لمن يحفظه، إلى آخر الدعاء.

أما في اليوم الثالث من الاحتفال فتعد مائدة كبرى في القصر يصفها الأستاذ الرويشد على النحو الآتي: «يحضرها العلماء والأعيان وهيئة التدريس ومدرسو الكتاتيب الأخرى والأهالي والطلاب ... وبعد الانتهاء تقام عرضة كبرى في (البراحة) قرب القصر يشارك فيها الملك عبدالعزيز وأنجاله من الكبار والصغار والأتباع وموظفي القصر والأهالي احتفاءً بالمناسبة ... وبعد الانتهاء من العرضة يؤذن للصغار ولطلاب المدرسة الأميرية بامتطاء صهوات جيادهم وهم يلبسون أجمل الملابس، ويحملون السيوف، ويتمنطقون الخناجر الذهبية ليتجولوا في البلدة، مع بقية أطفال المدارس الأخرى، يرددون كلمات تتألف من مقطعين (سوم عيه) (لوم عيه) الأولى نحت لكلمة سامعين طائعين، والثانية إتباع للأولى. ويزوروا كبار الأسرة المالكة في بيوتهم، ويحدد الموعد التالي لإكمال الحفل في سهول غار المعذر (مقر المستشفى التخصصي اليوم) فتقام عرضة كبرى، وقبيل الغروب تنصب موائد الأكل للحضور من الأمراء والوجهاء والأعيان، وإلى جانبهم طلاب المدارس في مقدمتهم طلاب مدارس القصر، وتقدم التهاني لحافظ القرآن الكريم .. وكان أول من يقدم التهنئة له والده، وبعد أن يثني على جهده

ويبارك له يقدم له هدية ثمينة .. كما يقدم لمدرسيه هدايا أخرى».

استمر هذا التقليد حتى أغلقت المدرسة الأميرية عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م)، حيث انضم طلابها إلى «معهد الأنجال» التي أنشأها ولي العهد الأمير سعود بن عبدالعزيز (الملك فيما بعد) حيث طلب من والده ضم إخوته إلى المعهد الجديد في حي الناصرية بالرياض.

تلقى الشاب عبدالله بن عبدالعزيز إذاً كل هذا المحصول العلمي من المدرسة الأميرية، لكن والده لم يكن ليكتفي بذلك بل كان يصر أن يحضر ابنه - شأن أبنائه الآخرين - ما يلقى من دروس يومية في القصر. تلك الدروس كان يلقيها أحد الفقهاء ويعلق عليها الملك عبدالعزيز، كما يشير الأستاذ عبدالرحمن الرويشد. كما أن الأمير الشاب كان كثير الاختلاط بمستشاري والده ممن حملوا له معرفة إضافية بشؤون العالم السياسية والتاريخية والجغرافية، فكان يفيد منهم ويناقشهم ويستعير بعض الكتب وبعض الصحف مما يرد إلى الديوان ليطلع عليها في منزله.

من المستشارين الذين اتصل بهم الأمير الشاب في تلك الفترة الأستاذ رشدي ملحس الذي انضم إلى مجموعة مستشاري الملك عبدالعزيز عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) بعد قدومه من نابلس بفلسطين والذي يعد من أكثر مستشاري الملك خبرة وغزارة في العلم وأحد المؤلفين ومحققي التراث المهمين. تعرف الأمير عبدالله على الأستاذ ملحس في ديوان والده فكان يستزيد من معرفته ويحصل منه على الكثير من الصحف والمجلات التي كانت ترد إلى الديوان، كما يشير الأستاذ عبدالرحمن الرويشد، إلى جانب ما كان يقترح عليه من الكتب للقراءة.[١]

ومن العوامل التي شجعت الأمير الشاب على الاستزادة من المعرفة وجود خزانة كتب القصر على مقربة من منزله مع والدته لا يفصله عنه سوى ممر متصل بمخارج القصر. كان الشيخ إبراهيم الشايقي - أحد رجال الملك عبدالعزيز - رئيس مستودعات وخزانة الكتب تلك، والمسؤول الأول كذلك عن الخدمات التي تقدم للعلماء وطلبة العلم، وكان يقوم بتكليف من الملك عبدالعزيز بتوزيع الكتب النافعة على الأمير الشاب وإخوته.

يضاف إلى ذلك ما تلقاه الأمير عبدالله من كبار أفراد العائلة المالكة حيث كان يختلط بهم ويسألهم ويناقشهم، وفي مقدمة أولئك أعمامه الأمراء محمد وسعود وعبدالله أبناء الإمام عبدالرحمن، وكذلك أبناء عمومة والده من الجيل السابق مثل الأمير عبدالله بن جلوي والأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي والأمير

(١) توفي رشدي ملحس في جدة عام ١٩٥٩م (١٣٧٨هـ) وقد صدرت سيرته مؤخراً بعنوان "رشدي ملحس: من نابلس إلى الرياض" بقلم قاسم بن خلف الرويس.

سعود الكبير والأمير سعود بن عبدالله آل سعود والأمير محمد بن عبدالعزيز آل سعود وغيرهم. كما كان يزور مع والده وأحياناً بمفرده الأميرة الجوهرة بنت الإمام فيصل، وهي أكبر نساء الأسرة المالكة والتي عرفت بعلمها وفضلها ومعرفتها بتاريخ الفترة التي سبقت الملك عبدالعزيز. وكذلك عمته الأميرة سارة بنت عبدالله بن فيصل، التي عرفت أيضاً بالعلم والفضل وكذلك بالمعرفة الطبية، والأميرة طرفة بنت فيصل، إلى جانب عمته الأميرة نورة بنت عبدالرحمن التي أطلق باسمها فيما بعد أكبر مدينة جامعية للبنات في العالم، وغيرهن من نساء الأسرة الشهيرات.

لم يكن التعليم الذي تلقته تلك الفئة من الشبان إذاً يشبه التعليم الذي كان شائعاً في نجد بشكل خاص آنذاك، لم يكن تعليم كتاتيب تقتصر على القرآن الكريم والعلوم الدينية، بل كانت جزءاً من نقلة تعليمية وحضارية أفاد منها أبناء الملك ومن معهم وهيئتهم دون شك لعالم جديد من التطور الحضاري لم يعرفه الجيل الأول من أبناء المملكة. ولاشك أن ذلك انعكس على استعداد أولئك الشبان لتولي مسؤوليات جسام في الاستمرار على نهج والدهم في قيادة وطن ينمو وشعب يتطور.

بالنسبة للشاب عبدالله بن عبدالعزيز كانت البيئة التعليمية والتربوية مشجعة على النمو الفكري والثقافي، وكما سبقت الإشارة فإن تلك البيئة لم تقتصر على المدرسة التي افتتحها الملك لأبنائه، وإنما تعدت ذلك إلى توجيهات الملك المؤسس نفسه وحرصه على فتح السبل البناءة كافة لأولئك الأبناء لكي يضطلعوا بمسؤولياتهم. يلحظ ذلك في التكليفات المبكرة لأكبر الأبناء سعود وفيصل بالقيام بمهام مختلفة على الرغم من صغر سنهم. ويشتهر من بين ذلك سفر الأمير فيصل وهو لم يبلغ الخامسة عشرة بعد للقيام بمهام سياسية ودبلوماسية خارج المملكة. كما أن من المعروف تكليف الملك لبعض أبنائه بمرافقة إخوتهم في رحلات مشابهة، كما في مرافقة الأمير فهد لأخيه فيصل في بعض رحلاته الخارجية.

كان ممن أفادوا من تلك الرحلات الأمير عبدالله، فقد كان من ضمن الوفد الذي رافق والده في زيارته الشهيرة لمصر. وكان آنذاك في الرابعة والعشرين من عمره. تمت تلك الزيارة إلى مصر عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٦م) وهي الرحلة الثانية والأطول التي قام بها الملك عبدالعزيز بعد رحلة سبقتها بسنة. استمرت تلك الرحلة اثني عشر يوماً، وكانت شاملة لعدة أماكن سياحية وتاريخية، كما اتسمت بترحيب رسمي وشعبي واسع في مصر. كما كان لتلك الزيارة التي «تعد من أبرز زيارات الملك عبدالعزيز الخارجية»،[١] بعدها السياسي المتصل بالقضايا العربية الكبرى، وفي طليعتها قضية فلسطين، ففي تلك الزيارة قابل الملك عبدالعزيز «وفد اللجنة العربية للتباحث

(١) موسوعة تاريخ الملك عبدالعزيز الدبلوماسي (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٩٩٩) ص ٢٧-٢٨.

مع جلالته بشأن قضية فلسطين».[١] وتظهر إحدى الصور الملك عبدالعزيز وأخاه الأمير عبدالله بن عبدالرحمن وقد وقف خلفهما الأمير الشاب عبدالله بينما كان الوفد الذي ضم أمراء آخرين منهم: محمد وفهد وعبد المحسن ومشعل، يستمعون إلى شرح لمجسم يمثل أحد المواقع الأثرية والجيولوجية. ولاشك في أن ذلك أتاح للجميع الاطلاع على جوانب من جغرافية بلد عربي عريق وتاريخه، فعمق الصلات العربية والإسلامية من ناحية وأضاف إلى خبرات المشاركين ومعلوماتهم من ناحية أخرى. هذا إلى جانب الدروس السياسية والدبلوماسية العديدة التي تتأتى من التعرض لمؤثرات السفر ضمن وفد رفيع المستوى يقوده زعيم وحّد وطناً وقاده إلى مكانة دولية رفيعة.

شخصية تتنامى

لم تحل الزيارات الرسمية دون ممارسة الأمير الشاب هواياته الخاصة وفي طليعتها هوايتان: تربية الخيول والقنص. تربية الخيول كانت هواية مبكرة، فمنذ كان في العاشرة أو ما قبلها بقليل والأمير عبدالله يحتفظ بعدد من الخيول في إسطبل خاص، ويحرص على اقتناء ما يمكنه اقتناؤه منها. وتروي شقيقته الأميرة نوف عن ولعه الكبير بالخيل وأنه لم يتوقف عن تنمية تلك الهواية منذ صغره على الرغم من أن المال لم يكن ميسوراً في تلك المرحلة المبكرة. ففي سنيه المبكرة كان يحتاج المساعدة في ركوب الخيل ويصر على ذلك، لكنه لم يلبث أن أجاد الهواية واستقل بنفسه، وكان ينفق الكثير مما يتلقاه من والده في اقتناء ما يمكنه اقتناؤه من الخيول، تلك الهواية التي سنجدها في مرحلة متأخرة وهي تسفر عن نفسها من خلال إنشائه أول نادٍ للفروسية في المملكة. يذكر الأستاذ عبدالرحمن الرويشد مهارات الأمير الشاب في ركوب الخيل وفنون الفروسية ما يلي: «شاهدناه في شبابه يفتخر بارتداء ملابس الفرسان، ويظهر بمظهرهم المميز، من حيث رشاقة الحركة، وإرسال جدائله على صدره. وكان يمتطي صهوة جواده في مناسبات السباق، حاسر الرأس لتبدو خصلات شعره تتطاير مع انطلاقة فرسه. وكان في مناسبات أخرى يستصحب وهو على فرسه، رمحاً طويلاً خفيفاً يرسله في الهواء عندما يشتد به السباق ملوحاً به تجاه والده عند حضور مقر (لزز الخيل) قرب سور الرياض الشرقي القديم وعندما يكون بمحاذاة والده يصرخ صرخة الفرسان، ويقذف برمحه إلى الأمام، وحصانه في قمة انطلاقته ليتلقف ذلك الرمح، قبل أن يهوي إلى الأرض، فيضج الجميع بالتكبير، وإظهار مشاعر الاستحسان».[٢]

إن الفروسية وحب الخيول ليست في النهاية سوى مجموعة من القيم العربية الأصيلة والمتوارثة التي

---

(١) السابق.

(٢) الأستاذ عبدالرحمن الرويشد من المذكرة التي سبقت الإشارة إليها.

تشكل جزءاً بارزاً في التراث العربي، سواء تمثل في الأدب بأنواعه، أو في حكايات الفرسان وقصص البطولة والدفاع عن النفس والأهل والوطن، أو فيما تمثله البطولة بشكل عام وهي المرتبطة تقليدياً بالفروسية من أهمية في حياة أهل الصحراء. لقد ورث عبدالله حب الخيل ودلالات الفروسية من محل قريب منه، من والده الفارس العظيم الذي جال أنحاء الجزيرة ووحد أرجاءها على ظهور الخيل، فلم يكن غريباً أن ينمو لدى الشاب اليافع حب الخيل وهي في كل مكان حوله، بل وهي التي يتغنى بها والده وإخوته ومن حوله من رجالات الدولة وأبناء الوطن، إلى جانب ما أتيح له أن يتلقاه من علوم تحمل إليه موروث العرب ومجد المسلمين.

لم يطل الوقت حتى بدأ الولع بالفروسية يأخذ بمخيلة الشاب عبدالله إلى ولع آخر مرتبط بالفروسية، فالعرب لم يكونوا فرساناً في الحرب فقط وإنما كانوا فرساناً في رياضات متنوعة كان الحصان أو الفرس مطيتها الأولى. تعلم الشاب أن يخرج للقنص ليصير ذلك هوايته عبر سنين قادمة حين دخل طور الرجولة، وصار القنص هواية ومتعة ومجالاً للمنافسة لاسيما بعد دخول السيارات إلى وسط الجزيرة العربية وتضاؤل دور الخيول. لقد عُرف عبدالله بن عبدالعزيز لفترات طويلة بحب القنص أو الصيد وقضائه مدداً ليست بالقصيرة في إشباع تلك الهواية العربية بحيث كانت تأخذه الرحلات إلى أماكن بعيدة داخل المملكة وخارجها لاسيما في صحاري العراق وسوريا التي اعتاد أهل القنص أن يرتادوها بحثاً عن الطرائد الثمينة.

إن ما أمامنا ليس أقل من ملامح شخصية تتنامى على دروب القيم العربية المتأصلة في أبناء الجزيرة، القيم التي ستسفر عن نفسها بأشكال مختلفة ليس فقط من خلال الاعتناء بالفروسية في إنشاء الأندية لها، كما في إنشائه في أواسط الثمانينيات الهجرية (الستينيات الميلادية) نادياً للفروسية في الرياض، وإنما في ذلك العشق الذي ربط عبدالله بن عبدالعزيز بأبناء البادية ومعرفته بهم وبالصحراء التي يقطنون، العشق الذي اتخذ فيما بعد شكله الكبير من خلال توليه قيادة الحرس الوطني، تلك المؤسسة العملاقة التي أمست ركناً ركيناً في مسيرة التنمية الحضارية للمملكة وليس بوصفها مؤسسة عسكرية أو توطينية لأبناء البادية فحسب.

لكن قبل أن نودع الفروسية إلى مراحل تالية، ينبغي أن نلحظ أن ما نتحدث عنه ونتأمله مرتبط بمسألة مهمة أخرى هي السفر، وما يتضمنه غالباً من اتساع الأفق بمعرفة العالم إنسانياً وثقافياً وجغرافياً. والسفر هنا غير السفر الرسمي ضمن وفود ومن خلال برامج معدة مسبقاً؛ لتحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية مما يتصل بالدول. السفر هنا هو السياحة للاطلاع والتعرف وتوسيع المدارك، وقد نال عبدالله بن عبدالعزيز من هذا النوع من السفر الكثير، وما لدينا من معلومات حول تلك الفترة من حياته، الفترة التي سبقت توليه منصباً قيادياً في الدولة، يشير إلى أن السفر أدى دوراً مهماً في حياته وشكَّلَ شخصيته على النحو الذي سيتضح لاحقاً.

الملك عبدالله في شبابه

اجتياز الآفاق واتساع الأفق

لم يعرف الملك عبدالعزيز ولا الكثير من أبناء جيله السفر كما نعرفه الآن بوصفه انتقالاً بين البلاد للتعرف أو الاستمتاع. كان الملك المؤسس - رحمه الله - مشغولاً بطبيعة الحال بتأسيس الدولة فترة طويلة من حياته وحين استقرت الأمور انشغل أكثر بتثبيت الأمن وتنمية المناطق التي دخلت تحت حكمه تنمية حضرية وحضارية. أما السفر فكان لمهام رسمية، لعمل يتصل بسياسة الدولة أو شؤون المنطقة والعالم الذي تتصل به الدولة مؤثرة ومتأثرة. سافر إلى البصرة في مرحلة مبكرة لمقابلة المندوب البريطاني، وسافر إلى مصر مرتين لمقابلة روزفلت وتشرشل ولتوطيد العلاقة بدولة عربية شقيقة وكبرى، مثلما سافر إلى دول الخليج حميمة الصلة بالمملكة كالبحرين، ولكن تلك الأسفار لم تكن في الغالب لأسباب خارجة عن دواعي الحكم وشؤون الدولة.

الجيل الأول من أبناء الملك المؤسس، مثل الملكين سعود وفيصل، رحمهما الله، انشغلا أيضاً بما يشبه انشغال والدهما حيث تسلما المناصب القيادية في مرحلة مبكرة جداً من حياتهما، الأمر الذي جعل سفرهما في حياة والدهما لا يكاد يخرج عن ضرورات العمل السياسي والدبلوماسي وما يتصل بذلك. وقد استفاد الجيل الثاني من الأبناء، مثل الملكين خالد وفهد رحمهما الله، إلى جانب إخوانهما، مثل ناصر وعبد الله وسلطان ونايف، من فرصة مرافقة إخوانهم في بعض تلك الرحلات الرسمية، مثلما استفاد بعضهم من مرافقة والدهم في مرحلة مبكرة.

ذلك الجيل الأصغر الذي يشمل فهد وعبدالله أتيح له أن يسافر لأهداف لم تكن مطروحة في السابق أو كانت مشاغل الدولة تحول دونها. فقد سافر الأمير فهد - رحمه الله - في رحلات كثيرة خارج المملكة سواء للدول العربية أو الغربية. كان ذلك قبل تسلمه وزارة المعارف عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م)، ثم سافر بوصفه وزيراً في جولات لم تكن كلها ذات طابع رسمي. وحدث مثل ذلك للأمير عبدالله الذي قضى مدة أطول في السفر والتجوال أتاحها له كونه لم يتسلم منصباً رسمياً إلا بعد أخيه الأمير فهد بعشر سنوات تقريباً، أي في عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) حين عُيّن في عهد الملك سعود رئيساً للحرس الوطني. فنحن إذاً نتحدث عن مدة لا تقل عن عشرين عاماً هي المدة بين تجاوزه مرحلة الشباب المبكر أو اليفاعة وبلوغه أشده في الأربعين حين تولى مسؤوليات الحرس.

في تلك المدة كان الأمير عبدالله كثير التجوال سواء في البلاد العربية أو الأوروبية. سافر إلى لبنان وسوريا والعراق ومصر والمغرب، وزار دولاً أوروبية مثل فرنسا وغيرها. بعض الدول العربية - مثل لبنان وسوريا والعراق - زارها في البدء ضمن رحلات القنص الذي كان مولعاً به كما سبقت الإشارة، فكان يتجول مثل غيره من محبي القنص في صحاري تلك الدول، لاسيما العراق وسوريا، ويقضي وقتاً هناك في مواسم الصيد المعروفة،

وكانت الجولات تقربه من تلك المناطق وتعرفه بأهلها فتتعمق صلته بالوطن العربي الكبير وتزداد معرفته بشمولية الثقافة العربية وموروثها العريق. كما أنه في تلك الدول كان كثيراً ما يلتقي بالزعماء، سواء أكانوا زعماء العشائر والأحزاب والفئات الاجتماعية المختلفة، وهم كثر بطبيعة الحال، أم زعماء الدول حين يعرّج على العواصم فيلتقي بعض أولئك. وكان كل ذلك حافزاً للتعرف على أوضاع الدول السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فقد أسفر بعض ذلك التعرف عن مصاهرات وطدت العلاقة بينه وبين أهالي تلك المناطق. ولاشك في أن ما عرف فيما بعد عن «عروبية» عبدالله بن عبدالعزيز، أو حسه القومي، وحبه لأمته العربية والإسلامية، وحرصه على ازدهارها إنما ارتبط بتلك الصلات الوثيقة التي جمعته بأرجاء الوطن العربي. هذا إلى جانب أن أسفاره إلى البلاد العربية عمقت أيضاً صلات ثقافية أو معرفية وتجارب شخصية من نوع آخر لم تكن لتتاح له لو بقي في محيطه السعودي أو العربي. حدث ذلك في البلاد العربية مثلما حدث في البلاد الأخرى ولا سيما الأوروبية.

في أوروبا التقى الأمير عدداً من الزعماء الأوروبيين وتعرف عليهم، كما التقى عدداً من العرب المهاجرين وتطورت بينه وبينهم صداقات دامت سنين طويلة، ويبدو أنه كان لباريس مكانة خاصة في نفسه تنامت مع الزمن وتعززت بتكاثر الأصدقاء واكتشاف الأمير الشاب لأهمية عاصمة التنوير والحضارة الأوروبية العريقة بمتاحفها ومكتباتها وحياتها الثقافية والاجتماعية ومكانتها السياسية والاقتصادية في العالم، وكذلك علاقتها الحميمة بالعالم العربي وثقافته منذ عصر النهضة، الأمر الذي عرفه الأمير من سياحاته المعرفية سواء تمثلت في القراءة أو السفر. ومما يجسد العلاقات التي تنامت أثناء تلك الأسفار ما رواه عبدالله بن عبدالعزيز للمحيطين به.

فقد روى أنه في سفرة مبكرة إلى مدينة باريس - وكانت أثناء حياة والده رحمه الله - أقام في أحد الفنادق الباريسية ووجد نفسه في مأزق مالي نتج عن نقص ما لديه من مال أعطاه إياه والده، فما كان منه إلا أن كتب لوالده الملك عبدالعزيز بذلك، وبالطبع لم تكن وسائل الاتصال بالسرعة المعروفة الآن، فقد استغرق إرسال البرقية وعودة الرد بضعة أيام. كانت مدة الانتظار كافية لكي يبدأ الأمير الشاب بالمعاناة من نقص المال فقرر البقاء في غرفته وتفادي الخروج من الفندق بحيث يأكل ويشرب في غرفته بعيداً عن المصروفات الخارجية، على أساس أن فاتورة الفندق ستدفع حين يأتي المدد من المملكة، وبالفعل فقد جاء المدد بعد أيام قلائل، لكن قبل مجيئه لحظ أحد المقيمين في الفندق هو حسن شبيب، وهو رجل أعمال سوري كان أيضاً يشرف على أملاك إحدى العائلات الحاكمة في الخليج، أن جاره في الفندق توقف عن الخروج فسأله عن السبب وألح في السؤال وضح له السبب في ذلك فما كان من السيد حسن شبيب إلا أن عرض عليه أن يأخذ من المال ما يشاء حتى تنفك أزمته، فوافق الأمير الشاب بعد إلحاح وكثير من الشكر، وحين جاء الدعم من الرياض سارع إلى تسديد الدين معبراً عن شكره مرة أخرى. ذلك الرجل بقي على اتصال بالأمير الذي ما إن تولى مسؤولياته الحكومية حتى دعاه للعمل

قريباً منه فبدأت صلة قوية لم تنته إلا بوفاة السيد حسن شبيب لتسجل قصة من قصص الوفاء من ناحية ودرساً من دروس الحياة من ناحية أخرى.

صداقات عربية مميزة

إلى جانب قادة الدول التقى الأمير عبدالله في زياراته المتكررة للبلاد العربية بعدد من زعماء السياسة وقادة الفكر، والناظر في أسماء بعض أولئك سيدهش لتنوع المشارب وتعدد المذاهب واختلاف الشخصيات، الأمر الذي يشير إلى رحابة في الأفق حملها الأمير عبدالله لم يؤد السفر واجتياز الآفاق إلا إلى المزيد من رحابتها. ولو أردنا أن نعدد الشخصيات لضاق المجال، لكننا سنتوقف عند شخصيتين منها، وسنرى كيف يمثل كل منها جانباً من جوانب التفكير والزعامة هي في حقيقة الأمر انعكاس لما كان يدور في ذهن عبدالله بن عبدالعزيز.

إحدى الشخصيتين المشار إليهما هي شخصية الزعيم اللبناني الدرزي كمال جنبلاط الذي تعرف عليه الأمير عبدالله ونشأت بينهما صداقة عميقة قبل اغتيال جنبلاط عام ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م)بعدة سنوات. والمعروف أن جنبلاط هو مؤسس وزعيم الحزب التقدمي الاشتراكي إلى جانب كونه زعيماً للطائفة الدرزية في لبنان، أي أن انتماءه الفكري والسياسي كان مختلفاً عن انتمائه العشائري، فنحن نتحدث عن مثقف ومفكر له تطلعات تتصل بالفكر الإنساني عموماً مثلما أن له آراء تتصل بالوضع السياسي العربي. لقد كان عارفاً بالفكر الاشتراكي الأوروبي ومؤمناً بأهميته والحاجة إليه، مثلما أنه كان مؤمناً بالقومية العربية التي دفعته إلى تأييد الرئيس المصري جمال عبد الناصر في توجهه القومي الوحدوي، وفي فكره الاشتراكي من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية. وإلى جانب ذلك كانت لجنبلاط اهتمامات بالفلسفات الشرقية الهندية وبالتصوف، مثلما كان متخصصاً في العلوم البحتة خاصة الكيمياء ومتحدثاً بعدة لغات.

إن التقاء عبدالله بن عبدالعزيز برجل من هذا الطراز على الرغم من الفوارق الكثيرة بينهما، وهي فوارق تتجاوز العمر (كان جنبلاط يكبر الأمير عبدالله بحوالي خمسة أو ستة أعوام) إلى مسائل فكرية وعقدية أساسية، ذلك الالتقاء من دلائل رحابة الأفق التي صارت جزءاً من شخصيته. يروي أحد رفاق جنبلاط ومساعديه القريبين منه كيفية اتصال الأمير عبدالله بجنبلاط فيقول: في أوائل السبعينيات اتصل بالزعيم الدرزي رجل ذكر أنه رجل أعمال سعودي وأنه يريد الاستفادة من بعض الأعشاب التي يصفها جنبلاط علاجاً من بعض الأمراض؛ لأن رجل الأعمال كان يشكو من آلام في المعدة، وكان الوسيط الذي عرّف الرجل بجنبلاط شخصا يدعى «الشيخ عارف يحيى». وبعد فترة ذكر الشيخ عارف يحيى أن ذلك الرجل يريد مقابلة جنبلاط ليشكره على

الملك عبدالله مع كمال جنبلاط

ما وصفه من أعشاب أدت إلى شفائه، فدعاه جنبلاط وزوده بأعشاب أخرى، وبعد مرور فترة من الوقت «كان هذا الشخص السعودي أثناءها يتردد باستمرار إلى لبنان ويقضي معظم أوقاته في زيارات لجنبلاط في بيروت أو في المختارة وتحت عنوان الاحتياجات الطبية»، وفي إحدى تلك الزيارات فوجئ جنبلاط بالرجل ينقل إليه دعوة لزيارة المملكة العربية السعودية على رأس وفد موسع يحدده جنبلاط شخصياً. ولما حاول جنبلاط معرفة ما يربط تلك الشخصية بالعاهل السعودي، كشف له أنه أخفى عنه سابقاً هويته الأساسية، وفي الواقع إنه الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ويشغل منصب رئيس الحرس الوطني ... ومنذ ذلك الوقت نشأت بين الرجلين علاقة ود وصداقة استمرت حتى اغتيال كمال جنبلاط في العام ١٣٩٨هـ (١٩٧٧م).[١]

(١) محسن دلول: الطريق إلى الوطن: ربع قرن برفقة كمال جنبلاط (بيروت: دار العلوم ناشرون، ٢٠١٠) ص٢٣٦- ٢٣٩.

الملك عبدالله مع موسى الصدر أثناء زيارته للسعودية

الدعوة التي حملها الأمير عبدالله من الملك فيصل عندئذٍ وأدت إلى أول زيارة يقوم بها الزعيم الدرزي للمملكة كانت في سياق من التوتر بسبب النقد الذي كان يشنه جنبلاط بين الحين والآخر للمملكة. يقول محسن دلول إنه قبل اتصال الأمير عبدالله بجنبلاط وأثناء ذلك الاتصال «كان جنبلاط يشن حملة انتقادات عنيفة ضد السياسة السعودية ...» وكانت النتيجة الأهم لزيارة جنبلاط هو التفاهم الذي نتج وأدى إلى الكف عن تلك الحملات. فقد قابل جنبلاط الملك فيصل وتبادلا الرأي حول العديد من القضايا التي كان من شأن التبادل فيها إزالة ما كان من سوء فهم. يقول دلول الذي حضر اللقاء مع الأمير عبدالله إن الملك فيصل أشار إلى الأمير عبدالله ودعاه إلى الاقتراب منه، فراح يربت على كتفه ويقول له: «أنا أريد أن أشكرك لأنك أتحت لنا فرصة اللقاء بالشيخ كمال جنبلاط الذي أتحفنا بعمق معرفته وثقافته، وأثار فضولنا بمدى جرأته وصدق مواقفه، وأتمنى عليكم أن تضعوا طائرة خاصة بتصرفه ليتجول في أرجاء المملكة ويتعرف عليها جيداً، وأن توفروا له

الملك عبدالله في زيارة إلى لبنان ويظهر معه الرئيس اللبناني سليمان فرنجية

الإمكانية لزيارة المملكة دائماً وأن تكون العلاقة معه مستمرة ومتطورة ونلتقي به ونستفيد من علمه ومعرفته وثقافته».[١]

تلك كانت مبادرة مبكرة ومميزة لتحقيق نصر دبلوماسي وسياسي نتج عن الصلة الوثيقة والعميقة التي بناها الأمير عبدالله بزعماء عرب. غير أن صلة الأمير بأولئك الزعماء لم تكن تعني التوافق التام في كل الأمور أو تقبل كل ما لدى الآخر من آراء. فالاختلاف الفكري والسياسي ظل قائماً في بعض القضايا، لكنه اختلاف عاش في ظل الحوار وفي ظل الاتفاق على قضايا أخرى. ومن طريف ما يذكر في هذا السياق أن الأمير دخل ذات مرة على جنبلاط بينما كان الزعيم الدرزي يمارس رياضة اليوغا التي تستدعي بعض حركاتها تغيير حركة الجسم والجلوس في أوضاع غير معتادة، فدعاه إلى مشاركته في تلك الحركات فاعتذر الأمير عن ذلك. فنحن هنا أمام

(١) السابق، ص٢٤٥.

الملك عبدالله في رحلة إلى لبنان

موقف طريف وعرضي لكنه يدل على رحابة العلاقة بين الشخصيتين وعمقها ومدى الاختلاف بينهما في الوقت نفسه، مع أن الاختلاف كان أعمق بكثير من مجرد ممارسة رياضة اليوغا، فالرجل القادم من منبع الإسلام وروحانيته ومن رياضات الفروسية لم يكن بحاجة إلى ممارسة رياضات قادمة من الهند أو غيرها. لكن وقوفه على تلك الممارسات وما يتوقع أن يصاحبها من حوار حول فلسفات الشرق والغرب وعادات الشعوب هي من دون شك من الأمور التي حملها الأمير في تكوينه الثقافي على النحو الذي انعكس فيما بعد في إيمانه بقيم الحوار بين الثقافات والانفتاح على المختلف للتحاور معه والإفادة منه حين يكون من واجب المؤمن أن يبحث عن الحكمة حيث كانت، اتباعا لما ورد في الأثر.

كانت قيمة الحوار هي بكل تأكيد ما حفز الأمير عبدالله على تطوير صلته بزعيم الشيعة اللبنانيين موسى الصدر الذي برز في لبنان في ستينات وسبعينات القرن العشرين وعرف - إلى جانب اهتمامات أخرى-

الملك عبدالله مع الملك الحسن الثاني ملك المغرب ويظهر في الصورة الملك سلمان والأمير متعب بن عبدالله في المغرب

بحثه على التقريب بين المذاهب والطوائف على أسس الحوار والتعايش السلمي. وكان الصدر – حتى اختفائه في ليبيا في ظروف غامضة – مفكراً دينياً وناشطاً سياسياً يدعو إلى الابتعاد عن التعصب والفرقة في بلد يكتنز بهما وكما تأكد باشتعال الحرب الأهلية اللبنانية. كما أنه كان من دعاة الحوار الإسلامي المسيحي، وعمل من أجل ذلك مع زعماء الطوائف الأخرى سواء كانت مسيحية أم إسلامية، فكان من رفاقه القساوسة المسيحيون والمشايخ السنيون كالشيخ صبحي الصالح.

من مثل هذه العلاقات يمكننا تصور الرؤية التي خرج بها الأمير عبدالله فيما يتعلق بأهمية التسامح والحوار من أجل التعايش وبناء الحضارة، فالحوار كان بالضرورة ما صبغ علاقته باثنين يتفق معهما في أمور ويختلف في أمور، ولربما كانت الأمور المختلف عليها أكثر وأعمق، لكن الحوار أكد أنه الأسلوب الوحيد لتفهم الرأي الآخر والتعايش معه والإفادة المشتركة للجميع.

لقد أدّى السفر والتجوال والتعرف بأناس كثيرين خارج المملكة، إلى جانب العلاقات الأسرية التي بناها

الملك عبدالله والرئيس الفرنسي جاك شيراك في زيارة لفرنسا

أثناء سفره وإقامته لاسيما في البلاد العربية والتي أثمرت عن عدد من الأبناء والبنات، أدّى كل ذلك دوراً مهماً في تهيئة الأمير للدور الكبير الذي عاد لينهض به بعد تعيينه رئيساً للحرس الوطني أوائل الستينات الميلادية، الثمانينات الهجرية. والمعروف أن الأمير عبدالله لم يتوقف عن مواصلة هوايته في السفر والتجوال الشخصي بعد توليه رئاسة الحرس أو حتى بعد توليه ولاية العهد، ففي الفترة ما بين ١٣٩٥ و ١٤٠١هـ (١٩٧٥ و١٩٨٠م) قام بعدة زيارات للمملكة المغربية أثبتت أنها لم تكن مجرد رحلات استجمام، بل أثمرت هي الأخرى عن علاقات إنسانية وثقافية مهمة، لعل من أبرزها تأسيس فرع لمكتبة الملك عبدالعزيز العامة في المغرب. ومما لا يعرفه الكثيرون عن الملك عبدالله أنه طور معرفة جيدة باللغة الفرنسية التي يبدو من إشارة الباحث الأمريكي روبرت ليسي أنه سمعه يتحدثها، وذلك نتيجة لسفره المتكرر إلى بلاد عربية تشيع فيها تلك اللغة مثل لبنان والمغرب وقبل ذلك بالطبع فرنسا، كما سبقت الإشارة.[١]

(١) Lacey. Inside the Kingdom. p. 186.

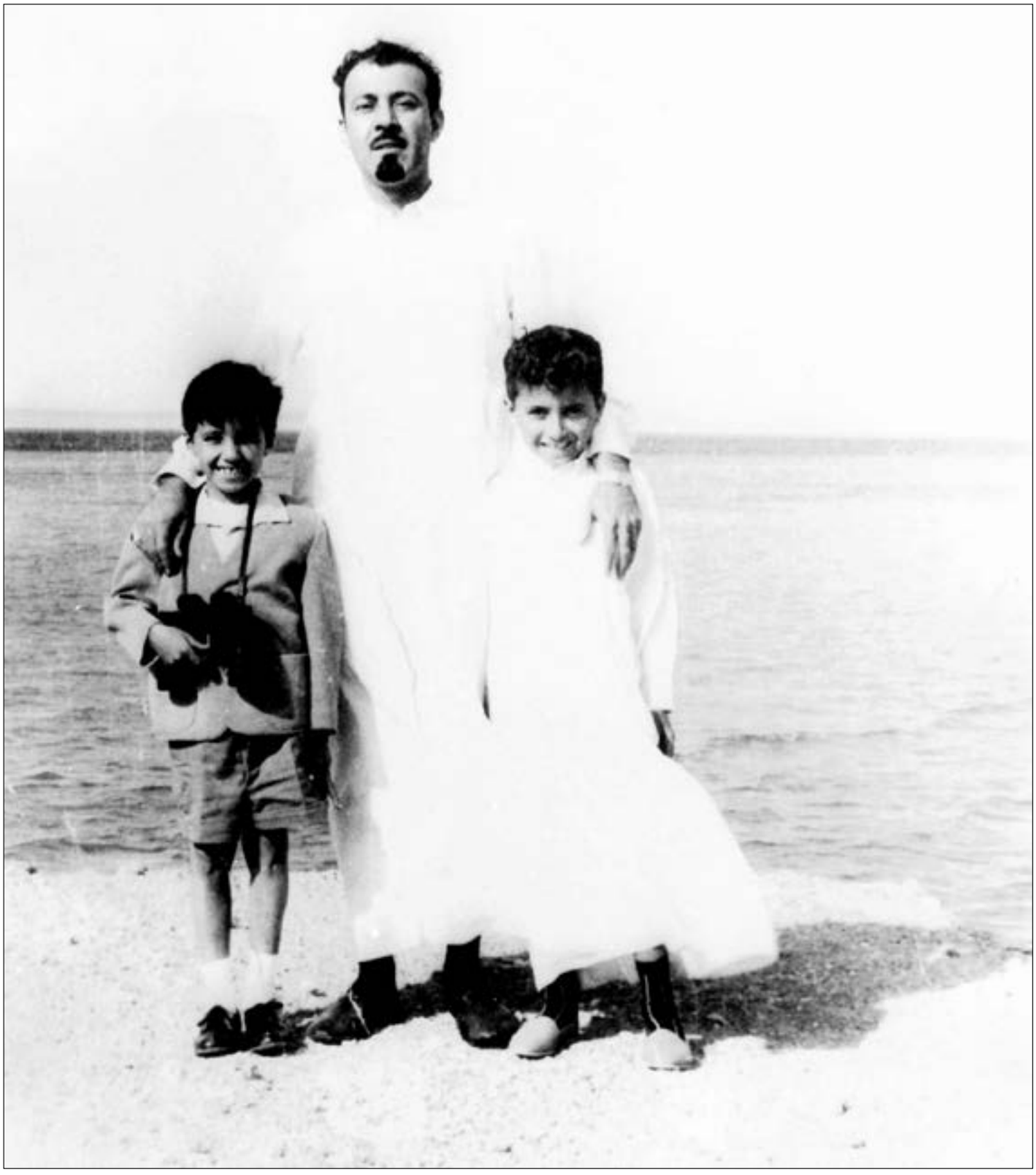

الملك عبدالله مع أبنائه الأمير خالد والأمير متعب

بناء الأسرة: أبوة مبكرة وأسرة شاملة

حرص الملك عبدالعزيز مع ابنه عبدالله – كما حرص مع بقية أبنائه – على توفير الجو الملائم لحياتهم الأسرية المقبلة، فأشرف شخصياً على اختيار الزوجة وبناء السكن. فلكي يحيا الابن وزوجته وأسرته في سكن ملائم اختار الملك عبدالعزيز لابنه عبدالله «سكناً بالقرب من قصره، يقع شمالي حي دخنة، جنوبي القصر تفصله عنه ساحة صغيرة وبعض الأزقة.. شيد على الطراز التقليدي بالمواد المحلية، كان يملكه محمد بن صالح بن شلهوب المعروف بـ (شلهوب) أحد كبار موظفي الملك عبدالعزيز، وخازن المال. وعندما علم شلهوب برغبة هذا الأمير ووالده في سكنى ذلك البيت، بادر بالتنازل عنه قبل أن يسكنه هو، واستوفى ثمنه من الوالد الحنون، ليكون هذا البيت سكناً لهذا الأمير الشاب».[1] وكان حي دخنة المشار إليه من الأحياء الراقية في الرياض، يسكنه العلماء والمشايخ وكبار موظفي الديوان، إضافة إلى قربه من القصر الملكي. ويذكر الأستاذ الرويشد أن من أقرب المساكن إليه من الناحية الشرقية بيت أخيه الأكبر الأمير سعود (الملك فيما بعد) وبيت قاضي الرياض آنذاك الشيخ صالح بن عبدالعزيز ومن الغرب بيت الشيخ حمد بن فارس، أحد العلماء وخازن بيت المال في أوائل عهد الملك عبدالعزيز، وما قبله. هذا إلى جانب قرب المنزل من سكن بعض معظم مستشاري الملك عبدالعزيز مثل: فؤاد حمزة وخالد القرقني ويوسف ياسين ورشدي ملحس، وكان أولئك وغيرهم يزورون الأمير الشاب بين الحين والآخر لما وجدوه لديه من سماحة وكرم وتواضع ومن حب للمعرفة والحوار. هذا إلى جانب الزيارات التي كان يقوم بها أتباع الملك عبدالعزيز من كبار القوم والشعراء. وكان من أولئك شاعر العرضات النجدية المعروف آنذاك فهد بن دحيم المعروف بـ «فهيد»، الذي مدح الأمير الشاب بقصيدة مشهورة تقول بعض أبياتها:

يا من يودي لي سلامي ومكتوب ... سلام أحلى من سحاليب بلها
الطيب ما هو وسط الأسواق مجلوب ... والطايله مصعب مراقى جبلها
غدا بها اللي ما بعد داس عذروب ... يستاهل البيضا غلام حملها
الطايله والطيب والمجد له ثوب ... معلوم لو روحه بكفه بذلها
هذا أبو متعب ولاشك محسوب ... كل النوايب شلتها يا جملها

في المسكن المشار إليه بدأت حياة الأمير عبدالله الأسرية مع زوجته الأولى التي اقترن بها في زمن مبكر

(١) الأستاذ عبدالرحمن الرويشد من المذكرة المشار إليها سابقاً.

نسبياً. فقد اختار الملك عبدالعزيز لعبدالله حصة ابنة عمه الأمير عبدالله بن عبدالرحمن التي أنجب منها ابنه الأول متعب الذي توفي صغيراً. وكان ذلك الزواج بتوجيه من الملك عبدالعزيز نفسه.

بعد زواجه الأول الذي وثق صلة الأمير بعائلته المالكة اتجه - كما اتجه والده من قبله - إلى أسر سعودية وعربية كبيرة عرفت إما بمكانتها في الحياة الاجتماعية أو بدورها في تعضيد الدولة السعودية وتكوينها منذ البدء. هكذا تزوج الأمير من أسرة آل الشيخ ليرزق بابنه خالد، أكبر أبنائه حالياً، ثم من أسرة العطيشان ليرزق بابنه متعب الثاني، لتتالى بعد ذلك مصاهرات كثيرة كان فيها عبدالله صورة لأبيه المؤسس تربطه المصاهرة بتلك الأسر من أمراء القبائل أو من الأسر المعروفة سواء أكانت من المملكة أم من خارجها وليرزق بأبناء وبنات بلغ عددهم خمسة وثلاثين بين ذكور (١٥) وإناث (٢٠) يتقلد الكثير منهم اليوم مناصب أو مهام قيادية في الدولة بعد أن أعدوا لذلك تربوياً وعلمياً. فقد حرص عبدالله بن عبدالعزيز على أن يتلقى أولئك الأبناء والبنات كل ما يمكنهم تلقيه من العلم وفي أفضل المدارس والجامعات. من هنا كان إرساله لابنيه خالد ومتعب إلى بيروت للدراسة عام ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م)، كما ذكر العميد متقاعد بالحرس الوطني فيصل بن بدر الشريم الذي رافقهما للدراسة وبقي هناك بعد عودتهما. وقد أضاف العميد فيصل أن ذهابه للتعلم في لبنان مع خالد ومتعب كان جزءاً من عناية الملك عبدالله بأقاربه من آل الشريم براً بوالدته وبهم، حيث أشار أنه دائم السؤال عنهم وتفقد أحوالهم ومساعدتهم فيما قد يحتاجونه.[١]

ذكر الأمير خالد بن عبدالله أنه تلقى تعليمه في المملكة ثم ذهب إلى لبنان ليعود بعد ذلك إلى المملكة ويكمل تعليمه الجامعي في الاقتصاد والإدارة من جامعة الملك عبدالعزيز بجدة. والمعروف أن الأمير خالد عمل مع والده في الحرس الوطني في المنطقة الغربية لمدة خمسة عشر عاماً متدرجاً من المرتبة السابعة في السلم الحكومي حتى تعيينه وكيلاً للحرس في المنطقة الغربية. ويصدق ما يقرب من ذلك على الأمير متعب لولا أنه اختار الدراسة العسكرية بعد إنهائه المرحلة الثانوية حيث التحق بكلية ساند هيرست البريطانية وعاد بعدها ضابطاً في الحرس الوطني ثم مسؤولاً فيه، حتى تعيينه في نهاية عام ١٤٣٢هـ (٢٠١٠م) رئيساً له.[٢] ثم وزيراً لوزارة الحرس الوطني.

ما يلفت النظر هنا هو ما ظل عبدالله بن عبدالعزيز يؤكده لأبنائه حسب ما ذكر ابنه خالد في قوله لهم إنكم «حتى وإن أعطيتم صفة الإمارة فإن الأمير الحقيقي بأخلاقه».[٣] ذلك التأكيد هو أيضاً ما سمعته

(١) جريدة "الجزيرة» ع ١٣٤١٣ في ٢٦ جمادى الآخرة ١٤٣٠؛ الموافق ٢٠٠٩/٦/١٩م

(٢) من مقابلة أجراها الكاتب مع الأمير خالد في منزله بجده أكتوبر ٢٠١٠م.

(٣) من حديث لقناة أبو ظبي الرياضية نقلته صحيفة سبق الإلكترونية يوم الثلاثاء ٢٥ مايو ٢٠١٠م.

الملك عبدالله يطلع على أحوال الفقراء في أحد أحياء الرياض القديمة ويظهر معه معالي الدكتور علي النملة وزير العمل والشؤون الاجتماعية الأسبق ٢٠٠٢م

شقيقته الأميرة نوف في مرحلة مبكرة من حياتهما حين صار شاباً وقادراً على تأمين احتياجات شقيقتيه نوف وصيته بشكل مباشر، فقد قال لهما لا تتصرفا بوصفكما بنتين لعبدالعزيز فتتعاليان على من عندكما من العاملين أو الخدم، مؤكداً بذلك استمرارية نادرة في الشخصية تمتد منذ صغره وحتى اليوم. فالشاب الذي أكد على التواضع في سلوك شقيقتيه هو نفسه الذي أكده لأبنائه بعد ذلك، ثم أكده في تعامله المتواضع مع من حوله ومع أبناء وطنه في مرحلة تالية، حين زار أحياء الفقراء في الرياض، ثم مشى إلى الأسواق ومازح الناس وشاركهم الطعام والشراب والحديث وهو على قمة السلطة.

روى الأستاذ إبراهيم الطاسان، رئيس الشؤون الخاصة لخادم الحرمين، معلومات غنية بالدلالة حول زيارة الفقراء المشار إليها فقال: «هذه الزيارة كانت مفاجئة للجميع، حيث بادر الملك عبدالله بنفسه للقيام بهذه الزيارة، وكانت في شهر رمضان المبارك، وطلب من بعض إخوانه، إلى جانب وزير العمل والشؤون الاجتماعية آنذاك الدكتور علي النملة، مرافقته، كما طلب مني ذلك أيضاً، وخرجنا في سيارات «عادية» لا توحي بموكب الملك عبدالله، وتوقفنا كثيراً عند زحمة السيارات على جسر الخليج وطريق الملك فهد إلى أن وصلنا إلى الحي

المقصود، وتحولت الجولة إلى لقاء أبوي.. بسيط.. وعفوي.. بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. وكما شاهد الجميع عبر التلفاز والصحف كيف كانت هي فرحة المواطنين بلقاء الملك عبدالله. الأمر المهم الذي أحب أن أعلن عنه هنا وهو يُنشر للمرة الأولى، ولم يفصح عنه أحد، أن الملك عبدالله همس في أذني قائلاً: (غداً الصباح تصل مساعدة عاجلة لهؤلاء المحتاجين)، وفعلاً تم تقديم المساعدة العاجلة لقاطني ذلك الحي». [١]

وأضاف الأستاذ الطاسان أنه حين يسير موكب الملك عبدالله في الطريق إلى القصر أو الديوان ويتوقف فجأة، ليتفاجأ الجميع أن سبب التوقف ليس عطلاً في السيارة، وإنما عين الملك عبدالله شاهدت مواطناً أو مواطنة تحتاج المساعدة، فينادي بصوته، ويفتح النافذة، ويتحدث بعفوية مطلقة، ويسأل عن حاجته، ويوجه بتقديم المساعدة، ولا يكتفي بذلك - رحمه الله - بل يسأل في اليوم التالي ماذا عملتم بموضوع الرجل أو المرأة التي قابلناها يوم أمس... [٢]

غير أن مشاركة الناس معاناتهم لم تتوقف عند الناس الأصحاء وإنما تجاوزتها إلى المرضى والمهددين بالمرض، فحين ظهرت حمى الوادي المتصدع في جازان عام ١٤٢٢هـ (٢٠٠١م) وكان حينها ولياً للعهد، ذهب فور عودته من زيارة كان يقوم بها لفرنسا إلى منطقة جازان متفقداً المصابين ومواسياً لهم ومتأكداً من اتخاذ الإجراءات الضرورية. ولنا أن نتخيل ما في بعض تلك الزيارات من خطورة وما صاحبها من تحذيرات له بعدم المغامرة، ثم إصراره على القيام بها. لقد كانت إجابته حين حذره الأطباء من خطورة تعرضه للمرض المنتشر لافتة بقدر ما فيها من إيمان بالله: «إذا كانت إرادة الله فسأصاب بالعدوى على أي حال وإن لم تكن فلا داعي للخوف ...»

إنها مخاطرة بالنفس ومقاومة استثنائية أيضاً لمغريات الترفع والتعالي التي تغري بها المكانة ويغري بها المنصب والقوة، مقاومة وقيمة عربية إسلامية أصيلة تأخذ بالإنسان إلى المقام الرفيع حقاً.

إن القصص التي تروى عن تواضع عبدالله بن عبدالعزيز وتبسطه أكثر من أن تحصى، وفيها ما يبوح بلمسات إنسانية بالغة الحميمية، وفيها ما يتضمن الطرافة والمداعبة الحانية أيضاً. وللتمثيل فقط نذكر الأمثلة التالية:

روت الأميرة حصة الشعلان - زوجة الملك عبدالله - أنه بينما كانت تتناول القهوة معه ذات يوم كانت المرأة التي تصب لهما القهوة واقفة فنسيتها الأميرة فترة رآها الملك طويلة، فما كان منه إلا أن التفت إليها بعد

---

(١) جريدة «الرياض» ٢٠ شوال ١٤٢٦هـ (٢٢ نوفمبر ٢٠٠٥م).

(٢) من حديث لجريدة «الرياض» ع ١٣٦٦٥ في ٢٠ شوال ١٤٢٦هـ (٢٢ نوفمبر ٢٠٠٥م).

الملك عبدالله في زيارة لأحد المرضى في مقر الخدمات الطبية بالحرس الوطني في منى، وخلفه الأمير فيصل بن عبدالله بن محمد، ومعالي الشيخ ناصر الشثري

أن ذهبت المرأة وقال: «ألا تخافين الله؟ المرأة واقفة لتصب لك القهوة ضعي نفسك مكانها».

وذكر خالد بن عبدالله قصة أخرى فيها الطرافة إلى جانب الدلالة على الحلم، وهي أن والده دخل مكتبه بالحرس الوطني وخلفه رجل كان يلح في أن يستمع الأمير إليه، ولكن الإلحاح بلغ بالرجل مبلغاً غير عادي كما تبين، فقد روى الأمير أنه أحس فجأة وإذا هو وسط مكتبه بلا عقال أو غترة، فمن شدة تعلق الرجل به سقطت غترة الأمير وعقاله وسط الجمع، لكن حلم الأمير جعله يهدئ الرجل نفسه ومن حوله ويتعامل مع الأمر وكأنه حدث عادي.

ذلك التبسط نجده أيضاً في معاملة عبدالله بن عبدالعزيز لمن يعملون معه بشكل يومي تقريباً. ذكر عبدالعزيز بن عبدالله[1] أن والده يحمل أحياناً في جيبه شيئاً من الحلوى وحين يركب السيارة فإنه لا يتردد في مد بعض منها لسائقه، وسيبدو هذا التصرف أكثر دلالة حين نتذكر أن هذا السلوك هو نفسه السلوك الذي

(١) من حديث أجراه الكاتب مع الأمير عبدالعزيز في منزله بجدة في أكتوبر ٢٠١٠م.

يربطه بأقرب الناس إليه، فشقيقته الأميرة نوف تذكر أنه في شبابه كان بمجرد تلقيه شيئاً من الهدايا التي يمكن إشراك الآخرين فيها، كالأطعمة النادرة (الأكمة (الفقع) أو بعض أنواع الرطب، مثلاً) فإنه يسارع إلى إشراك إخوته لاسيما شقيقتيه، وما يزال هذا سلوكه حتى اليوم. كما أن من ذلك ما رواه أشخاص بعيدون عنه.

من تلك القصص التي رواها البعيدون ما أخبر به مترجم في السفارة الألمانية بالرياض لحشد من الناس اجتمعوا في حفل وداع تكريمي لذلك المترجم عند انتهاء عمله. فقد روى المترجم، وكان ذلك في العام ١٤٣٢هـ (٢٠١٠م) في مقر السفارة بالرياض أنه يغادر المملكة وفي ذهنه ذكريات عزيزة كثيرة من أهمها ما يتصل بالملك عبدالله. قال الرجل إنه كان يترجم للملك في مناسبة جمعت بينه وبين المستشار الألماني في زيارة للرياض وكان الجميع على مائدة العشاء الرسمي. كان المترجم يجلس خلف الملك والضيف ينقل الأحاديث بينهما دون أن يتناول شيئاً من الطعام أو الشراب بحكم التنسيق البروتوكولي المعروف. غير أن الملك، كما يروي المترجم، كان غير مرتاح لصرامة البروتوكول فيما بدا للمترجم فقد كان يلتفت عليه بين الفينة والأخرى، ثم حدثت المفاجأة حين أخذ كأساً من اللبن ومده للمترجم ليشارك الجميع في الطعام. بل إنه كرر ذلك حين شرب المترجم اللبن فمد له كأساً أخرى.

تلك القصة ليست طريفة فقط وإنما هي إنسانية بعيدة الدلالة أيضاً. قد نبتسم حين نعرفها لكن بعدها في الحنو والإنسانية لا ينبغي أن يغيب. ومما يشبهها ما حدث في القصة التي رواها س. روب سوبهاني في كتاب له عن الملك عبدالله. يقول سوبهاني إن القصة حدثت أثناء قمة دول الأوبك عام ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م). فعند تسليم الجوائز للأشخاص الذين قدموا إسهامات بحثية متميزة في مجال البترول، تقدم السيد وليد خدوري، رئيس تحرير مجلة «مدل إيست إيكونوميك سرفي» Middle East Economic Survey لتسلم جائزته، وهو رجل مسن. لحظ الملك عبدالله مشي خدوري نحو المنصة وهو يتوكأ على عصا ويجد صعوبة في المشي، وبدلاً من أن ينتظره لكي يصل نزل الملك نحوه وأمسك بيده وساعده في صعود الدرج خطوة خطوة.[١]

غير أن الطرافة وحب المزاح والمداعبة البريئة هي من سمات شخصية الملك على عكس ما قد يبدو أحياناً من جدية، حسب ما ذكر أبناؤه خالد وعبدالعزيز. وقد روى وزير الصحة السعودي الدكتور عبدالله الربيعة قصة طريفة في لقاء معه تحدث فيه عن علاقته بالملك.[٢] ذكر أن الملك الذي عرف باهتمامه البالغ بل وتبنيه لعمليات فصل التوائم – وهي من مآثره الكبيرة المعروفة – قام كعادته بزيارة المستشفى بعد إحدى عمليات الفصل تلك،

---

(١) S. Rob Sobhani, King Abdullah: A Leader of Consequence (Washington DC: Caspian Publishing, 2009) p. 36.

(٢) من لقاء تلفزيوني مع معاليه لمركز توثيق سيرة الملك عبدالله بن عبدالعزيز رحمه الله.

وما أن اطمأن الملك على صحة التوأمين حتى رغب الجميع في التقاط صورة تذكارية معه، فكان إلى جانب الملك أحد الأطباء الذي فوجئ لحظة التقاط الصورة بيد الملك وهي تمتد لتغطي رأسه، وفهم الجميع السر في ذلك؛ لأن ذلك الطبيب كان أصلع.

تلك الشخصية التي تقرب الإنسان من غيره تسفر عن نفسها بشتى الصور، لكن لاشك أن صورها الأساسية هي ما يتجلى في علاقة الأب بأبنائه وأحفاده. فقد ذكرت الأميرة نوف أنه يقضي بعضاً من أسعد أوقاته مع الصغار من أبنائه وأحفاده مستمتعاً بمشاكستهم بعضهم بعضاً بل ومشاكستهم إياه؛ حيث يلعبون معه ولربما عاثوا لعباً بغترته أو عقاله. لكنه في الوقت نفسه - وكما ذكر ابنه عبدالعزيز - حريص على الجد حين يكون الجد ضرورياً، فهو يأمر جميع الأبناء والأحفاد أن يؤدوا فروض الصلاة، بل إنه يطالب حتى الصغار منهم بأداء السنن بعد كل فرض يؤدونه معه جماعة. ونجده في الوقت نفسه متابعاً لتعليم الأبناء والأحفاد على حد سواء، على الرغم من أن عددهم كبير نسبياً، وعلى الرغم من مشاغله الكبيرة لاسيما بعد توليه إدارة الدولة سواء أثناء ولايته للعهد أو بعد توليه الملك. فقد ذكر خالد بن عبدالله أن والده يتصل به مستفسراً عن دراسة أبناء خالد نفسه وهم خمسة، ابنان وثلاث بنات، لاسيما الذين يواصلون دراستهم خارج المملكة. وسيدهشنا هذا حين نعلم أنه يوجد من الآباء من لا يبدي اهتماماً موازياً حتى بأبنائه القليلين فكيف إن كان له أحفاد كثيرون.

ومما يذكر في هذا السياق ما روته الأميرة علياء بنت عبدالله حول معاملة والدها لها ولإخوانها وأخواتها.[1] تقول: «والدي إنسان عاطفي، فهو يجمع بين الحنان والجدية في الوقت ذاته، لذا فهو لا يرضى بأي تصرف يخرج عن نطاق التربية السوية، ولا يرضى بالخطأ بأي حال من الأحوال ... هو قريب منا جميعاً بشكل كبير، ويشاركنا همومنا ويستمع لمشكلاتنا ويناقش أفكارنا». وأضافت: «يحرص الوالد على السؤال عنا بشكل دائم على رغم مشاغله الكثيرة، ولم نشعر قط أنه مشغول عنا، فهو على اتصال دائم بنا. هذه العلاقة أسهمت في إعطائنا نوعاً من الحميمية في العلاقة بيننا، إذ نتقبل جميع طلباته وتوجيهاته من دون تفكير أو تردد حتى وان كانت غير منسجمة مع أفكارنا».

ومن ناحية أخرى أشارت الأميرة علياء إلى أن الملك عبدالله يؤكد على أهمية الاعتماد على النفس في تربية أولاده: «أحمد الله على تربية والدنا ووالدتنا لنا بهذه الطريقة، خصوصاً أننا نستطيع القيام بجميع أمورنا بمفردنا ونلبي طلباتنا من دون الحاجة لمن يخدمنا». وأضافت: «حرصت كما حرص جميع أبناء الملك عبد الله على تربية أبنائنا بذات النهج الذي تربينا عليه».

---

(١) من حديث مع جريدة «الحياة» (الأربعاء ٢٠٠٧/٥/١٦م).

الملك عبدالله في إحدى زياراته الخارجية

والأب – إلى جانب ذلك كله – حريص كل الحرص على متابعة تعليم أولاده وما يحصلون عليه من درجات. تقول علياء: «كان حريصاً على تعليمنا ومتابعة مستوانا التعليمي أولاً فأول، ومعرفة نتائج اختباراتنا، إذ كان يصر على أن نحصل على أعلى الدرجات». وبالطبع فإن ذلك الحرص ينعكس على التصرف حين لا يحقق الأبناء ما يرجوه لهم من تحصيل، وتروي الأميرة علياء في هذا السياق أن والدها حرمها ذات مرة من دراجة كان يعدها بها إن هي حققت أعلى الدرجات: «في إحدى السنوات أخفقت في علامات بعض المواد، ولم تكن بالمستوى الذي يرغب به، وكانت نتيجة ذلك أن حرمني من الدراجة الهوائية التي كنت أريدها ولم يشترها لي.

العلاقة الأبوية التي ربطت عبدالله بن عبدالعزيز بأبنائه وبناته لم تتوقف عندهم وإنما امتدت إلى أناس كثيرين، بل إلى مؤسسة كبيرة في بداية عهده بالمسؤولية، هي الحرس الوطني الذي تولاه وهو ما يزال في طور التأسيس. وكان طبعياً أن تمتد تلك العلاقة الأبوية إلى شعب المملكة العربية السعودية بعد ولاية العهد، ثم تسلمه الملك على النحو الذي يتضح من بقية فصول هذا الكتاب.

الملك عبدالله مع بعض الأبناء والأحفاد ويظهر في الصورة الأمير فيصل بن عبدالله بن محمد آل سعود

" خاص "

ابني العزيز فيصل بن خالد بن عبدالله بن عبدالعزيز سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

ان الحياة مدرسة. والتجارب دروس فيها. والعلوم والمهارات التي يكتسبها الإنسان من خلالها هي أدوات يتسلح بها لمواجهة الحياة بحلوها ومرها. وما الاغتراب للخارج الا أحد هذه التجارب. وما أجمل الاغتراب إذا كان لهدف علمي ثقافي ينهل منه الانسان علوم ومعارف وثقافات متعددة في مدارس متقدمة. ولقد لقيت رغبة والدكم الابن خالد ان تكون تجربتكم العلمية في الولايات المتحدة الامريكية قبولي واستحساني. وقد كانت سعادتي اكبر حين التقى لكم واحدة من افضل المؤسسات التعليمية في امريكا للانخراط فيها والحصول على أفضل العلوم والمعارف بموهل علمي تعودون من خلاله وانتم تملكون حصيلة علمية جيدة ومهارات وخبرات وملكات فكرية تعود بالنفع إن شاء الله على دينكم وولاة أمركم ووطنكم بالخير كل الخير بإذنه تعالى.

فسر يا بني وعين الله ترعاك. وتأكد باننا ان شاء الله على يقين بنضجكم ووعيكم. وانكم ستكونون خير مثال لبلادك كبقية شباب الوطن في الخارج تعكس صورة طيبة عن الشاب السعودي في أي مكان. وان كانت الحياة الامريكية مليئة بالثقافة المتنوعة والحضارة المزدهرة والعلوم المتقدمة المتجددة. إلا ان لها من المحاذير الشيء الكثير التي لا تخفى عليكم. ولكن من يعرف فيصل وعقله ونضجه واهتمامه بدينه وأخلاقياته التي نشأ وتربى عليها يعلم ان هذا كفيل بمشيئة الله بأن يقوده الى اسمى المعالي. ونحن في انتظارك في غيبة لن تطول بإذن الله. وأنتم ترفلون بثياب الصحة والعافية وتزهون بشهادات علمية يتسع بها أفقك. وتعمق من مدارك الإنسان في نفسك. وتكونون بمشيئة الله أحد رجالات الوطن تحمون دينكم وتدفعون بلادكم إلى مستقبل مشرق زاهر بحوله وقوته.

بارك الله فيكم ووفقكم لما يحبه ويرضاه وحرسكم بعينه التي لا تنام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود

الرقم: ٢١/٣/٢١/خ
نيويورك في: ١٤٢١/٦/١٧هـ
الموافق: ٢٠٠٠/٩/١٥م

ابنتاي العزيزتان / لطيفة وعبير

ابنتا صاحب السمو الملكي الأمير الابن/ خالد بن عبدالله بن عبدالعزيز

حفظهما الله ورعاهما

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ وبعد:

تلقينا بسرور بطاقتكما وهديتكما القيمة وما حملته لنا من مشاعر فياضة عامرة بالمحبة والإعزاز وأمنيات طيبة صادقة، وإننا إذ نشكركما على ذلك لنرجو الله العلي القدير أن يوفقكما وأن يجعل النجاح والتقدم حليفكما، ونحن نتطلع لكما بمستقبل زاهر لخدمة الدين والوطن متسلحتين بتقوى الله سبحانه وبسلاح العلم والمعرفة.

بارك الله فيكما وأقر بكما أعين والديكما، وحرسكما سُبحانه بعينه التي لا تنام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود

الرقم: ٢١/٣/٢/خ
التاريخ: ١٤٢١/١/١٢هـ

الفصل الثاني

من قيادة الحرس الوطني إلى قيادة الوطن

الفصل الثاني

من قيادة الحرس الوطني إلى قيادة الوطن

أ. الحرس الوطني

البدايات

ليست كل مؤسسات الدولة – أي دولة – مرتبطة بمرحلة تأسيسها. التأسيس يعني – غالباً – بداية المؤسسة المعنية، فتأسيس وزارة للتعليم يعني بداية التعليم، وتأسيس وزارة للخدمة المدنية يعني بداية عمل ذلك النوع من الخدمة، وهكذا. لكن من مؤسسات الدول ما يكون مرتبطاً بالتأسيس بمعناه الشامل والأساس، أي تأسيس الدولة نفسها، وهو ما ينطبق على الحرس الوطني في المملكة العربية السعودية. فالحرس يعد استمراراً لما تأسس في عهد الملك عبدالعزيز الذي أراد أن يرعى شؤون من جاهدوا معه في مؤسسة تجمعهم وتحفظ سجلاتهم وتنظم شؤونهم، فأسس عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٨م) إدارة لمن جاهدوا معه في مرحلة التأسيس، وحين توفي اهتم خلفه الملك سعود – رحمهما الله – بما اهتم به والده المؤسس فعهد إلى وزير المالية عام ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م) بتطوير مكتب المجاهدين ليصير الحرس الوطني ووضع تنظيما ماليا وإداريا له، بحيث يتحول إلى مؤسسة من مؤسسات الدولة الناشئة. وبالفعل حددت آنذاك ميزانية للحرس بحوالي ٣١ مليون ريال، وطبقت على منسوبيه أنظمة الموظفين المالية والإدارية، ثم شكل ستة عشر لواءً سميت فيما بعد «أفواجاً» دربت وسلحت بما كان متاحاً في ذلك الوقت، وعهد إلى الأمير عبدالله الفرحان أن يكون رئيساً للحرس الوطني.

انتهت رئاسة الأمير عبدالله الفرحان عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) وأمر الملك سعود بأن يتولى الرئاسة الأمير خالد بن سعود بن عبدالعزيز الذي استمر حتى عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، ليحل محله أخوه الأمير سعد بن سعود بن عبدالعزيز حتى عام ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م)، ليصدر بعد ذلك مرسوم في عهد الملك سعود بتولية الأمير عبدالله بن عبدالعزيز رئاسة الحرس، وذلك في ١٣٨٢/٩/١٠هـ الموافق (٥ فبراير ١٩٦٣م). وكان تولي الأمير عبدالله بداية أخرى ومختلفة للحرس من حيث التنظيم والتطوير.

حفل افتتاح مدارس الحرس الوطني العسكرية والفنية بخشم العان سنة ١٣٩٣هـ ويظهر في الصورة الملك فيصل وبمعيته الملك عبدالله والملك فهد والملك سلمان والأمير نواف

الحرس في عهده الجديد

حين تولى عبدالله بن عبدالعزيز رئاسة الحرس لم يسع إلى إحداث تغييرات جذرية، بل حرص على تسيير العمل، والاحتفاظ بالخبرات الإدارية الموجودة التي أسهمت في تطوير ذلك الجهاز حتى المرحلة التي وصل إليها عندئذٍ. من بين تلك الشخصيات تبرز شخصيتان: الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري والأمير عبد العزيز بن عياف آل مقرن. كان الشيخ التويجري منذ العام ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م)وكيلاً للحرس للشؤون الفنية بالمرتبة الأولى (حسب النظام القديم للمراتب)، والأمير عبدالعزيز بن عياف عندئذٍ أمير فوج منذ العام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م). وفي مرحلة تالية ترقى الشيخ التويجري ليصبح نائباً مساعداً لرئيس الحرس الوطني بمرتبة وزير، والأمير ابن عياف إلى المرتبة الخامسة عشرة وكيلاً للحرس للشؤون العسكرية.

في عام ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م) عين الأمير بدر بن عبدالعزيز نائباً لرئيس الحرس الوطني؛ ليتشكل بذلك فريق عمل مميز لإدارة الدفة في الحرس بقيادة الأمير عبدالله بن عبدالعزيز الذي وجد في الأمير بدر إلى جانب الأمير عبدالعزيز بن عياف والشيخ عبدالعزيز التويجري خير معين له للبدء ببرنامج تطويري طموح يهدف إلى نقل الحرس الوطني إلى مؤسسة عسكرية وحضارية في الآن نفسه. اتضح ذلك من الأهداف التي وضعت للحرس

الملك عبدالله مع الملك فيصل في أحد استعراضات الحرس الوطني

في عهده الجديد. فإلى جانب الدفاع عن الوطن وحماية أمنه الداخلي ومنشآته وما يتصل بذلك من أهداف، توخى الحرس في العهد الجديد أن يكون منشأة حضارية تسهم في ترقية البلاد وتحضرها وفي تقديم الخدمات الاجتماعية لمنسوبيه وترقيتهم تعليمياً وصحياً واجتماعياً. كان ذلك هو ما أكده الشيخ التويجري حين سألته مذيعة تلفزيون أمريكية عن الحرس الوطني في مقابلة أجرتها لمحطة «بي بي إس» العمومية الأمريكية. قال الشيخ التويجري إن مهمة الحرس هي «أن يحضّر ويعلم ويحقق للمواطن وضعاً أمثل فيما يقوم به من تطوير وخدمات».

إن المتابع لتاريخ الحرس الوطني في المملكة العربية السعودية سيجد الكثير من الشواهد على صدق ذلك التوصيف، فقد أدّى الحرس دوراً بالغ الأهمية في حفظ الأمن لاسيما داخل المملكة في أوقات كانت الحاجة إليه ماسة، وما يزال يقوم بذلك الدور في حماية المنشآت العامة ومساندة القوات المسلحة في المهام الدفاعية. كما أنه حقق أيضاً دوراً مميزاً في احتضان أعدادٍ كبيرة من أبناء البادية الذين التحقوا به، سواء أكانوا من أبناء المجاهدين الأوائل، أو من أبناء القبائل عامة، وساعد على توطينهم ووضعهم في سياق عسكري وتأهيلي علمي وفني وحضاري هيَّأهم للإسهام الفاعل في تطور البلاد.

لقد عمل عبدالله بن عبدالعزيز على تطوير الحرس بمجرد تسنمه قيادته حتى غدا بقيادته – حسب

الملك عبدالله في إحدى مناسبات الحرس الوطني ويظهر الأمير بدر بن عبدالعزيز والأمير متعب بن عبدالعزيز

شهادة من أحد الغربيين - «أحد أفضل الجيوش تدريباً وتسليحاً في العالم»[١]. لكن قبل الإشارة إلى وجوه التطوير المشار إليه، والتي أوصلت الحرس إلى ما وصل إليه من تطور، ينبغي أن نشير إلى أن تعيين الأمير عبدالله في ذلك المنصب الحساس جاء برغبة منه بعد أن خيّره الملك فيصل رحمه الله بين الحرس وبين مناصب أخرى ذكر الدفاع من بينها، إلا أنه اشترط حين اختياره الحرس أن تتبنى الحكومة خطة تطويرية له. [٢] وبالفعل فقد أعلن في ٢٣ صفر ١٣٨٣هـ (١٥ يوليو ١٩٦٣م) عن خطة تطويرية للحرس تقوم بريطانيا بموجبها بإرسال خبراء لتطوير الحرس على شاكلة اللواء العربي الأردني، وتضمنت ميزانية ١٣٨٣هـ-١٣٨٤هـ (١٩٦٣م-١٩٦٤م) زيادة غير مسبوقة بلغت١٢٠٪ في مخصصات الحرس.

---

(١) يعد كتاب برادلي هذا وعنوانه John Bradley. Saudi Arabia Exposed (New York: Palgrave. 2005) p. 68. بالعربية «المملكة العربية السعودية مكشوفة» من أكثر الكتب إساءة للمملكة، ومع ذلك فإنه لم يتردد في الاعتراف بتميز الحرس الوطني، فهو يقول في العبارة الأصلية: «= The National Guard. which is one of the best-trained and well-equipped armies in the world. is headed by Crown Prince Abdullah…».

(٢) ذكر الأمير خالد بن عبدالله أن والده اختار رئاسة الحرس بعد أن خير بين مناصب أخرى. كما أشار إلى ذلك غيري ساميول سامور في رسالة دكتوراه في جامعة هارفارد حول تداول نظام الحكم في المملكة نشرت عام ١٩٨٤م. انظر المراجع.

الملك عبدالله في مخيم الحرس الوطني في منى

توالت بعد ذلك الخطوات التطويرية، فتولى الجيش الأمريكي تدريب الحرس، وأنشئت المدن العسكرية، وكلية الملك خالد العسكرية، وزود الحرس بمعدات متطورة سواء أكانت خفيفة أم ثقيلة، وقامت إلى جانب ذلك كله المستشفيات والمدارس، ثم جامعة الملك سعود بن عبد العزيز للعلوم الصحية وهي الجامعة الوحيدة المتخصصة في مجالها ليس في المملكة فحسب بل في المنطقة ككل. فنحن إذاً إزاء ما يتجاوز الكيان العسكري الذي يقوم بمهام دفاعية وأمنية إلى منشأة حضارية كبرى كانت وما تزال تمارس دوراً مهماً في بناء المجتمع إلى جانب دورها العسكري والأمني الأساس.

إن الوقوف عند الحرس الوطني في الفترة التي تولى قيادته أثناءها عبدالله بن عبدالعزيز – وهي فترة تمتد إلى نصف قرن تقريباً – مهم بالنسبة لهذه السيرة، بقدر ما هي مؤشر على معالم تلك السيرة وتطورها ضمن الظروف التاريخية المختلفة. فليس الهدف هنا التأريخ للحرس الوطني بحد ذاته، فهذا موضوع يمكن تناوله مستقلاً، وإنما هو التأمل في شخصية القيادة التي سارت به في مراحل مختلفة ومتنامية من التطور، وهي مراحل اشتملت على العديد من الإنجازات والتحديات أيضاً، فلم يكن الطريق معبداً منذ البدء وإنما كان مملوءاً

الملك عبدالله في مكتبه بالحرس الوطني

بالصعوبات المالية والإدارية والبشرية. ولاشك في أن الحرس يعد المؤسسة الأكثر التصاقاً بشخصية عبدالله بن عبدالعزيز؛ لطول مدة توليه إياها، وللأثر البعيد الذي تركه في تلك المؤسسة، وكذلك الأثر في شخصيته هو سواء من خلال العمل في الحرس والعمل على قيادته وتطويره، أو من خلال العلاقات التي ربطته أثناء عمله في الحرس بأناس كثيرين سواء من العسكريين أو المدنيين من القيادات والأفراد. أحد أولئك الذين ارتبطت بهم شخصية عبدالله بن عبدالعزيز طوال عمله في الحرس الوطني هو عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري الذي سبق الأمير عبدالله إلى الحرس وظل يعمل معه حتى انتقل إلى رحمة الله عام ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م). لكن قبل التطرق إلى تلك العلاقة الفريدة من الصداقة والعمل المشترك، ينبغي أن نتوقف عند بعض وجوه التطوير التي استنها عبدالله بن عبدالعزيز أثناء عمله في الحرس، الوجه الذي سنرى لاحقاً تطوره ليعم المملكة كلها.

يروي الأستاذ عبدالرحمن أبو حيمد، الذي عمل وكيلاً للحرس الوطني لفترة تقارب الربع قرن، أنه في أحد أيام الأربعاء التي يخصصها الأمير عبدالله لمقابلة المراجعين في مقر الحرس بالرياض استدعى الأمير الأستاذ أبوحيمد وقال له: «ألم أقل لكم اعرضوا عليَّ السلبيات والمشكلات التي تواجهونها وتواجهكم ؟ أجبته أننا لا نخبئ شيئاً عن سموكم وكل ما يقع عليه بصرنا من سلبيات نعالجه، وما نعجز عنه نعرضه على سموه . ناولني

سموه الكريم خطاباً موجهاً إلى سموه وطلب مني قراءته . فوجدته مقدما من أحد المواطنين الذي لم يذكر أسمه ويلفت نظر سموه إلى وجود سلبيات وتجاوزات على المصلحة العامة وعلى ممتلكات الدولة في الحرس الوطني، إلى إهمال متعمد وغير متعمد من قبل العاملين سواء كانوا مدنيين أو عسكريين».[١]

إثر ذلك أصدر الأمير عبدالله أمراً سرياً بتشكيل لجنة برئاسة وكيل الحرس الوطني بالنيابة وعضوية بعض المسؤولين وكلفهم بالقيام بجولات ميدانية. يقول الأستاذ عبدالرحمن: «كان الأمر من صفحتين نص على القيام بجولات تفتيشية عامة على كافة قطاعات الحرس الوطني في مختلف المناطق، وجرد المستودعات والمخازن، وحصر ما بها من سيارات وأدوات ومعدات، ومعرفة المنصرف ولمن؟ وحصر ما لدى المسؤولين من سيارات وأدوات ومعدات وسائقين وعاملين وهل تتمشى مع النظام أم لا؟ وتفتيش الخدمات الطبية (قبل أن تسمى الشئون الصحية) ومعرفة واقعها شاملاً المستشفيات والمستوصفات. وكذلك حصر الهواتف سواء كانت سيارة على شبكة البرق والبريد والهاتف أو شبكة الحرس الوطني أو هواتف عادية ومعرفة من صرفت له ولماذا؟ ومدى ضرورة ذلك. ومدى وجود محل خدمة محلية أو دولية بها ومدى أهمية ذلك للعمل».

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إن الأمير أكد على أن تمارس اللجنة دورها في إصلاح الوضع والتأكد من عدم وجود أي فساد في جهاز الحرس حتى إن استدعى الأمر القيام بأعمال تفتيش غير المنصوص عليها:

إذا رأت اللجنة أن هناك شيئاً يستحق التفتيش عليه غير الأماكن التي حددت في خطابنا هذا لا مانع من ذلك ولهم الحق بالقيام بالتفتيش عليه.

وقد استنتج الأستاذ أبوحيمد أن أمر رئيس الحرس الوطني لم يكن ليتخذ ذلك القدر من الجدية والصرامة لولا أن الخطاب المقدم من أحد المواطنين لمس لديه شعوراً مسبقاً بالحاجة إلى إصلاح وضع الحرس والحيلولة دون أي تلاعب بالممتلكات العامة. ومما يلفت النظر أن الخطاب بدأ بتأكيد أهمية الحرس في نفس رئيسه وأن الأمر يتعدى ذلك الجهاز إلى الصالح العام للوطن بأكمله، فقد ابتدأ بالشكل الآتي: «تعلمون أهمية الحرس الوطني ومكانته في نفسي، وأن كل ما يدعمه ويحسن صورته وسمعته هدف أولي لنا، وقد بذلت في سبيل ذلك كل ما يمكن عمله، وسأعمل إن شاء الله حاضراً ومستقبلاً ما يحقق منه للإسلام والمسلمين في هذا البلد الشيء الكبير».

إننا أمام واحدة من إرهاصات التغيير التي اتسم بها عهد عبدالله بن عبدالعزيز حين تولى إدارة البلاد والتي كان الحرس صورة أولى من صورها.

---

(١) من مذكرات معدة للنشر أطلع الأستاذ أبو حيمد الكاتب على نسخة منها.

الملك عبدالله في زيارة لأحد المتاحف

صداقة عمر

كما سبقت الإشارة، كان الشيخ عبدالعزيز التويجري أحد القيادات العاملة بالحرس قبيل تسنم الأمير عبدالله قيادة الجهاز، علماً بأن الأمير عبدالله كان على معرفة بالشيخ التويجري قبل توليه الرئاسة. غير أن لقاء الشخصيتين لم يقف عند حدود العمل في جهاز واحد، ذلك أن اللقاء أسفر عن واحدة من الصداقات وفرق العمل البالغة التميز. فقد توطدت بين الرجلين عرى صداقة من أعمق وأنبل الصداقات؛ لأنهما التقيا على عدة مستويات إنسانية وفكرية وعملية. كان الشيخ التويجري رجل إدارة فذ وكان الأمير عبدالله بحاجة إلى مثله بما يملك من خبرة وثقافة، وما لديه من إخلاص وتفانٍ في العمل. ومع أن الشيخ التويجري يكبر الأمير عبدالله بما يقارب سبعة أعوام فإن المتتبع للعلاقة التي نشأت وترسخت بينهما يحس أن فارق العمر لم يكن كبيراً. ومن يتأمل سيرة الشيخ التويجري سيدرك سر التميز لديه.

بدأ الشيخ التويجري العمل في الدولة في سن مبكرة وغير معتادة، فقد كان في الرابعة عشرة من عمره حين عينه الملك عبدالعزيز مشرفاً على بيت مال المجمعة وسدير والزلفي، ومن الواضح أنه أدار العمل بكفاءة على الرغم من صغر سنه، فقد استمر في عمله لمدة طويلة. أما انتقاله للعمل في الحرس فكان قبيل مجيء الأمير عبدالله بسنة ونيف. فقد عين وكيلاً للحرس عام ١٣٨١هـ (١٩٦١م)، وظل في منصبه ذاك حتى رقي للمرتبة الخامسة عشرة عام ١٣٩١هـ (١٩٧١م) وإلى المرتبة الممتازة عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م)، إلى أن انتهى به المطاف نائباً مساعداً لرئيس الحرس الوطني بمرتبة وزير عام ١٣٩٨هـ (١٩٧٧م).[١] ونلحظ تسارع الترقيات التي من غير الممكن تصورها دون استحضار عمق الثقة التي أولاها الأمير عبدالله للشيخ التويجري، وحرص ولاة الأمر على تقدير الرجل، وأن يفيد الحرس الوطني من قدراته المميزة.

يعد الشيخ التويجري - إضافة إلى ما سبق - من المثقفين النادرين في منطقة شاعت فيها الأمية لمدة طويلة، وما يزيد من الدهشة أنه لم يتلق تعليماً نظامياً، فبعد الكتاتيب لم يلتحق بأي مدرسة أو معهد، وإنما اعتمد على مخالطة المعلمين الذين أوفدهم الملك عبدالعزيز إلى المجمعة، بلدته الأصلية، ليواصل بعد ذلك القراءة والكتابة على نحو لا يوجد عادة إلا بين من تلقوا تعليماً عالياً، وقلة هم الذين ينطلقون من ذلك التعليم الذاتي ليؤلفوا العديد من الكتب ويحتضنوا الثقافة والمثقفين. بيد أن الأهم من ذلك هو الدور الذي أدّاه الشيخ التويجري

---

(١) أشار الشيخ التويجري إلى عمله في الحرس الوطني في حديث لجريدة الجزيرة عام ١٩٨١م فقال: «... في عام ١٣٨١هـ عينت في الحرس الوطني وأنا به حتى الآن .. ولابد أن أقول إنني سعيد جداً بالعمل في الحرس الوطني، خاصة وأنني تحت إدارة رجل عرف بالحكمة والدراية هو الأمير عبدالله بن عبدالعزيز وشقيقه الأمير بدر بن عبدالعزيز»: انظر: حسن العلوي: عبدالعزيز التويجري: الروح الجامعة (لندن: دار الزوراء، ٢٠٠٨) ص ٤٦.

بتعضيد من الأمير عبدالله في نهوض عدد من المؤسسات المهمة في الدولة. فقد اختاره الملك فهد رحمه الله عضواً في اللجنة العليا لإعداد النظام الأساس للحكم، ثم في اللجنة العليا لإعداد نظام مجلس الشورى، ثم نظام المناطق. هذا بالإضافة إلى إسهامه في تأسيس مؤسسة اليمامة الصحفية، وفي قيام المهرجان الوطني للتراث والثقافة. وكان إلى جانب ذلك كله عضواً في الوفود التي مثلت المملكة في عدة مؤتمرات قمة: خليجية وعربية وإسلامية ودولية. كان في ذلك كله إلى جانب الأمير عبدالله سنداً وخبرة ورأياً حكيماً.

أحد الذين توقفوا أمام أحد الجوانب التي ربطت الأمير عبدالله بالشيخ التويجري هو الكاتب الأمريكي روبرت ليسي الذي ذكر في كتابه «داخل المملكة» أن الأمير عبدالله والتويجري عملا على إنجاز المهرجان الوطني للتراث والثقافة الذي أتاح للناس فرصة وحيدة آنذاك للاستمتاع الجماهيري في مرحلة من القلق والتجهم سادت في أعقاب المحاولة الإرهابية التي قام بها جهيمان وعدد من المتشددين في الحرم المكي الشريف. فقد طور الأمير عبدالله – كما يشير ليسي – مهرجاناً بسيطاً لسباق الهجن، ليصير ميداناً للتعرف على الموروث الشعبي بألوانه المختلفة، ثم اقترح التويجري فيما بعد دعوة بعض من أهم المفكرين العرب والمسلمين؛ لإقامة نشاط ثقافي وفكري موازٍ للنشاط الفولكلوري.[١]

غير أن عمق العلاقة بين الأمير عبدالله والشيخ التويجري لا تعبر عنها تلك المشاريع فحسب، وإنما يعرفها القريبون منهما، وقد أجملها الأمير بعد زيارات قام بها أثناء ولايته للعهد في أواخر التسعينيات الميلادية لعدد من دول العالم. فحين تقرر تأليف كتاب حول الزيارة يجمع انطباعات عدد من المثقفين والإعلاميين الذين رافقوا الأمير في تلك الزيارات أو الذين حللوا أبعادها، اقتُرح أن يسهم الشيخ التويجري في الكتابة فرفض الأمير عبدالله الفكرة قائلاً ما معناه إن عبدالعزيز التويجري قريب مني إلى الحد الذي سيجعل كتابته منحازة لي.[٢]

تطوير الحرس

رأى الأمير عبدالله منذ بدء توليه قيادة الحرس الوطني أن من الضروري تحديثه عسكرياً، لينتقل من مرحلة الألوية التي كان يتألف منها. من هنا تشكلت فرقة فدائيين طورت فيما بعد إلى جهاز عسكري متكامل

---

(١) Robert Lacey. Inside the Kingdom(London: Viking. 2009) p. 266.

(٢) الإشارة هي إلى كتاب دبلوماسية القمة: قراءات تحليلية لزيارات الأمير عبدالله الدولية تحرير سعد البازعي (الرياض: مكتبة جرير، ١٩٩٩م).

الملك عبدالله في أحد معارض الأسلحة لتزويد الحرس الوطني بأفضل الأسلحة ويظهر في الصورة الفريق إبراهيم الرشيد، والعقيد سلطان بن خليل بن عمر

يمثل الأركان العامة للحرس. كما ابتعث عدد من العسكريين لاستكمال دراستهم العليا في أرقى المعاهد الغربية، وتم التعاقد مع خبرات أجنبية؛ لتطوير الجهاز العسكري والإداري ليتخذ صفة نظامية حديثة. هذا كان إلى جانب تجهيز الحرس بأحدث الأسلحة والمعدات المناسبة. ويذكر الأستاذ عبدالرحمن أبوحيمد - الذي كان أحد القيادات الإدارية في الحرس كما سبقت الإشارة - أنه تم توقيع اتفاقية مع الجيش الأمريكي لتدريب الحرس عام ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م)، وحين جاء الضباط الأمريكيون نشأ خلاف بين مسؤولي الحرس والأمريكيين حول طبيعة المهام التي يقوم بها الحرس. فقد رأى الأمريكيون أن الحرس قوة أمن خاصة وأنه من ثم ليس بحاجة إلى معدات أو أسلحة ثقيلة كالدبابات والمدرعات. غير أن المسؤولين العسكريين في الحرس كانوا يرون غير ذلك، وحين رفع الأمر إلى الأمير عبدالله وجه بأن الحرس قوة ضاربة في الداخل والخارج، ولذا فقد جُهِّز بكافة الأسلحة الثقيلة والخفيفة التي يحتاجها لتنفيذ مهامه.

كانت إحدى المهام الأساسية التي حرص الأمير عبدالله على تنفيذها في الحرس هي تدريب الكوادر السعودية. فالإنسان يأتي قبل السلاح، بل إنه هو السلاح الحقيقي. ومن هنا فقد ضم الحرس منذ فترة مبكرة مدارس فنية وعسكرية تتلقى المتقدمين للانضمام وكانوا في الغالب من أبناء البادية، ثم تطورت تلك المدارس

الملك عبدالله في أحد مناسبات الحرس الوطني ويظهر في الصورة الشيخ عبدالعزيز التويجري والعقيد سلطان بن خليل بن عمر

فيما بعد لتتأسس في الحرس كلية عسكرية على مصاف الكليات العسكرية العالمية. تلك الكلية قامت عام ١٤٠١هـ (١٩٨٠م) وسميت باسم الملك خالد لتصبح «كلية الملك خالد العسكرية» التي تخرج ضباطاً على قدر عالٍ من التأهيل يوازي شقيقاتها في الجيش والأمن السعودي. والكلية تتجاوز تأهيل الطلاب المتقدمين لها إلى عقد دورات للطلاب الجامعيين الراغبين في الانضمام إلى الحرس الوطني.

ومن جوانب التطور المشهودة والمشهورة في الحرس الوطني تحت قيادة الأمير عبدالله الجانب الطبي، فقد أنشئت مدينتان طبيتان في كل من الرياض وجدة مع عدد من المستشفيات العالية الكفاءة ضمن المدينتين، وكان الهدف من إنشائهما تقديم الخدمة لمنسوبي الحرس، غير أن واقع الحال هو أن المدينتين والمستشفيات لم تكتف بخدمة منسوبي الحرس وإنما قدمت خدمات جليلة للمواطنين السعوديين من حيثما جاءوا من أنحاء المملكة. وحين أضيفت جامعة الملك سعود بن عبدالعزيز للعلوم الصحية لمنظومة النشاط الطبي في تلك المنشآت اكتسب النشاط بعداً علمياً وتدريبياً مهماً.

كان من الإنجازات الكبيرة في المجال الطبي بالحرس عمليات فصل التوائم التي رفعت اسم المملكة

الملك عبدالله يرعى حفل تخرج أحد دورات المرشحين بالحرس الوطني، وعن يمينه الفريق إبراهيم الرشيد، وعن يساره اللواء مصلح القحطاني قائد المدارس العسكرية

عالياً في الأوساط الطبية العالمية. فقد اعتنى الأمير عبدالله بتلك الخطوة الرائدة التي ميزت النشاط الطبي السعودي عموماً وفي الحرس بشكل خاص، من حيث هي خدمة إنسانية أولاً، ومظهر لتطور الخبرات الطبية السعودية ثانياً. تلك العمليات تواصلت عبر عدة أعوام واستمرت تجرى بتوجيه متواصل من الأمير حتى بعد تسنمه عرش المملكة ملكاً على البلاد، فقد حظيت تلك العمليات برعاية ملكية شخصية تبلورت في إنشاء مركز متخصص لفصل التوائم، وقد عرف عن الملك عبدالله حرصه على زيارة المركز والاطمئنان على صحة التوائم وراحة أهاليهم، علماً بأن التوائم والأهالي يأتون من المملكة كما يأتون من أماكن أخرى؛ لتقدم لهم الرعاية الطبية والشخصية مجاناً وعلى نحو لم يعهدوه في بلادهم. وحسب ما ذكر الكاتب الأمريكي روبرت ليسي، فإن مركز فصل التوائم هو «الأكثر تقدماً على مستوى العالم».[١]

عالمية المركز وما يقوم به من مهام ينضم دون شك إلى الإنجازات الكبيرة للمملكة في عهد الملك عبدالله. يقول الدكتور عبدالله الربيعة، وزير الصحة آنذاك والذي تولى قيادة الفريق الطبي المشرف على عمليات فصل

(١) Inside the Kingdom. p. 185.

الملك عبدالله في حفل وضع حجر الأساس للمرحلة الثانية من مشروع المدينة الجامعية لجامعة القصيم ويظهر في الصورة الأمير سلطان والأمير فيصل بن بندر بن عبدالعزيز - بريدة ١٤٢٧هـ

التوائم، إن ذلك الفصل كان منجزاً إنسانياً ووطنياً كبيراً جاء في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر حين مرت المملكة بشكل خاص بظروف صعبة بسبب الأعمال الإرهابية التي نفذت خارجها وربطت ظلماً بها. كان ذلك المشروع الإنساني مما يؤكد نبل المقصد وحقيقة الإنسان والمجتمع والدولة السعودية. ويضيف الدكتور الربيعة: «كان لي الشرف برئاسة الفريق الطبي المختص بفصل التوائم السيامية طيلة هذه الفترة الناجحة من مسيرة فصل التوائم، حيث تبنت المملكة ٥٧ حالة، تحقق النجاح لـ٢٥ حالة منها، وقد سجلت خبراتنا في عمليات فصل التوائم في المحافل والمجلات العلمية المحكمة كأكبر الخبرات العالمية في هذا المجال، حيث شملت خمس عشرة دولة موزعة على أربع قارات، وقد دعيت المملكة في كثير من الجامعات العالمية لتقدم خبراتها في هذا المجال، في كندا وأستراليا وفرنسا وألمانيا وأمريكا وبولندا والعديد من الدول العربية كخبرة علمية طبية ومنجز إنساني سجل في صفحة ناصعة من سجلات مسيرة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز».[١]

(١) من مقابلة سبقت الإشارة إليها.

تلك المكانة العالمية التي تحققت بجهود سعودية كانت دون شك هدفاً رئيساً من أهداف الملك عبدالله، لكن حرصه لم يكن مقتصراً على تلك العالمية وإنما تجاوزت ذلك إلى أن يتمكن الحرس الوطني من أن يكون على مسماه: مؤسسة وطنية تحرس الوطن وتقدم له كل ما يخدمه. وفي هذا الصدد يقول عبدالرحمن أبو حيمد إن عبدالله بن عبدالعزيز نظر إلى الحرس بالدرجة الأولى بوصفه أسلوباً لتطوير السعوديين وتعليمهم، وأنه كان من الضروري أن تكون مستشفيات ومدارس وإسكان الحرس وكل ما يتصل به على أعلى المستويات. كما يروي عن رئيس الحرس الوطني أنه كان يصر على أن يفحص شخصياً النماذج المختلفة للوحدات السكنية للتأكد أن عائلات منسوبي الحرس ستسعد بها.[1] لقد كان الحرس - بتعبير آخر - أنموذجاً مصغراً للمملكة كلها في نظر قائده الذي صار فيما بعد قائداً للمملكة حقاً.

إن العلاقة التي ربطت عبدالله بن عبدالعزيز بالحرس الوطني علاقة غير عادية دون شك، فنحن لا نتحدث عن مؤسسة أو دائرة حكومية ومدير أو رئيس يديرها، وإنما عما يشبه العلاقة العائلية المشبعة بالحميمية والبعد الشخصي الذي جعل شخصية الحرس نابعة من شخصية عبدالله وشخصية عبدالله متشبعة بهوية الحرس. لكن تشبع شخصية عبدالله بشخصية المؤسسة التي أدارها وطورها، بل وأسسها بالمعنى الحقيقي للتأسيس، لم يعن وقوف تلك الشخصية عند حدود المؤسسة، وإنما ظلت قادرة على النمو إلى ما يتجاوزها على ما هي عليه من قرب وأهمية بالنسبة له. فبتولي عبدالله بن عبدالعزيز ولاية العهد عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٢م) كان من الطبعي أن يؤدي ازدياد المسؤولية وتعاظمها إلى انشغاله بما يتجاوز الحرس إلى غيره من مؤسسات الدولة وأنظمتها، بل إلى حياة المواطنين جميعاً، وكان في ذلك سنداً لأخيه الملك فهد - رحمه الله - الذي كان بالنسبة له صديقاً بقدر ما كان أخاً. وكان من الطبعي أيضاً أن تبلغ المسؤوليات حداً غير مسبوق بالنسبة لولي العهد حين أراد الله أن يمرض أخوه الملك فهد فتناط به مسؤوليات أكثر جسامة ويضطر معها إلى الاعتماد على القدرات الشابة التي وجدها في ابنه الأمير متعب إلى جانب الأستاذ/ عبدالمحسن بن عبدالعزيز التويجري في إدارة شؤون الحرس مع احتفاظه هو برئاسته واستمرار أخيه الأمير بدر نائباً له. وهكذا استمر الوضع إلى أن شاءت إرادة المولى أن يرحل الملك فهد إلى جوار ربه، فيبايع عبدالله بن عبدالعزيز ملكاً على البلاد، فينشغل بمسؤوليات أكثر جسامة تحد من قدرته على متابعة شؤون الحرس. وهكذا استمر الأمر إلى أن أصدر خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز مرسومين ملكيين يقضي الأول بإعفاء الأمير بدر من منصبه نائباً لرئيس الحرس -بناء على طلبه - ويعين الأمير متعب بن عبدالله رئيساً للحرس. ثم صدر بعد ذلك مرسوم ملكي بتحويل الحرس الوطني إلى وزارة، وتعيين الأمير متعب بن عبدالله أول وزير لهذا الجهاز.

هذا التوالي للأحداث وما صاحبه من تطورات ومنجزات جدير بوقفة خاصة فيما يلي:

---

(١) Inside the Kingdome. p. 184-5.

الملك عبدالله والملك فهد بن عبدالعزيز في إحدى المناسبات

ب. ولاية العهد

في عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٢م) بويع الأمير فهد ملكاً على البلاد إثر وفاة أخيه الملك خالد رحمهما الله. وفي الوقت نفسه بويع الأمير عبدالله ولياً للعهد إلى جانب عمله رئيساً للحرس الوطني، ثم أصدر الملك فهد مرسوماً بتعيين الأمير عبدالله نائباً أولاً لرئيس مجلس الوزراء بعد أن كان نائباً ثانياً لرئيس مجلس الوزراء عند تولي الملك خالد رحمة الله، ومنذ ذلك العام وحتى مبايعته ملكاً على البلاد - في عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م) - والأمير عبدالله ينهض بمسؤولياته ولياً للعهد ونائباً لرئيس مجلس الوزراء، إلى جانب عمله الأسبق رئيساً للحرس الوطني.

تنقسم مدة ولاية الأمير عبدالله للعهد مدتين، تمتد الأولى من مبايعته بالمنصب عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٢م) وحتى عام ١٤١٦هـ (١٩٩٥م)، وتمتد الثانية من ذلك العام حتى ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م). في المدة الأولى الممتدة لحوالي ثلاثة عشر عاماً، كان لدى الأمير عبدالله وقت كاف يكرسه للحرس الوطني نتيجة لوجود الملك فهد، فكان عمله ينقسم بين الحرس ومجلس الوزراء بوصفه نائباً أولاً لرئيس المجلس وما يترتب أحياناً عليه من مسؤوليات بوصفه ولياً للعهد ونائباً أولاً لاسيما في غياب الملك فهد وتوليه إدارة شؤون البلاد.

المدة الثانية، وهي الممتدة من عام ١٤١٦هـ (١٩٩٥م) وحتى عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م)، هي المدة التي كلف أثناءها الأمير عبدالله بإدارة شؤون البلاد نتيجة للظروف الصحية الصعبة التي ألمت بالملك فهد رحمه الله. في هذه الفترة بدأت بصمات الأمير تظهر بشكل واضح على مسيرة البلاد الداخلية والخارجية. تلك البصمات وما يتصل بها من إنجاز هي ما سيتركز عليه الباب الثالث والأخير من هذا الكتاب حيث سيتضح أن المنجزات التنموية التي أُنجزت في تلك المدة هي امتداد لما أُنجز في مدة انشغال الأمير عبدالله بإدارة الحرس الوطني وتطويره.

في هذا الحيز يستوقفنا حدثان كبيران كان لهما أعمق الأثر في متغيرات الحياة في المملكة على مستويات مختلفة، وكان للأمير عبدالله بوصفه ولياً للعهد ونائباً أول لرئيس مجلس الوزراء دور في التعامل معها. الحدث الأول كان غزو العراق للكويت عام ١٤١١هـ (١٩٩٠م)، بينما تمثل الثاني في أحداث الحادي عشر من سبتمبر. لا تخفى آثار كلا الحدثين في المنطقة كلها. وقبل ذلك على العالم، فقد شنت ثلاثة حروب نتيجة لهما: حرب تحرير الكويت، وحرب أفغانستان، وحرب العراق. وكان مما لا يقل خطراً عن تلك الحروب الظاهرة التي كانت سبباً رئيساً فيها، ونتيجة لها في الوقت نفسه، أي ظاهرة الإرهاب التي عمت معظم أجزاء العالم، وسالت بسببها دماء كثيرة، ودمرت منشآت، وأرعبت مجتمعات آمنة. وقد نال المملكة نصيب وافر ومؤلم جداً نتيجة للحروب من ناحية وللإرهاب من ناحية أخرى على النحو الذي أثر في الحياة داخل المملكة وفي سياستها الخارجية.

في ذلك الخضم من الأحداث كان للأمير عبدالله أثره الكبير والبارز سواء أكان ذلك بتوجيه مباشر من الملك فهد – رحمه الله – أو حين تولى الأمير عبدالله نفسه إدارة الأمور بعد توعك الملك عام ١٤١٦هـ (١٩٩٥م). قبيل غزو العراق عام ١٤١١هـ (١٩٩٠م)وفي حمى التوتر الذي أشعله الجانب العراقي تمهيداً لما كان يبيته صدام حسين من عمل فاجأ العالم في أغسطس من ذلك العام، في تلك الأجواء قام الأمير عبدالله بزيارة العراق ضمن جولة تضمنت عدداً من الدول العربية المؤثرة أو القادرة على التأثير، وهي سوريا ومصر والأردن. تلك الزيارات كان الهدف منها نزع فتيل الفتنة وإخماد نار الحرب حماية للكويت والعراق أيضاً من دمار متوقع. وفي أعقاب الجولة قدم الأمير عبدالله لأخيه الملك فهد تقريراً وافياً وصريحاً حول ما جرى من محادثات.

كان المتكأ الأساس لتلك الجولة هو خبرة الأمير عبدالله الدبلوماسية ومعرفته بالدول والرؤساء الذين تمت زيارتهم والتباحث معهم، وكان الملك فهد – رحمه الله – واثقاً بخبرات أخيه ومقدرته على الخروج برؤية تخدم المملكة والدول الشقيقة المجاورة. وبالفعل فإن حدس الأمير كان في محله، فقد تخوف مما رآه وسمعه من صدام حسين، حيث اتضحت له شخصية الرئيس العراقي المغرورة والمتهورة، واستعداده – من ثم – لارتكاب ما ارتكبه بالفعل بعد تلك الزيارة بمدة لم تطل كثيراً.

هذا الجهد الدبلوماسي تواصل بعد حدوث الغزو ثم حرب التحرير التي خاضتها المملكة مع دول التحالف، لكن التوعك الذي أصاب الملك فهد بعد تلك الأحداث بحوالي أربعة أعوام غير مجريات الأمور على نحو مفاجئ ومحزن للجميع. فقد كان للملك فهد – رحمه الله – حضوره المؤثر في الساحتين العربية والدولية إلى جانب إدارته الحكيمة لشؤون البلاد. وقد سعى الأمير عبدالله لملء الفراغ على النحو الذي يدعم مسيرة التنمية في البلاد، ويجنبها الأخطار المحدقة نتيجة التطورات المحيطة.

الأخطار المحدقة لم تنتظر طويلاً قبل أن تثقل كاهل الأمير عبدالله الذي لم يمض على توليه المسؤولية سوى سنة واحدة أو أقل من السنة، ففي عام ١٤١٧هـ (١٩٩٦م)شن الإرهاب هجمتين من هجماته الشرسة إحداهما في مدينة الرياض والأخرى في مدينة الخبر راح ضحيتهما أبرياء من العرب المسلمين والأجانب. وكان من الطبعي أن تؤدي تلك الأعمال الإجرامية إلى اتخاذ العديد من الإجراءات الأمنية والسياسية التي من شأنها حماية الجبهتين الداخلية والخارجية من المزيد من الهجمات. وتضافر ذلك مع استيلاء جماعة «طالبان» على الحكم في أفغانستان في عام ١٤١٧هـ (١٩٩٦م) نفسه وذلك إثر انسحاب القوات السوفيتية من تلك البلاد. فمع أن منظمة القاعدة لم تكن قد بدأت بعد بنشاطها المنظم فإن الهجمات التي شنت في المملكة باسم الدين أنذرت بالكثير من الدمار الذي سيأتي من التنظيم الإرهابي، لاسيما بعد أن التحمت قواه مع حكم طالبان إثر خروج أسامة بن لادن من السودان، وعودته إلى أفغانستان التي سبق له أن شارك فيها في الحرب ضد السوفيت.

في عامي ١٤٢٤هـ و ١٤٢٥هـ (٢٠٠٣م و ٢٠٠٤م) على التوالي شنت القاعدة هجمتين بربريتين أخريين في مدينة الرياض راح ضحيتهما العديد من الضحايا المسلمين من أبناء الوطن وليس من الأجانب كما دأبت القاعدة على الادعاء. غير أنه لم يكن أكثر إيلاماً من عدد الضحايا وانتمائهم إلا كون منفذي الهجمات من أبناء الوطن أيضاً، وأن من يدبرهم ويدعمهم أحد الذين أنبتهم الوطن ورعاهم. ولأن تلكما الهجمتين جاءتا في أعقاب الحدث الجلل المتمثل بهجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م (٢٣ جمادى الآخر ١٤٢٢هـ) في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، فإن المصيبة كانت أشد وقعاً، فها هو الإرهاب تنفذه فئة ضالة ضد وطنهم وضد غيرهم من الآمنين، وكان من الطبعي أن يشعر السعوديون - وعلى رأسهم ولي العهد آنذاك، الأمير عبدالله - ومعه العرب والمسلمون، بل أن يشعر الناس في كل مكان بقسوة الأحداث وما تنطوي عليه من جرم وأن يستنكروها، وأن يشعروا في الوقت نفسه بضرورة العمل على كبح جماح هذا الإجرام الذي بدأ يعم العالم.

الموقف تجاه الإرهاب وما أحدثه من دمار ورعب في نفوس الناس لخصه الأمير عبدالله في مقابلة أجرتها معه عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م)صحيفة «اللوموند» الفرنسية. سألت الصحيفة ولي العهد السؤال الآتي:

سؤال: «منذ مايو ٢٠٠٣م (١٤٢٤هـ) والمملكة العربية السعودية والمقيمون فيها مستهدفون من قبل الإرهاب. هل تعتقدون أن شن حرب على الإرهاب وإخماد تلك العناصر هي الوسيلة الأنجع للتخلص من تلك الظاهرة؟»

الإجابة: «إن الإرهابيين أعداء الإسلام والإنسانية والجنس البشري، وسنحاربهم لعشر وعشرين وثلاثين عاماً إذا اقتضت الضرورة سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين. لقد بدأنا بدعوتهم للرجوع إلى العقل والحكمة والحوار ولكن ذلك لم يجد. لقد استمروا في أنشطتهم إلى الحد الذي اضطرنا إلى مجابهة عنفهم بالقوة. ومع ذلك فقد استهدفنا مصادر التمويل التي تقف وراء الإرهاب، كما أوضحنا ذلك في مؤتمر مكافحة الإرهاب الذي استضفناه في الرياض، الأمر الذي يعني أن علينا أن نكافح تبييض الأموال والتهريب والاتجار بالمخدرات».[١]

عقد المؤتمر الدولي لمكافحة الإرهاب في فبراير ٢٠٠٥م (١٤٢٦هـ)، وشارك فيه ما يزيد على ستين دولة ومنظمة، وقد خلص المؤتمر إلى عدد من التوصيات تضمنها «إعلان الرياض» وكان من أبرزها ما اقترحه الأمير عبدالله بإنشاء مركز دولي لمكافحة الإرهاب، إلى جانب التعاون الدولي للوقوف في وجه تلك الظاهرة. وبطبيعة الحال فإن احتضان المملكة لذلك المؤتمر كان خطوة ضرورية وموفقة لاحتواء ردود الفعل السيئة التي نتجت ليس عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر فحسب، وإنما عن جميع الأعمال الإرهابية التي ألصقت بالمملكة ظلماً

(١) في ٢٠٠٥/٣/١٤م.

وعدواناً وهي منها براء. غير أن الأسوأ من ذلك كله كان إلصاق التهمة بالإسلام نفسه، الدين الذي يحث ابتداءً من اسمه على السلام والوئام وعدم العدوان، وكان من الطبعي أن تتحول تلك الإساءات وألوان سوء الفهم سواء ألصقت بالإسلام أو بالمملكة إلى قضية رئيسة بالنسبة للملك فهد والملك عبدالله بل الشعب السعودي كله.

مؤتمر مكافحة الإرهاب كان خطوة من الخطوات التي اتخذها الملك عبدالله؛ لتبديد الصورة السلبية عن المملكة والعالم الإسلامي والإسلام نفسه، ولكنه لم يكن الخطوة الأولى، فقد اتخذ منذ توليه ولاية العهد، ثم اضطلاعه بمسؤوليات الدولة أثناء توعك الملك فهد – رحمه الله – عدة خطوات لتحقيق ذلك الهدف الذي أصبح مرتكزاً لحياته العملية ومحطاً لهمومه الشخصية. يتضح ذلك من الزيارات التي قام بها في نهاية التسعينيات الميلادية، مثلما يتضح من خطوات أخرى كثيرة.

لقد حفل النصف الثاني من عقد التسعينيات بتحركات واسعة من قبله، لتجنيب المملكة والعالمين العربي والإسلامي النتائج السلبية لثلة ممن أعماهم التعصب وضلال المبدأ.

في عامي ١٤١٩هـ و١٤٢٠هـ (١٩٩٨م و ١٩٩٩م) قام الأمير عبدالله بوصفه ولياً للعهد ونائباً عن الملك بسلسلتين من الزيارات تفصلهما ستة أشهر شملتا أربع عشرة دولة عربية وأجنبية، من بينها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا والفاتيكان، وكذلك اليابان والصين وكوريا الجنوبية والباكستان إلى جانب مصر والمغرب وغيرها. تلك الزيارات التي صحبه فيها وفد من رجال الإعلام والاقتصاد والثقافة إلى جانب الوفد الرسمي جاءت لتعكس وعياً عميقاً بمتغيرات السياسة الدولية بعد عشرة أعوام من سقوط الاتحاد السوفيتي، وظهور نظام عالمي جديد تتفرد فيه الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها القطب الأوحد، وكذلك في أعقاب الحروب العراقية سواء في إيران أو الكويت وما جر ذلك من حروب تحرير ثم موجات إرهاب. وقد لخص الأمير عبدالله ذلك الوعي في حديث أدلى به لصحيفة «عكاظ» السعودية نشرته في ١٤١٩/٧/١٨هـ (١٩٩٨/١١/٨م) حين قال مشيراً إلى أخيه الملك فهد رحمه الله: «يحرص أخي خادم الحرمين الشريفين على أن تواكب المملكة التطورات السريعة التي يشهدها العالم، وهي تطورات ستكون لها تأثيراتها البالغة على جميع دول العالم وشعوبه، ومن المصلحة أن تكون رؤية المملكة حاضرة في الأذهان في الصياغة النهائية للنظام العالمي الجديد الذي يتبلور الآن في الاتجاه الذي يقود العالم إلى أنماط جديدة من التفكير والسلوك والمصالح المشتركة. وليس من المعقول أو المقبول أن نقف ولا نتفاعل مع ما يجري من حولنا، ثم نصبح متلقين لهذا النظام سواء انطبقت شروطه ومواصفاته علينا أم لم تنطبق. كما أنه ليس من المقبول أيضاً أن ننصهر في نظام يفرض علينا ويتجاهل ثقافتنا وواقعنا ومصالحنا. ولذلك فقد اختارت المملكة أن تتحرك بقوة وأن تطرح تصورها الكامل على دول العالم وأن تستطلع معها آفاق المستقبل وملامحه الجديدة؛ لكي نكون شركاء حقيقيين في صياغة النظام العالمي الجديد

الملك عبدالله خلال زيارته للصين، وخلفه الفريق عبيد غثيث العنزي

وليس متلقين فقط، لاسيما وأن لدول العالم مصالح ضخمة معنا، وأن بإمكاننا أن نستثمر هذا الواقع؛ للتوفيق بين تلك المصالح و مصالحنا ومكتسبات شعبنا وحقوقه».[١]

هذا الهدف من الزيارة لم يكن الوحيد، وإنما جاوره هدف مهم آخر كان الأمير عبدالله قد أشار إليه قبيل مغادرته الرياض، واقتبسته وكالة الأنباء الفرنسية في تقرير بثته في ٢٢ جمادى الأولى ١٤١٩هـ (١٤ سبتمبر ١٩٩٨م)، وهو إزالة ما علق في أذهان بعضهم من سوء فهم حول الإسلام بربطه بالإرهاب.[٢] وقد أكد الأمير عبدالله ذلك الهدف حين التقى الطلبة السعوديين في طوكيو باليابان وحدثهم بعبارات اقتبست بعضها مجلة «أيرا» اليابانية الأسبوعية في ١٤١٩/٨/٢٥هـ (١٩٩٨/١٢/١٤م)، حيث وضعت صورة سموه على الغلاف بوصفه شخصية العدد مشيرة إلى أنها الزيارة الأولى لمسؤول سعودي رفيع المستوى منذ نحو ربع قرن (كانت الزيارة السابقة للملك فيصل رحمه الله عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م). فقد طالب الأمير عبدالله أبناءه الطلبة بأن يكونوا خير سفراء لدينهم وبلادهم: «دوركم أيها الأخوة يتمثل في تقديم الإسلام بصورته المشرفة خدمة لدينكم وبلادكم».

(١) دبلوماسية القمة: قراءات تحليلية لزيارات الأمير عبدالله الدولية (الرياض: مكتبة جرير، ١٩٩٩) ص١٩٨.

(٢) دبلوماسية القمة، ص٢١٧.

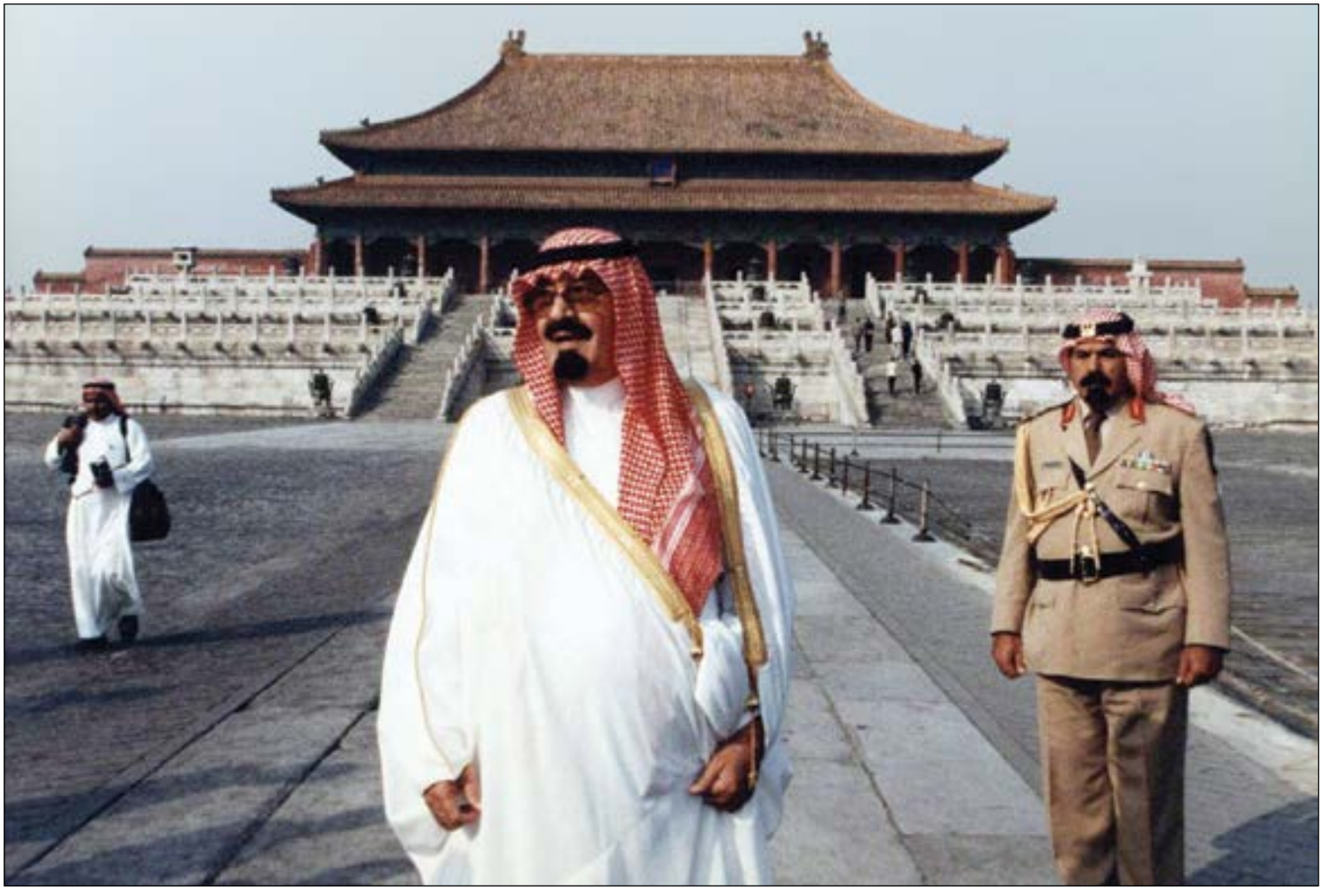

الملك عبدالله خلال زيارته للصين، وعن يساره اللواء صالح الدهام

أكدت زيارات الأمير عبدالله على كل الأهداف المشار إليها، وأكدت أيضاً على أهداف سياسية واقتصادية أخرى، فقضية فلسطين والسلام في الشرق الأوسط كانت من الأولويات، تماماً كما كانت الحاجة لدعم التبادل التجاري والعلاقات الاقتصادية في مجال الاستثمار. هذا المجال الأخير تبلور بعد عودة الأمير إلى المملكة بصدور مرسوم بإنشاء «الهيئة العامة للاستثمار». لكن الزيارات مهدت له بجعله موضوعاً أساساً في المحادثات على النحو الذي أوضحه سمو ولي العهد في كلمته أمام مجلس الأعمال السعودي الأمريكي في ١٤١٩/٦/٥هـ (١٩٩٨/٩/٢٦م)، حين أشار إلى: «الجهود التي تقوم بها حكومة خادم الحرمين الشريفين لتحقيق التوازن المالي ودعم التنمية والاستثمار في ظل سياسة واعية لكل المؤثرات التي قد تخطئ في حساباتها. لذلك حرصنا على مواصلة جهودنا؛ لترشيد الإنفاق ودعم الإيرادات بشكل مدروس ومحاط بالخبرة آخذين بعين الاعتبار الاحتياجات الأساسية للمواطن السعودي. إن مجالات الاستثمار في بلادنا متعددة وواعدة، كما أن الظروف مهيأة لقيام تعاون مشترك بين رجال الأعمال في بلدنا. نشير إلى ذلك لأننا نتطلع إلى استضافتكم

أصدقاء ومستثمرين لتحقيق المصالح المشتركة لكل الأطراف ولاشك أنكم ستجدون منا كل العون والمساعدة».[1]

كان تشجيع الاستثمار الأجنبي جزءاً من إستراتيجية وضعتها الحكومة السعودية في النصف الثاني من التسعينيات؛ لمجابهة تذبذب أسعار البترول من ناحية، وحاجة الاقتصاد إلى تنويع مصادر الدخل من ناحية أخرى. ومن هنا فقد أدرك الأمير عبدالله في ذلك الوقت بأن ثمة حاجة ملحة إلى وجود جهات تشرف على النشاط الاقتصادي وتنظمه لاسيما ما يتعلق من ذلك بالبترول بوصفه مصدر الدخل الرئيس للبلاد. ولذا فقد أمر بعد عودته من زياراته الخارجية بتشكيل مجلسين هما «المجلس الأعلى للبترول» في ١٤٢٠/٩/٢٧هـ، الموافق (٢٠٠٠/١/٤م)، والمجلس الاقتصادي الأعلى في ١٤٢٠/٥/١٧هـ، الموافق (١٩٩٩/٨/٢٨م) يرأسهما الأمير عبدالله وينوب عنه الأمير سلطان بن عبدالعزيز.

بعد تلك الإضافات بنحو ثلاثة أعوام صدرت أوامر ملكية بإعادة تشكيل مجلس الوزراء على النحو الذي يقترب من إعادة الصياغة للمجلس ولبعض السياسات العليا للدولة، فقد تضمنت إعادة التشكيل إلغاءً لبعض الوزارات وإعادة تشكيل لبعضها الآخر، إلى جانب التعديل في اسم بعض الوزارات والتغيير في مهامها بضم صلاحيات وزارات أخرى إليها. وبناءً على ذلك ألغيت وزارة الأشغال العامة والإسكان وضمت مهامها إلى وزارة الشؤون البلدية والقروية، وألغيت وزارة البرق والبريد والهاتف وأعيدت صياغتها لتكون وزارة للاتصالات وتقنية المعلومات. أما التعديل فشمل وزارتين هامتين: عُدّل اسم وزارة المعارف ليصير «وزارة التربية والتعليم»، وعدل اسم وزارة الإعلام ليصير «وزارة الثقافة والإعلام».

هذه التغييرات التي تعد جذرية في مضمونها والتي تمت في عهد الملك فهد - رحمه الله - تعبر عن رؤية كبرى لما ينبغي أن تسير المملكة باتجاهه من مواكبة لمتغيرات العصر ومتطلبات التنمية البشرية والعمرانية، أي ما سماه المؤرخ العربي القديم ابن خلدون «العمران البشري». ذلك أن فهمها يقتضي وضعها في سياق أشمل يمتد إلى ما سبقها، ويربطها بما جاء بعدها. فالذي عدل اسم وزارة المعارف وغير من مهامها هو الذي قام قبل ذلك وبالتحديد في مطلع العام الهجري ١٤٢٣هـ، الموافق (٢٠٠٢/٣/٢٤م)، بإلغاء الفصل القائم بين تعليم البنات وتعليم البنين، فأحدث بذلك نقلة اجتماعية عميقة واجهتها بعض المقاومة من بعض فئات المجتمع ولكنها استمرت لامتصاص تلك المقاومة. لكن التخفيف في هذا الجانب لم يحل بعد سنوات دون إحداث نقلة أخرى على مستوى التعليم الأنثوي في المملكة ودور المرأة في التنمية، فالذين استاؤوا من دمج تعليم البنات بتعليم البنين استاؤوا فيما بعد من تعيين سيدة لتكون نائبة لوزير التربية والتعليم.

---

(١) دبلوماسية القمة، ص٢٣٣.

ولم تتوقف الإنجازات في حق المرأة عند حدود التعليم، وإنما تعدتها إلى ما هو منطقة لا تقل حساسية إن لم تفق ذلك. ففي خطابه أمام مجلس الشورى في دورته الخامسة عام ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) فاجأ الملك الكثيرين، وإن لم يفاجئ من رأوا مسيرة التنمية الإنسانية، حين أعلن عن قراره بأن تكون المرأة عضواً في مجلس الشورى ابتداءً من الدورة السادسة، أي بعد عام تقريباً من ذلك الخطاب التاريخي. أكد الملك ذلك في سياق يصعب على أحد أن ينتقده؛ لأنه السياق الإسلامي بمبرراته الشرعية الواضحة والتي أكدها – رحمه الله – في ذلك الخطاب حين ذكر باستشارة الرسول صلى الله عليه وسلم لزوجه أم سلمة في صلح الحديبية. ولم تسلم تلك الانعطافة التنموية الهائلة من استياء المستائين، لكن عبدالله بن عبدالعزيز الذي كان ينظر إلى علاقته بربه أولاً وإلى موقعه في قيادة الوطن رأى أبعد مما رأى الكثيرون، رأى أن مسؤوليته – كما جاء في الخطاب – هي مساعدة المرأة السعودية على التوغل أكثر في بناء الوطن وتحمل مسؤولياتها، مثلما رأى أن مسؤوليته هي مساعدة الوطن والمجتمع على تقبل نصفه الكبير، نصفه الأنثوي، على المشاركة في البناء.

ومن ناحية أخرى فإن الذي حرص على رعاية الدولة للشأن الثقافي فعدل في مهام وزارة الإعلام لتصير أيضاً وزارة للثقافة هو الذي رعى قبل ذلك بعقدين تقريباً نشاطاً ثقافياً استثنائياً في تاريخ المملكة الثقافي، وذلك من خلال الحرس الوطني في المهرجان الوطني للتراث والثقافة، أو ما عرف بمهرجان الجنادرية، وهو الذي اعتنى بنشر الثقافة والعلم من خلال المكتبات العامة. ولعلنا نستذكر في هذا السياق ما رواه أحد الذين أسند إليهم الأمير عبدالله أمر النشاط الثقافي الذي كان يرعاه بشكل مباشر. فقد ذكر الأستاذ فيصل المعمر، الذي عين فيما بعد نائباً لوزير التربية والتعليم، أنه بعد افتتاح مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بأشهر وإناطة أمر إدارتها بفيصل المعمر نفسه، جاءت مناسبة للسؤال عن المكتبة. يقول المعمر: إن الأمير عبدالله أثناء استقباله لأحد الضيوف شاهد فيصل فطلب منه الاقتراب، وحين جاء سأله عن أمر المكتبة، فذكر أن العمل يسير على خير ما يرام، لكن الأمير فاجأه بالقول إنه غير راضٍ عن سير العمل. ويذكر المعمر أنه صدم مما سمع وارتبك، وحين استفسر عن السبب في عدم الرضى قال له الأمير إنه لا يرى وهو داخل إلى قصره مرتادين كثيرين للمكتبة، ما يعني أنها لم تحقق الغرض من إنشائها، وهو نشر المعرفة بين أكبر عدد من الناس وطالب المعمر والعاملين معه ببذل المزيد من الجهد لجعل المكتبة تقوم بذلك الدور الذي توخاه مؤسسها.

همُّ الثقافة هذا – مثلما هو همُّ التربية والتعليم، ومثلما هو همُّ البناء الاقتصادي والسياسي – لم يكن طارئاً إذاً على الرجل الذي قدّر له أن يقود بلاده من قرن إلى آخر. وحين بويع عبدالله بن عبدالعزيز ملكاً على البلاد في منتصف العام الهجري ١٤٢٦هـ، الموافق (١ أغسطس ٢٠٠٥م)، بوفاة بانٍ آخر من بناة التنمية، وهو الملك فهد طيب الله ثراه، لم يكن شيئاً سيتغير سوى المزيد من البناء والمزيد من المسؤولية.

الملك عبدالله في أحد المناسبات مع الملك فهد والملك سلمان والأمير سطام

ج. المُلْك

في عام ١٤١٦هـ، الموافق (١٩٩٥م) وجه خادم الحرمين الشريفين الملك فهد - رحمه الله - خطاب تفويض لأخيه الأمير عبدالله يعهد فيه «بموجب أمرنا هذا إلى سموكم القيام بأعمال الدولة»، ومؤكداً أنه «على ثقة تامة من تقدير سموكم لأخيكم وحرصكم على مصالح الدولة ورعاية مصالح الشعب».[١]

بهذه الكلمات التي تفيض بالحب الأخوي والحرص على مصلحة الوطن فوّض فهد بن عبدالعزيز أخاه بتولي الشأن الوطني، وكان رد عبدالله بن عبدالعزيز مثقلاً هو الآخر بمشاعر فياضة من الحب والوفاء بما يؤكد الاستعداد التام لتنفيذ أمر القائد بتولي المسؤوليات كاملة. كتب عبدالله لأخيه قائلاً: «مولاي خادم الحرمين الشريفين .. أخي الغالي الملك فهد بن عبدالعزيز ملك المملكة العربية السعودية، حفظه الله. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: يا مولاي، قد لا أستطيع مهما حاولت في هذه الظروف أن أعبر عما في نفسي من حب

(١٤) عبدالعزيز النهاري: عبدالله بن عبدالعزيز: سيرة ملك ومسيرة إصلاح (د.م.: د. ن: ٢٠٠٨م) ص١١١.

الملك عبدالله يرعى العرضة السعودية بالجنادرية ويسلم على أحد الأطفال المعاقين

الملك عبدالله والرئيس الأمريكي جورج بوش الابن خلال زيارة مزرعته في هيوستن ويظهر في الصورة الأمير سعود الفيصل - ١٤٢٣هـ

مكين وولاء مطلق لكم يا مولاي، وما لا أستطيع التعبير عنه أحتضنه بين جوانحي أملاً ورجاء في أن يمنَّ الله عليكم بالصحة والعافية، ويمدَّ في عمركم لتواصلوا قيادة مسيرتنا التي أدين بها ويدين بها لأخي كل مواطن». ثم أشار بعد ذلك إلى استعداده لتولي المسؤولية قائلاً بذات اللغة المملوءة بالولاء والطاعة: «مولاي، طاعة الله ثم لأمركم سألتزم – إن شاء الله – بكل ما يرضي الله ثم يرضيكم فيما كلفتموني به وسأعود إليكم كلما وجدت نفسي محتاجاً لذلك لأسترشد بتوجيهاتكم وتوصياتكم».[١]

بعد عشرة أعوام من تولي الأمير عبدالله مسؤولياته الجسام بتصريف أمور الدولة على النحو الذي شاهدنا بعض جوانبه، قدّر المولى عز وجل أن يرحل خادم الحرمين الشريفين الملك فهد إلى جوار ربه، وأن يبايع أخوه الملك عبدالله ملكاً على البلاد، ليختار هو بدوره أخاه سمو الأمير سلطان بن عبدالعزيز ولياً للعهد وسنداً له مثلما وقف هو مسانداً لأخيه الملك فهد.

وكما ينبغي أن نتوقع فإن ما حدث كان ازدياداً في مسؤوليات الملك عبدالله وتواصلاً لما بدأ العمل بتنفيذه

(١) السابق، ص١١٢-١١٣.

الملك عبدالله وبابا الفاتيكان بنديكتوس السادس عشر في زيارة للفاتيكان – ١٤٢٨هـ

الملك عبدالله والأمير سلطان في احتفال تدشين المشاريع العمرانية - مكة المكرمة ١٤٢٦هـ

من إدارة وتنمية شملت الجميع. ومن هنا فقد واصلت مؤسسات الدولة العمل دون تغيير ماعدا تلك التي مستها يد التحديث والتطوير سواء أكان ذلك جذرياً أم جزئياً. والحق أن من الصعب تصور جانب من جوانب الحياة في المجتمع السعودي أو مرافق الدولة لم يمسه التغيير بقدر ما. ذلك أن التغيير إلى الأفضل كان عنوان المرحلة منذ تولى الملك عبدالله صلاحيات رئيس القيادة على نحو عملي، أي قبل مبايعته. كتبت جريدة «الوول ستريت جورنال» في فبراير ٢٠٠٩م (١٤٣١هـ): «لقد كان ولي العهد عبدالله - حتى قبل أن يصبح ملكاً عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م)- يتحدث عن التسامح الديني والحوار بين الأديان، وعن اجتماع السنة والشيعة ... لقد فتح المجال للحوار بين المواطنين السعوديين في الصحافة والاجتماعات العامة. وسعى إلى إيجاد فرص جديدة للمرأة، وإلى تحسين التعليم وإصلاح القضاء».

ما كان الملك عبدالله يتحدث عنه ليس في فترة ولاية العهد فحسب، وإنما قبل ذلك هو ما يمكن اختصاره بكلمة واحدة هي «الإصلاح»، هذه الكلمة التي طالما استخدمت وتكررت حتى ضاع معناها أو أسيء استخدامها، وجدت في مشروع عبدالله بن عبدالعزيز وما نتج عنه من تغيير أمثلة واقعية تمتد من أعلى الهرم حتى أدناه. وما

الملك عبدالله والملك خالد بن عبدالعزيز في أحد المناسبات الرياضية

يلفت النظر حول هذا التغيير الإصلاحي الواسع هو ما لحظه أحد أشهر الكتاب السياسيين الغربيين والمختصين بالمنطقة العربية فقد كتب باتريك سيل عن شخصية الملك عبدالله وأسلوبه في وضع المشروعات وتنفيذها: «ليس ثمة خطب رنانة. أولئك الذين عرفوه يتحدثون عن تواضعه وبساطته. ولكنه بحنكة سياسية لافتة وتصميم تام بدأ سلسلة من التغييرات الجذرية في سياسات البلاد الداخلية والخارجية التي لا يمكن وصفها بأقل من ثورية. إنها في مجموعها تحوِّل المملكة العربية السعودية إلى مركز قوة في المنطقة وبتأثير يمتد إلى ما وراء الشرق الأوسط».[١] كتب سيل ذلك في أعقاب مهرجان الجنادرية لعام ١٤٣٠هـ/الموافق (٢٠١٠م) الذي حلت فيه فرنسا ضيفة، فلفت نظره حجم الانفتاح الذي تشهده المملكة على المستوى الثقافي إذ قدمت فرنسا ثقافتها -دون قيود- مرئية ومسموعة ومقروءة.

بعد تولي الملك عبدالله الحكم بعامين صدر قرار من مجلس الوزراء ينص على السعي إلى مكافحة الفساد وحماية النزاهة وإنشاء هيئة وطنية لذلك، مع توجيه أجهزة الدولة المختلفة لتفعيل ذلك الهدف في

(١) Patrick Seale. Agence Global. 2010

أنظمتها وممارساتها العملية. وكان من الطبعي أن يرحب المواطنون قبل الجهات الخارجية سواء الإعلامية أو غيرها بما تضمن القرار. كتب عبدالرحمن بن عبدالعزيز آل الشيخ في صحيفة «الرياض» بتلك المناسبة يحيي القرار ويبدي ملاحظة مهمة هي أن القرار «حمل القناعة التامة والاعتراف بوجود ظاهرة (الفساد) وكذلك الضعف في (حماية النزاهة).. من هنا فان مجرد القناعة بهذه المشكلة ... أولى وأهم خطوات العمل إن شاء الله نحو حل هذه المشكلة الوطنية التي بدأت ترسخ في أذهان المجتمع يوماً بعد آخر».[1]

كان الإصلاح علامة فارقة في نشأة الدولة السعودية وفي تطورها - كما رأينا - فقد كان الشعار والممارسة للإمام محمد بن سعود حين تحالف مع الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وكان ما سعى إليه وكرسه حكام الدولة السعودية في مراحل متلاحقة إيماناً منهم بأن الإصلاح عملية لا تتوقف، بل ولا تهدأ؛ لأن دواعي الخروج عن الطريق المستقيم موجودة دائماً بل وملحة دوماً. في عهد الملك المؤسس عبدالعزيز بن عبدالرحمن كان الإصلاح هدفاً وفلسفة سياسية وإدارية واقتصادية، وكذلك كان الأمر في عهود أبنائه: سعود وفيصل وخالد وفهد، وقد قدم كل منهم الكثير في سبيل تحقيق ذلك الهدف، وبما يتناسب مع المرحلة التي عاشوا فيها، وما اقتضته من خطوات. ولم يكن ذلك ليغيب عن عهد عبدالله بن عبدالعزيز، بل لعل الإصلاح هو ما احتل الواجهة في ذلك العهد.

إن مفهوم الإصلاح - مثلما هو مفهوم الفساد - مفهوم فضفاض وقابل للعديد من التفسيرات والتأويلات القائمة على الرؤى الشخصية أو المصالح، لكن الواقع يظل هو الأقدر على تحديد المقصود من المفهوم. وقد حدد الواقع ما قصده عبدالله بن عبدالعزيز حين قاد الإصلاح في المملكة وترجم المفهوم إلى أعمال. وكما رأينا فإن تلك الترجمة ليست جديدة بالنسبة له، فحين تولى الملك عبدالله بن عبدالعزيز رئاسة الحرس الوطني كان الإصلاح هاجساً له تمثل في محاربته لما اشتكى إليه أحد المواطنين من انتشار الفساد وذلك بتشكيل لجنة تحر تبحث عن الأخطاء وتقدم تقريرها. الإصلاح ومحاربة الفساد ترجمت هناك إلى حماية المصلحة العامة وما يمس المال العام بمفهومه الواسع. وقد استمرت الدلالة نفسها حين أصبح قائد الحرس الوطني قائداً للوطن كله، فتحرك ليحقق على مستوى أوسع ما حققه على مستوى أضيق قبل عقود. وكان من تلك التحركات إتاحة الفرصة للناس ليعبروا عن رأيهم في وسائل الإعلام فشهدت المملكة أكبر اتساع عرفته في حرية التعبير والنقد. ومع أنه قد يقال إن تحولات الفضاء الإعلامي الهائلة في السنوات الأخيرة بدخول الفضائيات والانترنت والاتصالات على أنواعها كانت قادرة على توسيع فضاءات التعبير دون تدخل من أحد، فإن الواقع يقول بأن تلك التحولات لم تجدِ في بلاد أخرى ظلت فيها حرية التعبير في أشد صورها ضيقاً. لقد تعوّد الناس أن ينتقدوا مؤسسات الدولة على نحو لم يحدث من قبل، ووجد الكتّاب متنفساً لكي يسائلوا المسؤولين أنفسهم وبكل جرأة عما تحملوه من مسؤولية

(١) صحيفة «الرياض» ع ١٤١٢٣، ١٤٢٨/٢/٥هـ -(٢٠٠٧/٢/٢٣م).

ومرشدهم في ذلك ملك يستشهد بكلام الله عز وجل في مشروعه النبيل. ففي كلمته أمام القمة الإسلامية العاشرة في ماليزيا عام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م) قال عبدالله بن عبدالعزيز: إنني أرى أن الأزمة التي تمر بها أمتنا الإسلامية تكمن في خلل فكري وخلل اقتصادي وخلل سياسي، يتطلب التعامل معها بشجاعة وحكمة واستذكار دائم لقوله تعالى: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

ذلك التغيير لما بالأنفس هو ما ظل ينشده عبدالله بن عبدالعزيز رئيساً للحرس الوطني وولياً للعهد ثم ملكاً، وقد سعى إلى أن يشمل به كافة جوانب الحياة بل وألا يقتصر ذلك على المملكة وإنما يمتد إلى الساحات العربية والإسلامية والدولية.

لقد جاء عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله - بعد مبايعته - استمراراً لما سبقه، ولاشك أن توليه تصريف الأمور أثناء مرض الملك فهد - رحمه الله - كان سبباً رئيساً في ذلك. لكنه من الواضح أن الملك عبدالله حرص أيضاً على التذكير بأن ما قام به إنما هو استمرار للخط التنموي نفسه الذي بدأ في عهد أخيه الملك فهد، الذي كان بدوره قائماً بتصريف الكثير من أمور الدولة في عهد سلفه الملك خالد - رحمه الله - بموجب تكليف مشابه للتكليف الذي تلقاه الملك عبدالله من أخيه الملك فهد. وكان من المؤشرات الظاهرة وذات الدلالة الرمزية المهمة حرص الملك عبدالله على استمرار اللقب الذي تلقب به الملك فهد، وهو «خادم الحرمين الشريفين»، لما يحمله ذلك من تواضع من ناحية وتأكيد للشرف المتحقق من خدمة الحرمين الشريفين، من ناحية أخرى. وقد عمّق الملك عبدالله السير في ذلك الاتجاه حين طلب عدم تقبيل اليد أو الانحناء أو استعمال صفات التعظيم عند مخاطبته، والملحوظ أنه لم يلزم أحداً سوى نفسه بذلك، وترك الأمر عند صفته العمومية بوصفه غير محبب، باستثناء ما يكون عادة ما بين الأبناء وصغار السن ووالديهم أو الكبار منهم.

غير أن عدم إلزام الآخرين بأمور هي من السلوك الشخصي لم يعن عدم إلزامهم بما هو من السلوك العام الذي تتأثر به المصلحة. ومن هنا فقد ألزم الملك عبدالله نفسه وألزم الآخرين بالعمل الجاد والحريص على مصالح الناس وما ينفع الوطن وقبل ذلك ما يرضي الله. يقول ابنه الأمير عبدالعزيز بن عبدالله، (نائب وزير الخارجية)، إن والده شديد على من يعمل معه مطالباً إياهم بالحرص والالتزام بالمسؤولية ويقول إنه أشد ما يكون على أبنائه، ويؤكد هذا ابن آخر - هو الأمير مشعل بن عبدالله - أمير منطقة نجران سابقاً، قائلاً إن والده «دقيق جداً في أسئلته لنا، خصوصاً الشؤون التي تهم المواطن، وأصدقك القول إننا نستعد جيداً قبل مقابلته؛ لأننا ندرك أنه دقيق جداً» . كما أكد من ناحية أخرى أنه تعلم «من الوالد أن العمل لأجل المواطن يأتي في الدرجة الأولى، والملك عبدالله لم يميز أبناءه عن غيرهم من المواطنين، وإن كنت مسؤولاً لابد أن تجعل المواطن

الملك عبدالله ويظهر بجواره الملك سلمان بن عبدالعزيز أثناء أداء العرضة السعودية وبمعيته الأمير بدر بن عبدالعزيز

بين عينيك، وبحجم خدمتك لوطنك يأتيك الدعم».[1]

إن ما أُنجز كان النتيجة الطبعية لعوامل كثيرة لم يكن الدعم المادي سوى أحدها كما يتضح من كلام الأمير مشعل. هناك الحرص والمسؤولية والنية المخلصة، وهذه جميعاً وغيرها من قيم هي ما لا يتردد مواطن واحد في المملكة العربية السعودية في ربطها بشخص الملك عبدالله، وأنها ما يبحث عنه عند من يعملون معه ويوليهم ثقته.

لقد اتضح هذا في حجم المنجزات التي أُنجز الكثير منها، ومازال بعضها قيد الإنجاز. كما اتضح في السياسات الحكيمة التي اتبعها في مواجهة التطورات التي حدثت بتولي عددٍ من الأمراء ولاية العهد ومناصب أخرى ثم فقدها لعدد منهم. كان أولئك في الطليعة من أبناء هذه البلاد المخلصين الذين كانوا عضداً لقادتها والذين تركوا منجزات كبيرة سجلها التاريخ. سنتوقف أولاً عند بعض تلك الأحداث، ثم نخصص الجزء الأخير من هذا الكتاب – أي الباب الثالث – للوقوف على بعض منجزات عهد الملك عبدالله رحمه الله.

(١) من حديث لمجلة «الرجل» (ديسمبر ، ٢٠١٠م).

الملك عبدالله يرأس جلسة مجلس الوزراء

ولاية العهد في عهد عبدالله بن عبدالعزيز

منذ تولي خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله مقاليد الحكم وسنده في العمل وفي المشورة هو صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز، غير أن مشيئة الله عز وجل كانت فوق كل مشيئة، فانتقل الأمير سلطان إلى رحمة الله في ٢٤ ذي القعدة من عام ١٤٣٢هـ، الموافق (٢٢ أكتوبر ٢٠١١م) إثر مرض ألم به، ففجعت البلاد أجمع بذلك المصاب الجلل الذي أدى إلى فقد رجل عرف بأعظم ما يعرف به الرجال النبلاء والقادة الكبار، والذي ترك مآثر لن تنساها الأجيال.

إثر ذلك وقع اختيار خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله على صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز وزير الداخلية ليكون ولياً للعهد بعد إشعار من رئيس وأعضاء هيئة البيعة، فصدر بذلك القرار رقم أ/٢٢٤ في ١٤٣٢/١١/٢٩هـ (٢٠١١/١٠/٢٧م)، ليتولى سموه ذلك المنصب إلى جانب عمله وزيراً للداخلية مواصلاً إنجاز ما عرف به سموه من أعمال جليلة خدمة لدينه ومليكه ووطنه، وداعماً للسياسات التي اختطها أخوه الملك عبدالله. غير أن مشيئة المولى سبحانه لم تمهله طويلاً فانتقل إلى رحمة الله بعد حوالي ثمانية أشهر من توليه المنصب، في ٢٦ رجب من عام ١٤٣٣هـ (١٦ يونيو من عام ٢٠١٢م)، لتفجع البلاد مرة أخرى بعلم كبير آخر من أعلامها وقادتها المخلصين، وليحزن خادم الحرمين الشريفين مرتين متتاليتين متقاربتين محتسباً أخويه

عند الله سبحانه وداعياً لهما، ومعه الشعب السعودي والأمتان العربية والإسلامية، بالرحمة والغفران.

إثر ذلك صدر قرار خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله رحمه الله رقم أ/١٣٩ في ١٤٣٣/٧/٢٨هـ (٢٠١٢/٦/١٨م) بتعيين صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز ولياً للعهد إلى جانب توليه وزارة الدفاع التي كان قد تولاها إثر وفاة أخيه الأمير سلطان. والأمير سلمان هو من عرف بالقيادة والخبرة الطويلة وحبه للناس وحب الناس له، ولاشك أن وقوفه إلى جانب أخيه الملك عبدالله كان داعماً لإدارة الدولة ولتوجهات المملكة وسياساتها على كافة الأصعدة المحلية والدولية. وفي ١٤٣٥/٥/٢٦هـ (٢٠١٤/٣/٢٧م) صدر أمر ملكي بتعيين الأمير مقرن بن عبدالعزيز ولياً لولي العهد مع استمراره نائباً ثانياً لرئيس مجلس الوزراء (جرى بعد ذلك، في عهد الملك سلمان، إعفاء الأمير مقرن من ولاية العهد بناء على طلبه، وتعيين الأمير محمد بن نايف ولياً للعهد، والأمير محمد بن سلمان ولياً لولي العهد).

تسترعي الانتباه في هذا الصدد الحيثيات التي تضمنها الأمر الملكي والتي تحتاج من الدارسين إلى وقفات تفصيلية قد لا يتسع لها المجال هنا، لكن إبرازها مهم لما تسلط الضوء عليه من شخصية الملك عبدالله غفر الله له. فمما يسترعي الانتباه في الأمر - أولاً - ما استند إليه في مقدمة الأمر من قيم ومبادئ عليا، وما أكده، ثانياً، من إجراءات نظامية تتصل بهيئة البيعة. فعلى المستوى الأول أكد الأمر على خمسة مبادئ:

الأول: العمل بمقتضى الشريعة الإسلامية
الثاني: الأخذ بالأسباب الشرعية والنظامية
الثالث: تحقيق الوحدة واللحمة الوطنية والتآزر على الخير
الرابع: الانطلاق من المبادئ التي استقر عليها نظام الحكم
الخامس: رعاية كيان الدولة ومستقبلها

أما على المستوى الثاني فهناك دور هيئة البيعة ونظامها وأخذ الموافقات الضرورية نظاماً لاختيار الأمير مقرن.

يضعنا هذا أمام حرص واضح على أن ينهض القرار على أسسه الشرعية والنظامية، وتوخي المصلحة العامة باتباع المبادئ والقيم التأسيسية والنظر إلى المستقبل مع تغليب الحاجة إلى توافق وجهات النظر توخياً للاستقرار. وقد أثبتت الأيام صحة هذا التوجه الحكيم حين استمر في عهد الملك سلمان باختيار الأمير مقرن ولياً للعهد والأمير محمد بن نايف ولياً لولي العهد.

الملك عبدالله في ردهة الأمم المتحدة وتبدو خلفه ستارة باب الكعبة التي أهداها الملك فهد بن عبدالعزيز لهيئة الأمم المتحدة عام ١٩٨٣م

تطورات ومواقف في السياسة الخارجية

حفل عهد الملك عبدالله بنشاط سياسي كبير، وحظي بتأثير بالغ في علاقات المملكة الخارجية، كما كان له أثر في مجريات الأحداث الدولية، فقد اتسعت رقعة تلك العلاقات، وأظهرت المملكة -من خلال اتصالات المسئولين أو من خلال المؤتمرات المقامة داخلياً وخارجياً - تأثيرها الواسع في الأحداث الدولية. وكان للقضايا المصيرية الثابتة في التاريخ العربي الإسلامي الحديث - وعلى رأسها قضية فلسطين - أهميتها في ذلك النشاط السياسي والدبلوماسي، مثلما كان للقضايا الإقليمية التي تمس دول مجلس التعاون سواء عربياً أو دولياً أهميتها الخاصة. ولأن معظم تلك الأحداث ومواقف المملكة منها في عهد الملك عبدالله - رحمه الله - معروفة بشكل واسع، ونظراً لكثرة تلك الأحداث والمواقف، فسينحصر النظر فيما يلي في الأحداث التي شهدتها المنطقة العربية والعالم في السنوات الأربع الأخيرة من حياته غفر الله له، وهي المدة التي شهدت أيضاً بداية وعكته الصحية.

في المدة المشار إليها بدأت معاناته - رحمه الله - من متاعب الظهر مما اضطره لإجراء عمليات جراحية تزامن إجرائها مع بدء مخاض سياسي في العالم العربي تمثل في عدد من المظاهرات الاحتجاجية التي شكلت ما عرف بالربيع العربي، بدءا بتونس ومروراً بمصر وليبيا، ثم انتهت بفتنة طائفية وحرب مدمرة في سوريا. ولأن الملك عبدالله - غفر الله له - كان مدركاً للعواقب السيئة لتلك المظاهرات في المجمل الأعم فقد حرص على دعم التوجهات السليمة، وتثبيت دعائم الأمن والإصلاح في البلاد العربية التي عاشت تلك الاضطرابات، فكان داعياً للتعقل والهدوء والابتعاد عن العنف وسفك الدماء.

وكان أمن دول مجلس التعاون الخليجي على رأس أولويات الملك عبدالله، وهو استمرار لما درجت عليه المملكة في سياساتها ومواقفها تجاه أمن الخليج وسلامته، وقد سبقت الإشارة إلى الموقف الذي اتخذه الملك فهد -رحمه الله- من التهديد الذي تعرضت له الكويت، وهاهو ذا الملك عبدالله - رحمه الله - يلتزم بسياسة المملكة الراسخة الثابتة تجاه استقرار الخليج واستقلاله. ففي عام ٢٠١١م امتدت المظاهرات إلى مملكة البحرين، واستُغلت هذه الاحتجاجات من قبل دول تشكل تهديدا لأمن البحرين بصفة خاصة وأمن الخليج العربي بصفة عامة، وهو الأمر الذي دعا حكومة البحرين إلى الاستعانة بدول مجلس التعاون لحماية منشآت مملكة البحرين ومؤسساتها الحكومية، فانبرى الملك عبدالله - رحمه الله - إلى اتخاذ قراره الشجاع بإرسال قوات درع الجزيرة إلى مملكة البحرين بمشاركة دول الخليج للحفاظ على مؤسسات الدولة، وحماية أمن الخليج وسلامة أراضيه، ولقد كان لهذا التصرف في شجاعته وحكمته وسرعته أثر كبير في مواقف دول العالم، كما كان له أكبر الأثر في الحفاظ على أمن البحرين وسلامة مواطنيه.

أما في مصر وليبيا وسوريا فلم تجر الأمور في نصابها، حيث تولت السلطة في الأولى جماعة الإخوان المسلمين، وانهارت مؤسسات الدولة في ليبيا لتعيش فوضى زادت من معاناة الناس بعد معاناتهم الطويلة نتيجة الحكم السابق، أما سوريا فقد دخلت حرباً أهلية سعى- رحمه الله - بكل جهده لتفاديها بكل الوسائل، ولما لم يجد ذلك نفعاً بادر إلى اتخاذ موقف صارم تجاه الحكومة السورية مبني على مبدأ لم تحد عنه المملكة يوماً وهو احترام مبادئ العدالة، وأمن المواطنين وسلامة أرواحهم، وهو ما حث عليه الدين الإسلامي الحنيف.

اتخذت حكومة الملك عبدالله غفر الله له إجراءات عديدة لمواجهة الأوضاع المستجدة على الساحة العربية بشكل خاص سواء على المستوى الدولي أو العربي أو المحلي، فإلى جانب الإجراءات التي اتخذها بقطع العلاقات مع سوريا، ودعوة مجلس الأمن إلى اتخاذ الإجراء الكفيل بالحد من العنف في ذلك البلد الشقيق، كان لحكومة الملك عبدالله بقيادته - رحمه الله - خطوات مهمة تجاه الأوضاع في مصر، البلد الذي طالما أكدت المملكة أن له مكانة خاصة في قلب الوطن العربي، وإنه لا ينبغي أن تتخلى عنه المملكة أو غيرها فيما يواجه، وعلى هذا الأساس دعم الملك عبدالله الاستقرار السياسي ونبذ العنف، كما كان حريصا رحمه الله على الأمن في هذا البلد الكبير، وألا تنزلق البلد إلى حرب أهلية تأكل الأخضر واليابس، وتطحن الوطن والمواطن المصري.

حرص الملك عبدالله في تلك المرحلة المهمة على دعم الاقتصاد المصري، والوقوف مع مؤسسات الدولة في موقف تاريخي شهم؛ حيث أصدر أمره بتقديم مساعدات مالية لمصر؛ منها الإيداع النقدي في البنك المركزي المصري، وتقديم مساعدات نفطية؛ لدعم الدولة واستمرار الحياة العامة للمواطن المصري، كما دعا الملك عبدالله -رحمه الله- إلى مؤتمر لأشقاء وأصدقاء مصر المانحين؛ لمساعدتها في تجاوز أزمتها الإقتصادية، وهو ما أدى إلى تدفق المساعدات الأخوية من بقية دول مجلس التعاون، وانعكست هذه الإجراءات على الاقتصاد المصري، فانتعشت البورصة المصرية بهذا الدعم الاقتصادي والسياسي للدولة، وعندما انتهت الانتخابات المصرية بانتخاب الرئيس عبدالفتاح السيسي رئيسا لمصر بادر الملك عبدالله - رحمه الله - بالتهنئة، ودعم استقرار مصر تحت رئاسته.

لقد رأى الملك عبدالله أن الوضع الذي آلت إليه مصر تحت حكم الإخوان المسلمين كان ينذر بخطر ليس على مصر وحدها وإنما على ماجاورها، فموقع مصر المركزي في قلب الوطن العربي يجعلها مؤثرة فيما حولها، إلى جانب أن الملك كانت تهمه مصر بحد ذاتها، ومن هنا كان موقف المملكة بقيادته صارماً لايساوم على مستقبل مصر، فألقى - رحمه الله - بالثقل السعودي خلف الاستقرار السياسي والأمني لمصر، الأمر الذي ترك أثره الواضح فيما آلت إليه الأوضاع في مصر، وجعل الشعب الشقيق يدرك أن في السعودية أشقاء حريصين على مصلحة مصر مثل حرصهم على مصلحة السعودية.

الملك عبدالله والسلطان قابوس خلال زيارته سلطنة عمان (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)، ويظهر في الصورة الفريق حمد العوهلي والفريق عبيد بن غشيث العنزي

ذلك الموقف التاريخي لم يكن غريباً بطبيعة الحال على من عرف خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله وتاريخه المضيء بالمواقف العديدة المشابهة، وسيذكر الجميع أن من آخر إنجازاته في هذا المضمار - جزاه الله عن الجميع خير الجزاء - جمعة كلمة الأشقاء الخليجين في الرياض على كلمة واحدة وإزالة ماعلق بينهم من سوء تفاهم.

الحوار الخليجي وجمع الكلمة

كثيرة هي الألقاب التي استحقها عبدالله بن عبدالعزيز، لكن ملك الحوار يجب أن يكون من بينها. فالرجل الذي أسس مركزين كبيرين للحوار، أحدهما وطني، والآخر عالمي، ودعا دائماً إلى التحاور السلمي

المتكافئ، لم يكن غريباً عليه أن يتجه للحوار بوصفه الحل الأنجع عند اختلاف وجهات النظر لاسيما بين الأشقاء. وذلك بالفعل ما حدث حين دعا – رحمه الله – قادة دول مجلس التعاون إلى الرياض في المحرم من عام ١٤٣٦هـ، (نوفمبر ٢٠١٤م)، لحل خلافات أدت إلى سحب المملكة ودولتا البحرين والإمارات العربية المتحدة سفرائها من الدوحة. لكن الملك استطاع بحكمته المعهودة أن يزيل كافة أوجه الخلاف في وجهات النظر، ما أدى إلى عودة السفراء، وخلق الأجواءالملائمة لعقد قمة مجلس التعاون بعد ذلك بشهر في دولة قطر، الأمر الذي ترك أثره العميق على الجميع حيث أعاد اللحمة الخليجية إلى ما كانت عليه. كما أن من الآثار المباشرة لذلك الإنجاز عودة العلاقات الطبعية بين مصر وقطر بعد سوء تفاهم طال أمده.

هذه المواقف المتعددة تشير بطبيعة الحال إلى قرارات سياسية تنشد تحقيق مصالح عليا للأمة ككل وليس للملكة أو لدولة بعينها، لكن الملحوظ هو أن الملك عبدالله لم يكن يقارب هذه المشكلات من زاوية سياسية احترافية أو تقليدية، كما يحدث عادة في المفاوضات والسعي لحل المشكلات. الملحوظ أنه ينظر إلى القضايا التي اهتم بها وبوضع حلول لها من زاوية شخصية أيضاً، زاوية تظهر حرصاً شخصياً على مصالح يراها كما لو كانت مصالح شخصية، يرى الخصومات، بتعبير آخر، كما لو كانت بين أبنائه أو في أسرته. مصر ليست دولة شقيقة فقط مصر هي السعودية، وقطر كذلك. النظرة الأسرية الحميمة سمة من سمات شخصيته رحمه الله، وهي إذ تلتحم بنظرته السياسية المحنكة وخبرته الطويلة في إدارة العلاقات الدولية تبرز رجل دولة من طراز فريد لم يستطع رؤوساء الدول سوى أن ينحنوا له احتراماً وإجلالاً.

الباب الثالث

منجزات على الطريق

الباب الثالث

منجزات على الطريق

نتوقف فيما يلي من صفحات هذه السيرة عند بعض المعالم الرئيسة على طريق الإنجاز. فالحديث ليس عن منجزات عهد الملك عبدالله بأكملها، فهي أكثر من أن تحصر في موضع واحد، ولكنه الوقوف عند «بعض المنجزات» وليس كل «المنجزات». ومرد ذلك هو استمرار الإنجاز من ناحية، وكثرة المنجز وصعوبة - إن لم يكن استحالة - الإحاطة به بين دفتي كتاب، من ناحية أخرى.

غير أن سبباً ثالثاً له أهميته أيضاً: فنصب أعيننا في هذه الأبواب والفصول ليس المنجزات بحد ذاتها وإنما الإنسان الذي يقف وراءها ويدفع بها إلى الأمام، وما ذكّرنا لها - سواء في هذا الحيز أو فيما سبقه من فصول - إلا لأن المنجزات جزء من الشخصية، وشهادة كبرى من شهادات تميزها وعطائها. وفي ما يلي نواصل الوقوف عند بعض ذلك المنجز الكبير، ونصب أعيننا الشخصية التي تقف وراءه، فاللمسات هي اللمسات، والفكر هو الفكر، والعزيمة هي العزيمة.

لهذه الأسباب سيتركز التناول في ما يلي على ثلاثة محاور: التعليم والاقتصاد وحقوق الإنسان، وهي محاور اختيرت ليس لأنها الأهم، وإنما لما تبرزه من تنوع في جوانب التنمية التي حققت قفزات غير مسبوقة في عهد الملك عبدالله، إلى جانب أهميتها التي لا يعتريها الشك فهي ركائز لكل تنمية.

إن الحديث عن التنمية والمنجزات الحضارية التي شهدتها المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالله بن عبدالعزيز يتطلب انحيازا كاملا للحقائق والأرقام والتاريخ، وانعتاقا وتحررا قدر الإمكان من لغة السرد العاطفي التي قد تربك السياق، وتحيله مجرد هالات من الإعجاب.

ومن نافلة القول أن أعمال الرجال لا تقاس بحجم المناصب التي شغلوها، أو بطبيعة الكراسي التي جلسوا عليها، ولكن بمستوى الإنجاز الذي قدموه وأسهموا فيه نتيجة لوجودهم في المنصب أو جلوسهم على الكرسي، وإذا كان رضا الناس غاية لا تدرك، فهو في الوقت نفسه مقياس يبدو مرضيا لطبيعة الإنجاز وحجم التطور الذي يتركه هذا القائد أو ذاك، ولذا سيكون الحديث هنا عن المنجز التنموي والحضاري بوصفه المعيار الأدق للحكم

على المرحلة الراهنة ، وسيكون التركيز أكثر على مدى ملامسة هذا المنجز أو ذاك لحاجات الناس وظروف حياتهم، بوصفها ثمرة الإنجاز وقيمته العليا.

وحين نزمع الحديث عن المنجزات الحضارية والتنموية التي شهدتها المملكة في عهد الملك عبدالله - غفر الله له - فإننا بحاجة ماسة إلى تحديد السياقات المعرفية وتقسيمها وترتيبها؛ رغبة في تنظيم التناول، ودقة الطرح، والإلمام بكل ما يمكن الحديث عنه في هذا السياق. ويتطلب الأمر أيضا مزيد قراءة واعية وفاحصة للسياقات التاريخية والسياسية التي تشير بجلاء إلى أن منجزات الملك عبدالله التنموية والحضارية قد ابتدأت قبل توليه الملك ببضع سنوات، كما سبقت الإشارة، وهي سنوات ربما أمكننا تحديدها بالسنوات الخمس الأخيرة من عهد أخيه الراحل الملك فهد بن عبدالعزيز؛ حيث كان الملك عبد الله يومذاك قائدا لكثير من الإنجازات التي تمت في تلك الفترة، ومؤسِّسا لمنجزات تكاملت صورتها، وأينعت ثمارها حين تولى الملك في العام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م).

والحقيقة أن المتتبع بعمق وإنصاف لمسيرة التنمية في المملكة العربية السعودية خلال السنوات العشر الأخيرة يجد الكثير من المنجزات الحضارية التي تحققت بشكل سريع وقياسي اختصر الزمن، وكسر أفق التوقع، وقفز بالتنمية خطوات بعيدة تجاوزت ما أُنجز في المرحلة السابقة للدولة، وبزّت تجاربَ ومنجزاتٍ لدولٍ سبقت المملكة تنمويا وحضاريا.

لقد شهدت المملكة العربية السعودية في السنوات القليلة الماضية مرحلة متطورة جدا لم تشهدها من قبل في جميع مناحي الحياة وعلى المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية كافة، وقد انعكس هذا إيجابيا بشكل ملحوظ على الواقع العام للدولة، وأسهم في تشكل ملامح ما يمكن وصفه بالنهضة الشاملة.

ولقد أسهمت عوامل كثيرة في تحقيق هذه القفزات التنموية والحضارية، ولعل أبرز هذه العوامل الانتعاش الذي أصاب أسعار النفط في الأسواق العالمية، وحالة الاستقرار الأمني التي شهدتها المنطقة بعد توترات حروب الخليج المتتابعة، والانفتاح الاقتصادي والثقافي الذي شهده العالم – والمملكة جزء منه - بيد أن هذه العوامل كلها لم تكن لتصنع شيئا ذا بال في سياق التنمية الحضارية ما لم يكن ثمة قائد يمتلك حسا واعيا يستطيع من خلاله أن يستثمرها الاستثمار الأمثل، وأن يطوعها بشكل فاعل لتعود على البلاد بالتطور والرخاء، وهو الأمر الذي وعاه الملك عبدالله جيدا منذ أن كان وليا للعهد، وامتدادا لعهد ملكه؛ حيث آمن أن الرهان الحضاري والتنموي يجب أن يكون على الإنسان في هذا الوطن، ومن هذه النقطة انطلق ليشرع بوابات التنمية أمام أبناء وطنه بمنجزات حضارية كبيرة وفريدة، ستحاول الصفحات القادمة رصد شيء منها واستعراضه بلغة – كما أسلفت سابقا- تنحاز للحقائق والأرقام والتاريخ، وتتجافى عن العواطف المجردة.

الملك عبدالله في المسجد الحرام، و يظهر في الصورة الأمير متعب بن عبدالعزيز، والشيخ صالح الحصين – ١٤٢٦هـ

ورغبة في شيء من المنهجية والتحديد، فسأعمد إلى تقسيم هذه المنجزات وفق نمطها وطبيعتها، محاولا في الوقت ذاته أن أجمع ما يمكن جمعه منتظما في سياق واحد، متجافيا عن الاشتراطات الزمنية، ومؤكدا ما قدمته سابقا من أن هذه المنجزات، وإن ابتدأ بعضٌ منها في أواخر عهد الملك فهد، إلا أنها ظلت مرتبطة ارتباطا عمليا بالملك عبدالله من حيث التبني والمتابعة والإنجاز.

أولاً: الحرمان الشريفان والمشاعر المقدسة:

كرس الملك عبدالله بن عبدالعزيز -رحمه الله- جزءا كبيرا من المشاريع التي أنجزت في عهده لتوسعة المسجد الحرام في مكة الكرمة ومسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في المدينة المنورة إضافة إلى المشاريع والخدمات المقدمة في المشاعر المقدسة، بل إننا لا نبالغ إن قلنا إنها من قمم العطاء في عهده -رحمه الله- إذ إنها المشاريع الأضخم حجما ونوعاً خدمة لضيوف بيت الله من حجاج ومعتمرين. ومن الطبعي أن نقف على هذه المشاريع الفريدة من نوعها في بداية هذا العرض لمنجزات عهده غفر الله له.

الملك عبدالله في منى للاطمئنان على حجاج بيت الله الحرام – ١٤٢٨هـ

أ. المسجد الحرام بمكة المكرمة :

يعد مشروع توسعة المسعى أحد المشاريع المتميزة التي شهدها المسجد الحرام خلال الأعوام الأخيرة؛ حيث بدأ العمل بها بتاريخ ١٤٢٨/٠١/٢١هـ (الموافق ٢٠٠٧/٢/٩م)، وقد حقق إنجاز هذه المنشأة عدة أهداف، منها: زيادة الطاقة الاستيعابية للمسعى، والعناية بتنقل المعتمرين داخل مرافقه، إضافة إلى تسهيله حركة دخولهم وخروجهم على نحو يضمن أمنهم وسلامتهم، وتوفير مسارات خاصة بذوي الاحتياجات الخاصة وكبار السن.

وتقدر مساحة الدور الواحد في المسعى الجديد ١٨ ألف متر مربع، في حين يصل إجمالي مساحة المسعى ٨٧ ألف متر مربع، وتقدر طاقته الاستيعابية بـ ١١٨ ألف شخص في الساعة،.وتبلغ مسطحات البناء الإجمالية بكافة أدوار المسعى وخدماته المساندة حوالي ١٢٥ ألف متر مربع. وتميزت أعمال التطوير بإضافتها لمجموعة من الخدمات الحيوية المساندة التي لاتكتمل عمليات التحديث بدونها، مثل تكييف أدوار المسعى ومرافقه ، وتركيب

مراوح حديثة؛ لتحسين الهواء بالمواقع المختلفة، إضافةً إلى تجهيز سقف الهرولة بوحدات إضاءة خضراء اللون، ونظام لوحات إرشادية لتسهيل توجيه الحجاج والمعتمرين وسلامتهم.[١]

وأعقب توسعة المسعى مشروعٌ عملاقٌ ضمن المشروعات المهمة التي يجري تنفيذها في المسجد الحرام، وهو مشروع خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز لتوسعة المسجد الحرام وساحاته الشمالية، إذ يعد من أضخم التوسعات في تاريخ الحرمين الشريفين، وقد بدأ في شهر شوال ١٤٣١هـ الموافق (سبتمبر ٢٠١٠م).

وَهَدفَ المشروع إلى تنفيذ توسعة من الجهة الشمالية، المعروفة بالشامية، بمساحات ملائمة وكافية لخدمة الأعداد المتزايدة من الحجاج؛ لتكون حلاً بعيد الأمد، وقد وُسعت الساحات بشكل دائري في كافة الاتجاهات؛ لتتلاءم مع اتجاه القبلة، وحركة المصلين. وتعمل التوسعة على تأمين عدد إضافي من المداخل الرئيسة والثانوية والفرعية بحيث يتم توزيعها على واجهات التوسعة على نحو يتناسب مع الأعداد المتوقعة للمصلين، إضافة إلى توفير صالات للصلاة داخل مباني التوسعة تتسع لحوالي ٣٠٠ ألف مصلٍّ وأخرى خارجية تتسع لحوالي ٣١٤ ألف مصلٍّ، للتتجاوز القدرة الاستيعابية للتوسعة لما يزيد عن ٦٠٠ ألف مصلٍّ. كما تشتمل التوسعة على مبنى للخدمات والمصاطب يحوي ستة أدوار متصلة بشكل غير مباشر بمبنى الحرم بواسطة أربعة جسور زودت بأعداد كبيرة من دورات المياه.

وقد شمل المشروع تركيب أعمدة للإنارة تتوزع في الساحات، وتأمين أعداد كافية من نوافير مياه شرب زمزم بالساحات تترافق بأحدث الأنظمة؛ لجمع المخلفات بالساحات، وإضافة ما تحتاجه من دورات مياه وأماكن للوضوء تتناسب مع الأعداد المتوقعة والمتزايدة للمصلين وقاصدي المسجد الحرام. ومن المتوقع أن تصل الطاقة الاستيعابية لمشروع توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز إلى مايزيد عن ٧٠٠ ألف مصلٍّ ، وهو رقم يُعادل أو يزيد عن الطاقة الاستيعابية للمسجد الحرام بتوسعاته المتعاقبة على مر التاريخ.[٢]

و في سياق هذا الجهد المبارك يأتي مشروع خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله لزيادة الطاقة الاستيعابية للمطاف، والذي يُمثل التوسعة الأكبر قياساً بنظيراتها السابقة، وأفضلها من ناحية الخدمات، وقد انطلق بتاريخ ١٤٣٤/٠١/٠١هـ الموافق (٢٠١٢/١١/١٥م)، ليستوعب المطاف بعد الانتهاء من تنفيذه وما يتصل

(١) مجلة الحرمان الشريفان الإصدار الأول ١٤٣٤هـ.

(٢) المرجع السابق.

الملك عبدالله يلقي السلام على الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه رضوان الله عليهما

به لما يقارب ١٠٥ ألف طائف في الساعة الواحدة، مقارنة بـ ٤٨ ألفاً في الساعة سابقاً.[١]

فإضافة إلى زيادة الطاقة الاستيعابية في الحرم الشريف للطائفين، رمت التوسعة إلى تقليل الازدحام داخل الحرم، والاعتناء بحركة الحجيج والمعتمرين والزائرين، وتسهيل دخولهم وخروجهم للمسجد الحرام؛ بما يحقق أمنهم وسلامتهم، إضافة إلى توفير مسارات محددة منفصلة لذوي الاحتياجات الخاصة وكبار السن، وتطوير نظام آلي لخدمتهم. المشروع أيضاً شمل مجموعة من الخدمات النوعية الضرورية كتلطيف هواء المطاف و التوسعة السعودية الأولى ، وتظليل صحن المطاف وسطح الحرم. وتجدر الإشارة إلى أن أعمال التوسعة قد راعت فصل حركة مستخدمي العربات –من ذوي الاحتياجات الخاصة وكبار السن ـ عن الطائفين في صحن الطواف طيلة مدة تنفيذ المشروع من خلال تنفيذ مطاف مؤقت في حلقة دائرية تحاذي الرواق القديم بعرض ١٢ متراً، وذلك لانقطاع حلقة الطواف في الأروقة؛ بسبب أعمال الإزالة التي تقتضيها مراحل التنفيذ المتنوعة.

وفي سياق اهتمام الملك عبدالله بالحرمين الشريفين الدؤوب جاء مشروع وقف الملك عبدالعزيز للحرمين الشريفين الذي أمر بتنفيذه وفقاً للطابع المعماري الإسلامي، ويتكون من سبعة أبراج بمساحة إجمالية تصل إلى مليون و٥٠٠ ألف متر مربع، وتقدر طاقته الاستيعابية بنحو ٦٥ ألف شخص .

(١) مجلة الحرمان الشريفان الإصدار الأول ١٤٣٤هـ.

ب. المسجد النبوي الشريف:

وبالتزامن مع هذه المشاريع الضخمة جاء التوجيه المبارك بالعمل على تنفيذ مشروع خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله لتوسعة الحرم النبوي، فقد دشن خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز -رحمه الله- خلال زيارته للمدينة المنورة يوم الاثنين الموافق ٨ ذي القعدة ١٤٣٣هـ (٢٠١٢/٩/٢٤م) أكبر مشروع توسعة للمسجد النبوي الشريف بما يجعله يستوعب ما يقارب ٢،٨ مليون مصلٍّ، مع ما يصاحب ذلك من خدمات.

وسينفذ مشروع الملك عبدالله بن عبدالعزيز لتوسعة الحرم النبوي الشريف على ثلاث مراحل، تتسع المرحلة الأولى منها لما يتجاوز ٨٠٠ ألف مصلٍّ، كما سيتم في المرحلتين الثانية والثالثة توسعة الساحتين الشرقية والغربية للحرم بحيث تستوعب ٨٠٠ ألف مصلٍّ إضافيين، وتشمل هذه التوسعة التاريخية مسطحات بناء إجمالية تقدر بنحو مليون متر مربع مع إضافة بوابة رئيسة للتوسعة الجديدة بمنارتين وأربع منارات جانبية على أركان التوسعة والساحات وبطاقة استيعابية تتسع ما يزيد عن مليون وستمئة ألف مصلٍّ مما يوفر أماكن للصلاة بالأدوار المختلفة تقدر بأكثر من ثلاثة اضعاف المساحة الحالية.

وقد أزيل منذ بدء تنفيذ المشروع: ما يزيد على مئة عقار موزَّعة على الجانبين الشرقي والغربي للمسجد، بمساحة تقدر بنحو ١٣ هكتاراً. ووفق مخطط المشروع، ستجرى تحسينات للساحات المجاورة حول المسجد، وستحول الملكيات المطلوبة للتوسعة إلى الملكية العامة.[١]

ج- المشاعر المقدسة:

امتدت رعاية الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدؤوبة لتشمل المشاريع والخدمات المقدمة لحجاج بيت الله بهدف تأمين راحتهم وسلامتهم.. وسيظل جسر الجمرات خير شاهد على أكبر توسعة عاشتها المشاعر المقدسة، والذي أمر بإنشائه في التاسع من شهر ذي الحجة عام ١٤٢٧هـ (ديسمبر ٢٠٠٦م)، ويتكون من أربعة طوابق إضافةً إلى الدور الأرضي، وتقدر طاقته الاستيعابية لكل طابق من طوابق الجسر هي ١٢٥ الف حاج في الساعة كحد اقصى في ساعات الذروة لتصبح كامل الطاقة الاستيعابية للجسر أكثر من ٥٠٠ الف رامي في الساعة إضافة إلى أن تصميم الجسر روعي فيه أن يكون قابلاً لإضافة أدوار أخرى عند الحاجة لذلك في الأعوام القادمة وقد تم تأسيس قواعد الجسر لتتحمل إثنى عشر طابقاً.

---

(١) مجلة الحرمان الشريفان الإصدار الأول ١٤٣٤هـ.

وفي سياق متصل، جاء مشروع «قطار المشاعر المقدسة» الذي يربط مكة المكرمة بالمشاعر المقدسة: منى وعرفه ومزدلفة. وقد بلغت تكلفة المشروع ٦,٧ مليار ريال وبدأ تنفيذه عام ١٤٢٩هـ (٢٠٠٩م)، وقد بدأ تشغيله عام ١٤٣١هـ (٢٠١٠م)، أي بعد عامين من بدء المشروع. وبمواصلة تطويره استطاع القطار نقل ٣٦٠ ألف حاج بين المشاعر في عام ١٤٣٥هـ (٢٠١٤م)، ما أدى إلى تخفيف الضغط على شبكة الطرق التي تستخدم لتفويج الحجاج باستخدام المركبات والحافلات.

ويُعد مشروع الملك عبدالله بن عبدالعزيز لسقيا زمزم، الذي دُشن في رمضان عام ١٤٣١هـ (٢٠١٠م)، شاهداً حياً على اهتمام الملك عبدالله بن عبدالعزيز بتوفير سبل الراحة لحجاج بيت الله الحرام و توفير عبوات ماء زمزم لهم بسهولة وبدون أي عناء وفق معايير عالية من النقاء و التعقيم. ويعمل مشروع السقيا بطريقة منظمة وميسرة من خلال ٤٢ نقطة توزيع، وتبلغ طاقته الاستيعابية خمسة آلاف متر مكعب من مياه زمزم ويصل إنتاجه ٢٠٠ ألف عبوة بلاستيكية يومياً.

ثانياً: الاقتصاد

تنمية الاقتصاد الوطني

تعد التنمية الاقتصادية أهم محاور تحقيق مشروع التنمية الشاملة؛ نظرا لارتباطها الوثيق والمصيري بمصلحة المواطن، ومساسها المباشر بمعيشته ورفاهيته، ولذا لم يكن غريبا أن تحظى التنمية الاقتصادية باهتمام الملك عبدالله، حيث دعم الاقتصاد الوطني، وتبنى مشروع إعادة هيكلته بما يتلاءم مع متغيرات العالم الاقتصادية، كما كان مهموما بضرورة تنويع مصادر الدخل الوطني، وتنويع القاعدة الاقتصادية، وتدعيم الطاقات والقطاعات الاقتصادية غير النفطية، وركّز كثيرا على إنشاء هيئات اقتصادية مستقلة تمثلت في مدن اقتصادية ضخمة وعالمية، يتوقع أن تسهم بشكل فاعل ومؤثر في توليد الفرص الوظيفية وتنمية الصادرات الوطنية ورفع الناتج المحلي.

لقد شهد الاقتصاد السعودي في السنوات العشر الأخيرة تطورات وتغييرات إيجابية باتت واضحة وجلية؛ نظرا لنتائجها الخلاقة، وأثرها الإيجابي في حياة المواطنين، «ويعزى ذلك بدرجة كبيرة إلى التغييرات الهيكلية الكبيرة للاقتصاد الوطني التي أخذت بها حكومة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله خلال هذه الفترة؛

كلمة الملك عبدالله في المؤتمر الدولي لحوار أتباع الأديان والثقافات في مقر الأمم المتحدة - ١٤٢٩هـ

بهدف توسيع قاعدة الاقتصاد الوطني، وتنويع مصادر الدخل، وتوفير فرص العمل والاستثمار»،[١] مع التركيز على الوعي الاستثماري الوطني الذي يمثل حجر الزاوية هنا، ولقد كان المجلس الأعلى للاقتصاد ومركز الملك عبدالله المالي أساسين مهمين ومنطلقين رئيسين لبناء ذلك الوعي.

يقوم مرتكز التخطيط الاقتصادي في فكر الملك عبدالله على الإعداد للتنمية المستقبلية في المملكة، ويستند هذا التخطيط على رصيد تراكمي من التجارب والخبرات والتحديات والمنجزات، ومحاولة جادة لمواكبة عدد من المفاهيم والممارسات الاقتصادية الجديدة، كاقتصاد المعرفة مثلا، والمدن الاقتصادية، والاستثمار في الإعلام وتقنية الاتصالات وتقنية المعلومات، وجذب الاستثمارات الأجنبية، وغيرها.

لقد كانت كلمات الملك عبدالله في كثير من المناسبات الاقتصادية شاهدا ومصداقا على ما ذكر آنفا، فهو يقول مثلا: «حرصت المملكة في تخطيطها للتنمية على التفاعل مع الاقتصاد العالمي والاندماج فيه، واتخذت في

(١) عثمان الرواف وآخرون: منجزات التنمية في المملكة العربية السعودية (الرياض: د.م، د. ن. ٢٠١٠) ص٣٥١.

هذا الإطار خطوات إيجابية للانضمام إلى منظمة التجارة العالمية، وهيأت المناخ الملائم للاستثمارات الوطنية والأجنبية...».[١]

ويمكننا أن نلخص سياسة الملك عبد الله الاقتصادية في مجموعة من المحاور التي يمكن استنباطها من استقراء المرحلة وتحولاتها الاقتصادية، ولعل أول هذه المحاور وأهمها يرتكز على إيمانه المطلق بضرورة تنمية العنصر البشري المحلي، وتوفير الفرص العادلة والتنافسية للمواطنين بما يسهم في تحويلهم إلى طاقة بناء وإبداع وابتكار، فيما يدور المحور الثاني حول سعيه الدائم والدؤوب لتنويع الاقتصاد الوطني من منظور يتوافق مع مفاهيم الجودة ومعايير الكفاءة والتنافسية، ويتمثل المحور الثالث في وعيه العميق بمصير الشراكة بين القطاعين العام والخاص وتركيزه على تعزيز الشراكة بينهما؛ سعيا إلى تحسين الكفاءة الاقتصادية، وتحديد رؤى مستقبلية للارتقاء بمستوى أداء كل من القطاعين بما يضمن جودة مخرجاته ورقيّها ونفعها للوطن.

ويؤمن الملك في سياسته الاقتصادية بأهمية الفعاليات المساندة، واستهداف الوسائل الكفيلة بتنمية الصادرات وتعزيز الاستثمارات الأجنبية المباشرة، وتنمية المشروعات الصغيرة والمتوسطة، مواكبة للانفتاح العالمي الذي لم يقف عند حدود الاقتصاد فقط، بل تجاوزه إلى سائر مناحي الحياة الأخرى.[٢]

ولو تحدثنا بلغة الأرقام سنجد أن حجم الاستثمار التجاري والصناعي في المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالله قد تضاعف بشكل لافت حيث تضاعفت الاستثمارات المستقطبة، والمبادرات والمشروعات النوعية التي أُنجزت وسيعلن إنجازها عدة مرات؛ نظرا لحرص الملك على توفير مناخات ملائمة وجاذبة للاستثمارات داخل المملكة، وقد كان تركيزه منصبا على قطاعات نوعية ذات أبعاد استثمارية جديدة وجاذبة، كقطاع الاتصالات وتقنية المعلومات، وقطاع الصناعة القائم على المعرفة الذي يتفرع بدوره إلى قطاعات علوم الحياة والتعليم.

لقد قدرت الهيئة العامة للاستثمار حجم الفرص الاستثمارية في المملكة العربية السعودية بمبلغ تريليون دولار حتى نهاية عام ١٤٤٢هـ (٢٠٢٠م)،[٣] وهذا يعكس بوضوح حرص الملك عبدالله على تنمية القطاع الاقتصادي في المملكة، والوصول به إلى مستوى أفضل عشر دول في العالم من حيث تنافسية البيئة الاستثمارية.

---

(١) من كلمة للملك عبدالله في ندوة الرؤية المستقبلية للاقتصاد السعودي، وزارة التخطيط، في ١٩ أكتوبر ٢٠٠٢م.

(٢) ملك نحبه (الرياض: مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٧م) ص ٣٢٩ .

(٣) ينظر: الموقع الشبكي للهيئة العامة للاستثمار .

أ. المجلس الاقتصادي الأعلى

لقد كان تأسيس المجلس الاقتصادي الأعلى في العام ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م) خطوة مصيرية في تنمية الاقتصاد الوطني السعودي، وقد تولى الملك عبدالله رئاسة هذا المجلس منذ إنشائه حين كان وليا للعهد، ويعكس هذا اهتمام الملك بالاقتصاد وحرصه على تنميته وازدهاره ضمن ضوابط وإستراتيجيات فاعلة؛ حيث يضطلع المجلس الاقتصادي الأعلى بإصدار القرارات الاقتصادية الكبرى في البلاد، ورسم الإستراتيجيات الاقتصادية الفاعلة، ودراسة مشروع ميزانية الدولة السنوية، ويحمل على عاتقه مسؤولية تحقيق الأمن الاقتصادي، وتنويع القاعدة الاقتصادية الوطنية، ودعم برامج الخصخصة والاستثمار الأجنبي وغيرها من المهمات الكبرى اقتصاديا.

وإيمانا من الملك عبدالله بأهمية هذا المجلس وعظيم دوره فقد استمر رئيسا له بعد توليه الملك في العام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م)، وقد حقق المجلس في عهد الملك عبدالله إنجازات اقتصادية غير مسبوقة، كالتعجيل بتفعيل نظام الاستثمار الأجنبي، وبدء مشروعات الخصخصة، وتفعيل صندوق تنمية الموارد البشرية، ومشروع تنظيم الهيئة العامة للاستثمار، وغيرها.

ب. مركز الملك عبد الله المالي

يمثل هذا المشروع العملاق قفزة واثقة وجريئة في طريق التنمية الاقتصادية التي يتبناها الملك عبدالله؛ حيث يشكل ترسيخا للأسس التطويرية للاقتصاد المحلي، وضمانا لبقاء المملكة مركزا اقتصاديا عالميا ونابضا، كما يسهم المركز في جذب الاستثمارات ورؤوس المال الخارجية إلى العاصمة الرياض؛ حيث يجري تشييده منذ منتصف العام ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).

ويعد هذا المركز الأول من نوعه على مستوى منطقة الشرق الأوسط، مضاهيا عددا من أكبر المراكز المالية في العالم حجما وتقنية، وتصل كلفته الإجمالية إلى (٣٠) مليار ريال سعودي، وتبلغ مساحته الإجمالية ١،٦ مليون متر مربع[١].

ويتبنى هذا المشروع الاقتصادي الطموح عدداً من الأهداف الاقتصادية الإستراتيجية، لعل من أهمها: رفع إسهام القطاع المالي في تنمية الاقتصاد الوطني بكل إمكاناته المتاحة، وتوفير الفرص الوظيفية المتعددة للقوى الوطنية العاملة من خلال استحداث آلاف الوظائف، وتلبية حاجات التطوير والتدريب بإقامة أكاديمية

(١) وكالة الأنباء السعودية (واس).

مالية رائدة تعنى بالتخصصات المالية النادرة وتقدم دورات تدريبية للعاملين في القطاعات المالية المختلفة تعزيزا لمهاراتهم وتطويرا لقدراتهم، كما يهدف مركز الملك عبدالله المالي إلى تجميع المؤسسات العاملة في القطاع المالي في صعيد واحد ضمانا لمناخ اقتصادي واستثماري فاعل ومناسب[١].

وعلى المستوى العملي فقد بدأ مركز الملك عبدالله المالي يستقبل الشركات المالية والمصارف العالمية والمحلية من خلال توقيع الاتفاقيات، حيث يتوقع أن تنتقل إلى المركز المقارُّ الرئيسة لعدد غير محدود من الشركات المالية الكبيرة سواء المحلية أو العالمية؛ مما سيوفر بيئة عمل ممتازة، وإذكاء روح تنافسية حادة لدى الدول المجاورة؛ لاجتذاب مؤسسات مالية عالمية، وهذا كله سيؤدي إلى مزيد من التنمية في دول الخليج.

ج. المدن الاقتصادية

تبدو فكرة المدن الاقتصادية الشاملة جديدة على مستوى دول الشرق الأوسط، ولذا كانت مبادرة الملك عبدالله بإنشاء مدن اقتصادية في المملكة خطوة مهمة ولافتة في سياق التنمية الاقتصادية، واستمرارا للنهج الذي اختطه في دعم الاقتصاد الوطني، إذ تندرج هذه الفكرة ضمن مسيرة الإصلاح الاقتصادي التي تبناها الملك منذ أن ترأس المجلس الاقتصادي الأعلى؛ فهذه المدن تحقق كثيرا من أهداف التنمية الاقتصادية من حيث توفيرها مناخات مناسبة وخلاقة لتحقيق تنمية اقتصادية كبيرة، تتمثل في جذب الاستثمارات الخارجية، وتوطين رأس المال المحلي، ودفع عجلة الاقتصاد الوطني بمقاييس ومواصفات عالمية.

إن استحداث المدن الاقتصادية في المملكة العربية السعودية يؤدي إلى استقطاب الشركات العالمية في مختلف القطاعات والتخصصات، مما سيسهم إسهاما فاعلا ومباشرا في نقل المعرفة والتقنية من هذه الشركات إلى الاقتصاد الوطني، وخاصة القطاع الخاص الذي سيتماس بشكل مباشر مع تلك الشركات؛ نظرا لوجودهما في مدينة اقتصادية واحدة، وهذا سيعود بالنفع العميم على الاقتصاد الوطني، وسيرفع من تنافسية المملكة إقليميا وعالميا.

لقد كان إطلاق المدن الاقتصادية في المملكة تجسيدا حقيقيا لرؤية الملك عبدالله في تفعيل دور القطاع الخاص وجذب الاستثمار الخارجي، ليسهم في تحقيق الأهداف التنموية للمملكة. ويبدو وعي الملك بهذا الأمر

(١) خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز: الرؤية الشاملة لإدارة التنمية (الرياض: معهد الإدارة العامة، الرياض، ط١، ٢٠٠٩م) ٢٤٨.

جليا إذ يصرح به دائما حين يكون السياق اقتصاديا وتنمويا، ومن ذلك قوله في إحدى القمم الاقتصادية العالمية: «نحن نعرف أن رأس المال جبان، ولكنني أؤكد أن ما يوضع في السعودية مضمون، والعائد الاقتصادي مجزٍ أكثر مما لو وضع هذا المال وديعة».[١]

وهذا كلام يعكس وعياً وحرصاً على تنمية الاستثمار داخل الوطن، ومن هنا تشكلت فكرة المدن الاقتصادية الممولة بالكامل من القطاع الخاص، ولن تتحمل الدولة أي عبء مادي من أجلها، باستثناء التسهيلات اللوجستية التي ستقدمها، ومن المتوقع أن توفر مدينة الملك عبدالله الاقتصادية وحدها – وهي واحدة من أربع مدن صدرت الموافقة الرسمية عليها- زهاء نصف مليون وظيفة للشباب السعودي، وهذا يعني تلاشي أي مظهر من مظاهر البطالة في المجتمع.

المدن الاقتصادية الثلاث الأخرى التي صدرت الموافقة على إنشائها إلى جانب مدينة الملك عبدالله الاقتصادية على البحر الأحمر وهي الأكبر بين تلك المدن، هي: مدينة الأمير عبدالعزيز بن مساعد الاقتصادية في حائل (شمال المملكة)، ومدينة المعرفة الاقتصادية في المدينة المنورة (غرب المملكة)، ومدينة جازان الاقتصادية (جنوب المملكة).

د. الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية

ظل الملك عبدالله مهموما بتنمية الاقتصاد الوطني، وباحثا في سبيل ذلك عن شتى الوسائل الملائمة التي تؤدي إلى ذلك، وكان واعيا وخبيرا بأهمية الانتماء إلى الاقتصاد العالمي مدركاً أعمق الإدراك بأن الاقتصاد الوطني جزء منه، ولذا كان سعيه حثيثا إلى اللحاق بركب النظام العالمي والاندماج في مؤسساته ومنظماته، وفي هذا السياق بذل الملك جهودا كبيرة كي تكون المملكة العربية السعودية عضوا في منظمة التجارة العالمية، وقاد في سبيل ذلك مفاوضات ومفاهمات على مستوى كبير، وقد أُنجز ذلك بالفعل حيث وقِّعت اتفاقية الانضمام في ١٤٢٦/١٠/٩هـ (١١ نوفمبر ٢٠٠٥م)، لتكون المملكة عضوا رئيسا في المنظمة [٢]، ويعد هذا التوقيع مصادقة رسمية من المملكة بقبولها شروط الانضمام إلى المنظمة.

لقد كان للملك عبدالله دور كبير وملموس في انضمام المملكة إلى هذه المنظمة العالمية، حيث سعى بشكل مباشر إلى هذا الأمر أثناء لقائه - حين كان وليا للعهد - بالرئيس الأمريكي جورج بوش في العام ١٤٢٦هـ

(١) وكالة الأنباء السعودية (واس).

(٢) خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز: الرؤية الشاملة لإدارة التنمية: ٢٤٥.

(٢٠٠٥م)، وأشرف على مسيرة مفاوضات شاقة استمرت اثني عشر عاما، مذللا في سبيل ذلك ما طرأ عليها من عقبات ومعوقات.

إن انضمام المملكة إلى منظمة التجارة العالمية يمثل منجزا اقتصاديا مهما في سياق النهضة التنموية الاقتصادية، وثمة آثار وثمار متعددة ستجنيها المملكة في القريب المنظور جراء هذا الانضمام، كالانتعاش المتوقع في الاقتصاد الوطني، وزيادة معدلات النمو، وتحرير التجارة، والارتفاع المنتظر في معدلات الطلب على السلع والخدمات، وزيادة فرص نفاذ السلع والخدمات المحلية إلى أسواق الدول الأخرى؛ نظرا لإلغاء الرسوم أو تخفيضها، وتسريع إجراءات الاستيراد من الدول المصدرة، وعدم إخضاع المنتجات المحلية المصدرة إلى الدول المستوردة لأي ضرائب غير الرسوم الجمركية.[١]

هـ. إقرار الإستراتيجية الصناعية الشاملة

كان لابد – والدولة تتجه لانفتاح اقتصادي كبير– من رسم خطة واضحة الملامح لتنمية القطاع الصناعي بوصفه أهم داعم للاقتصاد الوطني، خاصة مع انضمام المملكة إلى منظمة التجارة العالمية، وما يترتب على هذا الانضمام من تبعات. بناء على هذا جاء قرار مجلس الوزراء في ١٤٣٠/٢/٧هـ (٢٠٠٩/٢/٢م) بالموافقة على الإستراتيجية الوطنية الصناعية وآليات التنفيذ الخاصة بها، مما يعكس بوضوح اهتمام الملك عبدالله ووعيه بأهمية دعم القطاع الصناعي الوطني مع الأخذ بالاعتبار للمتغيرات العالمية الجديدة التي طرأت على العالم، والاستجابة لمتطلبات اقتصاد المملكة العربية السعودية في تعظيم القيمة المضافة لصناعات الطاقة والبتروكميائيات، وفي التنويع والمنافسة وعدم الاعتماد على مصدر دخل واحد، وبحثا عن زيادة في معدلات النمو واستدامتها، وتوفيرا لأكبر قدر ممكن من فرص العمل والتوظيف وتوازن التنمية بين مناطق المملكة المختلفة.[٢]

إن في تبني الإستراتيجية الوطنية للصناعة التي تبناها الملك عبدالله رؤيةً وطنية للدور المحوري لقطاع الصناعة في النمو والتنمية، وفي ترسيخ استدامة الثروات الطبعية في المملكة عن طريق تنظيم عائداتها الصناعية، واستثمارها لتوطين الخبرات البشرية المنتجة ولتنويع الاقتصاد وصولا لمنتج صناعي منافس، واقتصاد قائم على المعرفة؛ حيث تتركز الأهداف الرئيسة لتنمية القطاع الصناعي على نواحٍ متعددة، منها تعزيز القاعدة الصناعية وتعزيز الكفاءات التقنية والإنتاجية والقدرات التنافسية وتطوير البنية الأساسية وتوفير خدمات

(١) منجزات التنمية في المملكة: ٥١١ .

(٢) التقرير السنوي لوزارة التجارة والصناعة ١٤٣٠/١٤٣١هـ .

مساندة للصناعة وتوسعة نطاق مشاركة القطاع الخاص ودعم المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ودعم الصادرات الوطنية غير البترولية وتشجيعها وتطوير مهارات الكفاءات الوطنية العاملة في القطاع الصناعي.[1]

إن الملك عبدالله يسعى بتبنيه لهذه الإستراتيجية إلى إيصال المملكة إلى مركز قيادي في المجال الصناعي على مستوى الشرق الأوسط بحيث يُنجز ذلك من خلال الاستثمار في تحسين أساسيات القطاع الصناعي ومؤسساته وجذب الاستثمارات الصناعية المحلية والأجنبية والمشتركة إلى المملكة.

و. الإستراتيجية الوطنية للإنماء الاجتماعي

لم تكن المبادرة التاريخية التي قام بها الملك عبدالله – وكان يومها وليا للعهد- في مساء اليوم الخامس عشر من رمضان في العام ١٤٢٣هـ (٢٠ نوفمبر٢٠٠٢م)، حين زار –دون إعداد مسبق- عددا من الأحياء الفقيرة في العاصمة السعودية الرياض، لم تكن هذه البادرة دعاية سياسية، أو مجرد استعراض إعلامي، ولكنها كانت – مع ما تحمله من أبعاد إنسانية – الخطوة الأولى نحو وضع خطة إستراتيجية لمكافحة الفقر والقضاء عليه في المملكة، وهو الأمر الذي ظل الملك مهموما به منذ أن كان وليا للعهد، واتخذ في سبيل ذلك العديد من الخطوات والإجراءات التي تسهم في القضاء على الفقر داخل الوطن، ولعل أبرز هذه الخطوات القرار الذي اتخذه الملك بعد تلك الزيارة مباشرة بوضع إستراتيجية وطنية شاملة لمعالجة الفقر، تهدف إلى الاهتمام بالفئات الاجتماعية الفقيرة، والحد من الفقر في المجتمع السعودي، وتقليص آثاره الاقتصادية والاجتماعية على المجتمع، ومحاولة حصر الفقراء في المملكة، وتوفير ما يمكن أن يضمن لهم الحياة الكريمة وبالذات فيما يخص العمل والإسكان.

تلك البادرة التاريخية غير المسبوقة أدت إلى التفاتة مهمة من الملك تجسدت في الإستراتيجية المشار إليها. فقد أقر مجلس الوزراء في ذلك العام ما سمي حينها «الإستراتيجية الوطنية لمكافحة الفقر» التي عدلت لتصير «الإستراتيجية الوطنية للإنماء الاجتماعي»، وهي تنص على إتاحة الفرصة للفقراء لتعزيز قدراتهم المادية من خلال توفير التعليم والتوظيف الملائمين لهم، وتأمين الخدمة الصحية المناسبة لهم، ودعم منتجاتهم ومنجزاتهم مهما كانت، وزيادة الحماية الاجتماعية لهم ومساعدتهم على تحمل الكوارث ومواجهتها، وتوسيع مظلة الضمان الاجتماعي لهم، ومدهم بالإعانات المالية والعينية في كل وقت وتحت أي ظرف.

كما أقر الملك عبدالله في سبيل مكافحته للفقر مشروعا إنسانيا نبيلا هو صندوق معالجة الفقر، وقد

(١) التقرير السنوي لوزارة التجارة والصناعة ١٤٣٠/١٤٣١هـ.

أسهمت الدولة بجزء من رأس ماله، ودعت القطاع الخاص والأفراد إلى دعمه والإسهام فيه تحقيقا للتكافل الاجتماعي، ويهدف الصندوق إلى توفير فرص وظيفية مناسبة للفقراء، وتقديم قروض ميسرة لهم لإنشاء مشروعات صغيرة تتلاءم مع ظروفهم وتضمن لهم حياة كريمة.

كما أقر الملك عبدالله برنامجا جديدا للدعم التكميلي تقوم فكرته على سد الفجوة بين الدخل الفعلي للأسر والأفراد الفقراء فقرا مدقعا والدخل المفترض لهم، وذلك بحسب دراسات خطوط الفقر المتحركة المعتمدة رسميا في المملكة، وتبلغ قيمة الدعم في هذا البرنامج أكثر من ربع مليار ريال سنويا.

وفي خطوة أخرى أصدر الملك أوامره بزيادة الحد الأعلى لمخصصات الضمان الاجتماعي للأسر المستحقة من (١٦٢٠٠) ريال إلى (٢٨٠٠٠) ريال في السنة الواحدة، وتخصيص مبلغ ثمانية مليارات ريال للإسكان الشعبي المخصص للفقراء في المملكة، وفي السياق ذاته أعلن الملك عن إنشاء مؤسسة الملك عبدالله لوالديه للإسكان التنموي لتعمل على تأمين مساكن للفئات الأكثر حاجة في المجتمع السعودي وهو ما ترجمه الملك عمليا منذ اللحظة الأولى لإطلاق هذه المؤسسة الخيرية؛ حيث تبرع بأرض يملكها تقترب مساحتها من خمسة ملايين متر مربع، وتقدر قيمتها بملياري ريال لاستثمارها في دعم المؤسسة الخيرية وأنشطتها علما بأن أعمال هذه المؤسسة لا تتوقف عند تأمين السكن المناسب للفقير ولكن تتجاوز ذلك إلى تقديم العديد من البرامج التنموية له كالتدريب وتطوير القدرات والمهارات لتحويل حياة المستفيدين إلى الحياة المنتجة القادرة على الإسهام بإيجابية في تنمية مجتمعهم.

إن إيمان الملك عبدالله بمبدأ العدالة الاجتماعية، وانتماءه الصادق لمجتمعه، وإحساسه بالمسؤولية تجاه كل فرد من أفراد هذا المجتمع زرع في وجدانه هذا الشعور النبيل تجاه الفقراء من بني وطنه، وحثه على معالجة مشكلاتهم الإنسانية بقرارات حكيمة ونبيلة تعكس وعيه ومسؤوليته.

ثالثا: التنمية الاجتماعية والإدارية

المتأمل في سياسة الملك عبدالله بن عبدالعزيز يلحظ أن إيمانه بحق المجتمع في عيش حياة كريمة وعزيزة يمثل رأس تلك السياسة وأولوية طالما صدرها أقوالَه وصدقتها أفعالُه، ومن هنا كان استمرار الرؤى والتصورات المثالية نحو مجتمع آمن ومرفّه في السعودية في التحول إلى واقع ملموس وبوتيرة أعلى وعلى أساس أكثر متانة وتطوراً.

لقد عمل الملك منذ توليه الملك على تذليل كل ما يعوق التطور أو يؤخر مسيرة التنمية، وسعى سعيا حثيثا لتحقيق الرفاهية الاجتماعية للمواطن، ودعم هذا التوجه بكل ما يستطيع من إمكانات الوطن وموارده المتاحة حيث تعددت الأوامر السامية، والقرارات الإدارية لتكون دليلا وشاهدا على هذا التوجه النبيل، ونهجا قويما تسلكه المملكة في وضع الخطط التي تسهم إسهاما فاعلا ومباشرا في إنجاح مسيرة التنمية الشاملة التي تعيشها البلاد.

إن التنمية الاجتماعية مهمة شاقة جدا، وتحتاج إلى رجال يبذلون دون حدود وهو ما كان عليه الملك الذي قال لشعبه ذات لقاء:

«لا شيء مستحيل، و لا شيء يغلى عليكم، بإمكانكم أن تخبروني بكل ما تحتاجون إليه...».[١]

ولم تكن هذه الكلمات دعاية سياسية أو انتخابية، فهو ليس بحاجة إلى الدعايات، لكنها كانت شعورا نبيلا بالمسؤولية الاجتماعية التي يشعر بها الملك تجاه أبناء شعبه، وهو الأمر الذي ترجمه إلى أفعال تنموية كانت شاهدا ومصداقا لكلمته تلك، وقد تقدم في مبحث (التعليم) شيء منها، وسنحاول في هذا المبحث أن نسرد بعض منجزاته التنموية الاجتماعية والإدارية موثقة بلغة الأرقام والحقائق القاطعة.

أ. القطاع الصحي

شهد القطاع الصحي في المملكة لعربية السعودية تطورا غير مسبوق في عهد الملك عبدالله، إذ انصب اهتمامه بتحسين الخدمات الصحية وتوسيعها، وشهدت سنواته الخمس التي ولي فيها الملك مرحلة استثنائية في تاريخ الدولة من حيث التحسينات والتطورات التي شهدها قطاع الخدمة الصحية، وقد قال كلمة أثيرة في هذا السياق نصها: «عندما يتعلق الأمر بصحة الناس فلا يوجد شيء غالي الثمن»،[٢] وهي كلمة تعكس وعي الملك وحرصه على شعبه.

ولعل أبرز ما يمكن أن نبدأ به هنا هو الحديث عن النظامين اللذين صدرا بتأييد الملك، وهما يختصان بنظام الرعاية الصحية؛ حيث صدر النظام الصحي السعودي الذي انبثق عنه مجلس الخدمات الصحية، كما

(١) خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز: الرؤية الشاملة لإدارة التنمية:١٩٤ .

(٢) خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز: الرؤية الشاملة لإدارة التنمية: ٣١١ .

الملك عبدالله يقوم بزيارة التوأم السيامي والمرضى في مدينة الملك عبدالعزيز الطبية – ١٤٢٨هـ

صدر نظام التأمين الصحي التعاوني،[١] وهي جميعها أنظمة جديدة تكفل خدمات صحية عالية المستوى والجودة للمواطن والمقيم في المملكة، وتحدد بوضوح مدى الأحقية المطلقة لهما بالعلاج في أي مرفق صحي داخل المملكة دون قيود أو شروط.

وفي سياق المنشآت الطبية الكبرى فيحسب للملك عبدالله إصداره لأمر تاريخي بتشغيل مدينة الملك فهد الطبية في مدينة الرياض في العام ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م)، وهي مدينة طبية ضخمة تعد من أكبر المدن الطبية على مستوى الشرق الأوسط وتحتوي على عدد من المستشفيات التخصصية، وكلية للطب، وقد بلغت كلفة إنشائها أكثر من ملياري ريال سعودي،[٢] وتبلغ طاقة مستشفياتها أكثر من (١٤٥٠) سريرا، وقد بقيت منشأة دون تشغيل أكثر من خمسة عشر عاما، وسرعان ما أمر الملك – وكان يومها وليا للعهد – بافتتاحها وتشغيل كافة مستشفياتها متعهدا بتوفير التمويل اللازم لذلك، وتحقق له ما أراد حيث أصبحت المدينة اليوم موئلا صحيا لسكان العاصمة وما جاورها ومعلما طبيا مهما على مستوى الشرق الأوسط.

---

(١) منجزات التنمية: ٦١٣ .

(٢) التقرير المالي لوزارة الصحة خلال العام ١٤١٧-١٤١٨هـ .

وإضافة إلى مدينة الملك فهد الطبية فقد أنشئت وافتتحت مستشفيات تخصصية متعددة في أرجاء المملكة، كمستشفى الملك فهد التخصصي بالدمام، ومستشفى الملك فهد التخصصي بالقصيم، ومستشفى حائل التخصصي (شمال المملكة)، وغيرها من المرافق الصحية المتطورة التي رصد لها أكثر من عشرة مليارات ريال.[١]

وعلى مستوى الأبحاث الطبية والتطبيقية في العلوم الصحية فيحسب للملك توجيهه بإنشاء مركز عالمي متخصص في الأبحاث الطبية يحمل اسمه ليكون مرجعا دوليا للبحوث الطبية التطبيقية في علوم الصحة، وقد استجلب له عدد من الخبراء والفرق الطبية المتخصصة من أرجاء العالم، وأتاح الفرصة للأطباء السعوديين المتميزين ليتأهلوا ويفيدوا من خبرات المركز، وقد رسم الملك أهدافا إستراتيجية لهذا المركز العملاق كان أبرزها توفير المناخ الاقتصادي والنظامي الملائم لتحويل نتائج البحوث الطبية إلى منتجات ذات مردود اقتصادي على الناتج الوطني ومساندة وتطوير البحوث الصحية والطبية عالية الجودة مع التركيز على البحوث التطبيقية، وتقديم استشارات متعلقة بالبحوث الطبية للمنظمات الصحية الحكومية وغير الحكومية.

وفي سياق المرافق الطبية أيضا تبنى الملك مشروعا طموحا لإنشاء (٢٠٠٠) مركز صحي متطور في سائر مناطق المملكة ومحافظاتها، ويمثل هذا المشروع نقلة نوعية متطورة في مجال تقديم الرعاية الصحية للمواطنين والمقيمين على حد سواء، ويضع المشروع المملكة العربية السعودية في مصاف الدول المتقدمة من حيث الإنفاق على الصحة ومرافقها وسيؤدي إلى تقديم خدمات صحية أكثر تطورا ووقاية وعلاجا وتأهيلا عن ذي قبل وقد تم بالفعل إنشاء وتجهيز أكثر من (١٣٠٠) مركز صحي بتكلفة تجاوزت خمسة مليارات ريال[٢].

وتعد عمليات فصل التوائم التي تبوأت فيها المملكة منزلة طبية عالية من الشواهد ذات الدلالة المزدوجة، فهي تعكس ما وصلت إليه المملكة في عهد الملك عبدالله بن عبدالعزيز من تقدم وتطور في المجال الصحي والطبي والكفاءة العالية التي اتصفت بها مراكزها الطبية، وتؤكد في الوقت نفسه على نبل الملك وإنسانيته التي لا يحدها جنس أو لون أو عرق أو لغة أو دين، حيث كانت عمليات فصل التوائم - وقد تجاوزت خمسا وعشرين عملية - تجرى على نفقته الخاصة وبمتابعته الشخصية، سواء إبان ولايته للعهد أو بعد توليه الملك، وقد أجريت العمليات لأطفال من شتى بقاع العالم، وكان الملك يحرص على زيارتهم وتفقد حالتهم الصحية دائما.

---

(١) هناك ثمانية وعشرون مستشفى تم تشغيلها في السنوات الخمس الماضية، وعشرة مستشفيات تخصصية قيد الإنشاء، إضافة إلى سبعة مستشفيات للصحة النفسية موزعة على مناطق المملكة المختلفة، وأربعة مستشفيات لمعالجة الإدمان . انظر مجلة اتجاهات، ع ١٣١، سبتمبر ٢٠١٠م.

(٢) منجزات التنمية: ٦١٩-٦٢٠ .

رابعاً: تنمية التعليم والاستثمار في الإنسان

أيقن الملك عبدالله بن عبدالعزيز أن الاستثمار الأجدى والأبقى يجب أن يكون في الإنسان الذي يمثل نواة المجتمع وركيزته، فبه تنهض مسيرة الحياة، وهو صانع الحضارة ورائد النهضة في المجتمعات المتحضرة، ومن هنا صرف الملك اهتمامه وجهده وموارد وطنه لبناء الفرد السعودي وتأهيله تأهيلا عاليا يمكنه من الإبداع والابتكار؛ ليحقق به ومعه منجزات التنمية التي رسم معالمها مبكرا.

راهن الملك منذ أن كان رئيساً للحرس الوطني ثم وليا للعهد على التعليم بوصفه الوسيلة الوحيدة التي تضمن تكوين القدرات البشرية بناءً وصقلاً وإنتاجاً في جميع جوانبها العلمية والعملية والسلوكية انطلاقا من كون الإنسان هو هدف التنمية وجوهر أدائها الرئيس ومحور مخططاتها، وهو - قبل ذلك - صانع التنمية ومحركها ومن هنا كانت كلماته دائما ما تشرع أفق التعليم رهانا لمستقبل الأجيال القادمة، ومن هذا قوله في افتتاح إحدى الجامعات السعودية الجديدة: «إننا نؤمن أن أبناءنا وبناتنا هم عدة الغد وذخيرة المستقبل، وكل استثمار في تعليمهم هو ضمان لرفاه الأجيال القادمة».[1]

لم يكن اهتمام الملك بالتعليم مجرد شعارات وأقوال، ولكنه كان تطبيقا وممارسة ملموسة على مستوى الواقع، وفي الصفحات القادمة رصد لبعض من أهم المنجزات والمبادرات التعليمية التي تبناها الملك ودعمها، ليتضح في السياق ذاته مستوى الوعي والحرص الذي كان عليه الملك عبدالله في قراراته الداعمة للتعليم، وفي مبادراته التي غيرت الكثير في مسيرة التعليم - العالي والعام - في المملكة.

أ. مشروع الملك عبدالله لتطوير التعليم العام

تبنى الملك عبدالله مشروعا نوعيا مميزا ارتبط باسمه وهو تخطيط طموح للارتقاء بالتعليم العام في المملكة العربية السعودية بوصفه الخطوة الأولى والأهم في مسيرة التعليم، وقد جاءت هذه المبادرة من لدن الملك شخصيا، ووافق على رصد ميزانية تتجاوز تسعة آلاف مليون ريال على مدى ست سنوات ابتداء من تاريخ إقرار المشروع منتصف العام ١٤٢٨هـ (٢٠٠٧م).[2]

ويهدف هذا المشروع إلى النهوض بالتعليم العام بشكل شامل يستوي في ذلك مستوى التعليم، وطريقة

---

١) وكالة الأنباء السعودية (واس) .

٢) الموقع الشبكي لوزارة التربية والتعليم.

الملك عبدالله يرعى حفل افتتاح المدينة الجامعية لجامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن ويظهر في الصورة معالي وزير المالية السابق إبراهيم العساف و معالي وزير التعليم العالي الأسبق خالد بن محمد العنقري - ١٤٣٢هـ

أدائه، وتطوير تقنياته، والرقي ببيئاته، وتعزيز سياقاته المصاحبة وكل ما من شأنه النهوض بالأداء التعليمي، وتطوير مستوى المخرجات ومهاراتها.

وقد قُسِّم المشروع إلى أربعة برامج رئيسة تسعى إلى تحقيق جملة من الأهداف على مراحل محددة ومدروسة، فالبرنامج الأول يتمثل في تطوير المنهج التعليمي بوصفه مرتكز العملية التعليمية وأساسها الأهم، والثاني خاص بإعادة تأهيل المعلم والمعلمة وتطوير قدراتهما التوصيلية، وينصرف البرنامج الثالث إلى البيئة التعليمية ساعيا في تحسينها وتطويرها وجعلها مناخا مناسبا للعلمية التعليمية، أما البرنامج الرابع فيسعى إلى تعزيز الأنشطة غير المنهجية داخل المؤسسة التعليمية وخارجها؛ بحثا عن مخرجات قادرة على التواؤم مع المجتمع.[١] وهذه البرامج تبدو من طبيعتها شاملة وعامة، وتحقيقها بشكل ممنهج ومثالي يضمن نجاحا للعملية التعليمية، وتوازنا في شخصية المتعلم، ويخلق بيئة تعليمية وتربوية متطورة وعالية الجودة.

وقد وافق الملك عبدالله على الترخيص لشركة متخصصة في تطوير التعليم؛ لتكون الذراع الأساس

١) بوابة تطوير التعليمية على الشبكة، وكتاب منجزات التنمية في المملكة:٥٣٨ .

لتنفيذ برامج المشروع والأداة الفاعلة للبدء في تخصيص العديد من الجوانب المساندة والخدمية والإنشائية في التعليم، كما ستسهم في توطين الخبرة واستثمارها، وستضمن الشركة استمرار عملية التطوير بعد انتهاء الفترة المحددة للمشروع علما بأن هذه الشركة حكومية مساهمة يملكها صندوق الاستثمارات العامة في المملكة العربية السعودية.[١]

ولم يقف الأمر عند هذا المشروع الكبير والعام، بل تجاوزه إلى مشروعات أخرى لتطوير التعليم العام بشكل خاص ومحدد، ومن ذلك مشروع تطوير مناهج الرياضيات والعلوم الطبعية لجميع المراحل الدراسية الذي صدرت الموافقة السامية عليه في العام ١٤٢٥هـ، والعام ١٤٢٧هـ (٢٠٠٤/٢٠٠٦م)،[٢] منطلقا من رؤية علمية عالمية حيث يهتم المشروع بتعريب سلاسل عالمية منشورة وحديثة وواسعة الاستعمال ومبنية على معايير عالمية في الرياضيات والعلوم لمراحل التعليم العام جميعها بهدف تطوير قدرات الطلاب وصقل مهاراتهم وتنمية إبداعاتهم وصولا إلى فهم عميق للمادة العلمية وبناء مفاهيم جديدة في حل المشكلات العلمية، بالإضافة إلى استثمار التقنية وفق أحدث المعايير العالمية لتلبية احتياجات سوق العمل المتطور، وتحقيق النجاح في سباق التنافسية العالمي بالشكل الذي لا يتنافى وقيم المجتمع.

كما تبنى الملك عبدالله مشروع إدخال مقرر اللغة الإنجليزية ضمن منهج المرحلة الابتدائية[٣] بوصفها لغة العصر والاقتصاد، وقد صادق مجلس الوزراء السعودي على هذا ونص على أن تُدرّس المادة في الصف السادس من المرحلة الابتدائية للبنين والبنات كمادة أساسية، وشدد القرار على أن يتصدى لتدريسها المعلمون الأكفاء المتخصصون في اللغة الإنجليزية، كما أكد القرار على ضرورة تطوير مناهج هذه اللغة في المرحلتين المتوسطة والثانوية.

ب- التعليم العالي والجامعات السعودية

يمثل التعليم العالي الواجهة الحضارية الأهم والأخطر لأي مجتمع، وهو حلقة مهمة جدا ضمن حلقات التعليم، فهو المناط به تأهيل أبناء المجتمع للتميز في ميادين العمل والإنتاجية، وكفاءة مخرجاته تعني بالضرورة كفاءة عالية وجودة مميزة للمنتج المحلي أيا كان نوعه، ولهذا أولى الملك عبدالله التعليم العالي في المملكة عنايته

١) بوابة تطوير التعليمية على الشبكة، وكتاب منجزات التنمية في المملكة:٥٤١.

٢) منجزات التنمية في المملكة: ٥٤٢.

٣) في العام الدراسي ١٤٢٥-١٤٢٥هـ .

الملك عبدالله يرعى حفل افتتاح جامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية في ثول ويظهر في الصورة معالي المهندس علي النعيمي ومعالي المهندس خالد الفالح - ١٤٣٠هـ

الخاصة، ومنحه أولوية مطلقة في دائرة اهتماماته منذ أن كان وليا للعهد، ويظهر هذا جليا في قوله: «ليست الجامعة مؤسسة عادية من مؤسسات المجتمع، بل كنز المعارف الذي ينتقل من جيل إلى جيل، وهي المكتبة التي تضم الذخائر من كل زمان، وبكل لسان، وهي المختبر الذي ينطلق منه إبداع المعلم، والربوع التي يقضي فيها الشاب أجمل سنوات عمره، وأغناها بالتجارب والصداقات».[١]

وهذا الكلام يعكس وعي الملك بأهمية الجامعة بوصفها المؤسسة التعليمية والثقافية الأكثر خطورة والأعظم أثرا، ولذا ليس غريبا أن يتطور التعليم العالي في عهده تطورا ملحوظا، وأن يرتاد آفاقا بعيدة من التميز والتقدم، ولغة الأرقام تؤكد تغير وجه التعليم العالي في المملكة خلال السنوات القليلة الماضية، ويكفي أن نعلم أن عدد الجامعات السعودية لم يكن يتجاوز ثمان جامعات حكومية في مبتدأ العام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م)، بيد أنه تضاعف أربع مرات خلال أقل من سبع سنوات ليصل إلى خمس وعشرين جامعة،[٢] إلى جانب جامعة إلكترونية صدرت الموافقة عليها عام ١٤٣٢هـ (٢٠١٠م)، وعدد كبير من الجامعات والكليات الأهلية جلّها افتُتح في عهد الملك عبدالله وبرعايته وحضوره شخصيا، وقد وافق رحمه الله على طلب مجلس التعليم العالي بإنشاء ثلاث

(١) خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز: الرؤية الشاملة لإدارة التنمية: ١٧٢.

(٢) موقع وزارة التعليم http://www.mohe.gov.sa/ar/studyinside/Government-Universities/Pages/default.aspx

جامعات في حفر الباطن ورفحاء وشمال جدة.[١] ولا شك في أن هذه النقلة الكبيرة في عدد الجامعات تدل على عناية الملك غير المحدودة بالتعليم العالي وإيمانه بأهميته.

وإذا تأملنا نصيب الجامعات السعودية في الموازنة العامة للدولة سيظهر لنا مدى التغيير الكبير الذي طرأ في السنوات الخمس الأخيرة، حيث استأثرت الجامعات بنصيب عالٍ جدا، كما اهتم الملك كثيراً بضرورة تزويد الجامعات بكل ما يطرأ من تطورات واستجدادات علمية ومعرفية وتقنية، وهذا يعكس وعيه بأهمية الجامعة في تنمية القوى البشرية تعليما وإعدادا وبحثا.

ولم يقف الأمر عند الجامعات الحكومية، بل شجع الملك على إنشاء الجامعات الأهلية بوصف التعليم العالي الأهلي يمثل شريكا مهما في عملية التعليم، ورافدا نوعيا لنظيره الحكومي، وقد شهد عهد الملك عبدالله ابن عبدالعزيز بداية الدراسة في عدد من الجامعات الأهلية والكليات المتخصصة، كجامعة الأمير محمد بن فهد في مدينة الخبر (شرق المملكة) وجامعة الفيصل في العاصمة الرياض (وسط المملكة) علما بأن الدولة تمنح هذه الجامعات قروضا ميسرة وتؤجرها الأراضي الحكومية بأسعار رمزية تشجيعا ودعما لها في مسيرتها لإكمال منظومة التعليم العالي في المملكة.[٢]

وتجدر الإشارة إلى أن التطور الحاصل في التعليم العالي بالمملكة لم يقتصر على عدد الجامعات والكليات سواء الحكومية أو الأهلية، وإنما في المستوى العلمي الرفيع الذي حققته بعض تلك الجامعات على النحو الذي انعكس في ترتيبها في القوائم السنوية التي تصدرها مؤسسات متخصصة في مناطق مختلفة من العالم. فقد حققت جامعة الملك سعود، أقدم الجامعات السعودية، وجامعة الملك فهد للبترول، موقعين متقدمين ضمن أفضل الجامعات في العالم. ففي تقرير مركز ويبوماتركس الأسباني الشهير لشهر يناير/كانون الثاني ٢٠١١م (١٤٣٢هـ) جاء ترتيب جامعة الملك سعود في المرتبة ٢١٢ بين جامعات العالم، وفي المرتبة ٢١ آسيوياً، والأولى على المستويات العربية والإفريقية وفي الشرق الأوسط، في حين احتلت جامعة الملك فهد المرتبة ٥٤٤ على مستوى العالم.[٣]

يضاف إلى ذلك تسابق الجامعات السعودية في استحداث كراسٍ علمية في مختلف التخصصات وفتح الباب لرأس المال السعودي للإسهام في تمويل تلك الكراسي والأبحاث المتعلقة بها وذلك على شكل أوقاف تديرها

---

(١) صرح بذلك الأستاذ خالد التويجري لقناة العربية في جمادى الثانية ١٤٣٥هـ ، أبريل ٢٠١٤م: http://www.alarabiya.net/ar/saudi-

(٢) بلغ عدد الجامعات الأهلية في المملكة حتى عام ٢٠٠٩/٢٠١٠م سبع جامعات ، وتسع عشرة كلية موزعة على مناطق المملكة المختلفة. (إحصاءات التعليم العالي للعام الدراسي ١٤٢٩-١٤٣٠هـ) .

(٣) صحيفة الاقتصادية ع ٦٣٢٤ في ٣ فبراير ٢٠١١م.

الجامعات، ومع أنه كان لجامعة الملك سعود النصيب الأوفر في هذا المضمار فإن جامعات أخرى، مثل جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، التي كانت سباقة في استحداث الكراسي العلمية، وجامعة الإمام محمد بن سعود وغيرهما حققت مكانة مرموقة في الإفادة من هذه التطورات وترسيخها.

ج. جامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية

تعد جامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية من أحدث وأهم المنجزات الحضارية للملك عبدالله بن عبدالعزيز في سياق التعليم الجامعي العالي بالمملكة، وتأتي هذه الجامعة فكرة ومتابعة وتنفيذا منتمية إلى الملك مباشرة، فهو صاحب الفكرة، وقد ظلت ساكنة في ذهنه منذ خمسة وعشرين عاما أشبه بالحلم إلى أن تولى المُلك ونفذها في وقت قياسي، عاكسا وعيه الحضاري بأهمية العلم، وضرورة مواكبة تطور المعرفة والتقنية في العالم.

ذكر الأمير خالد بن عبدالله بن عبدالعزيز أن فكرة الجامعة كانت في ذهن الملك عبدالله في مرحلة مبكرة من عهد الملك فهد رحمه الله، وتمثلت الفكرة في البدء في شكل مركز أبحاث ضخم ومتطور ينشأ في مدينة الطائف لاجتذاب العقول العلمية العربية والإسلامية إلى المملكة، لكن الظروف الاقتصادية في تلك الفترة وما أصاب أسعار النفط من ركود أدى إلى تأجيل الفكرة، لتتبلور فيما بعد في شكلها الحالي، أي في شكل جامعة تجمع العقول المتميزة في مجالات العلوم والتقنية لكن دون أن تقتصر على العرب والمسلمين، وإنما أن تكون ذات توجه عالمي يستقبل طلاب الدراسات العليا فقط إلى جانب الأساتذة والباحثين المتخصصين، بحيث يكون التركيز في الجامعة على مجالات وقضايا حيوية تفيد المملكة.

يقول الملك في يوم افتتاح هذه الجامعة: «لقد كان إنشاء جامعة للعلوم والتقنية والبحث العلمي بمعايير عالمية فكرة تراودني لأكثر من خمس وعشرين سنة، وأحمد الله أن أعاننا اليوم على تحقيقها، حيث ستحظى المملكة وشعبها الكريم بمركز بحوث عالمي مستقل ماديا وإداريا، يعتمد على أسس أكاديمية عالية؛ ليكون قاعدة علمية، ومحركا للاقتصاد الوطني ...».[1]

تعمل جامعة الملك عبدالله بن عبدالعزيز للعلوم والتقنية على تطوير التجارب العلمية مستهدفة تقدم العلم والتكنولوجيا من خلال البحوث الجريئة والتعاونية، وتطمح الجامعة إلى ما هو أبعد حيث تستهدف القادة العلميين والتكنولوجيين لتثقيفهم وإمدادهم بآخر ما توصل إليه العلم الحديث من تطورات تجريبية، كما أن من

(١) من كلمة الملك في افتتاح جامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية في ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٩م . (وكالة الأنباء السعودية واس) .

أهدافها حفز الاقتصاد الوطني السعودي والتصدي للتحديات ذات الأهمية الإقليمية والعالمية، كما تزمع الجامعة مستقبلا إجراء البحوث العلمية التي تؤدي إلى الاكتشافات والاختراعات في المجالات الإستراتيجية.

إن التنمية الاقتصادية المبنية على اقتصاد المعرفة واستثمار العلم بوصفه أساساً للاقتصاد هي الركائز الأساسية لهذه الجامعة الفتية ولذا فإنها تعمل منذ إنشائها على تأسيس مجتمع متكامل للبحوث يعزز الإبداع والابتكار معتمدة في سبيل ذلك على أفضل الممارسات العالمية، كما تدعم الجامعة التحالفات مع المؤسسات الأكاديمية والقطاع الخاص من خلال مكتب نقل التكنولوجيا، وبرامج التعاون الصناعي، وحاضنة الأعمال التجارية، وبرامج تنظيم المشروعات، وشبكة رأس المال الاستثماري ولذا فإن مجتمع الجامعة يشمل مدينة للبحوث داعمة للأعمال الجديدة وموفرة قاعدة للشركات القائمة للاستفادة من خبرة الجامعة في العلوم والهندسة.[١]

تلتزم الجامعة بمبادئ تأسيسية تتلخص في استهدافها إنشاء مجتمع دولي من العلماء الذين يكرسون جهودهم للعلوم المتقدمة، وترحيبها بالرواد في مجالات العلوم والتقنية والتجارة والأعمال من خلال عقد الشراكات والتوأمة، كما تراهن الجامعة على توفير مناخ من الحرية للباحثين عن الإبداع والتجريب، مجسدة أعلى المعايير الدولية للمستوى العلمي في البحوث والتعليم والتعلم مع حرصها الكبير على توفير حرية الحصول على المعلومات وتبادل المعارف والمهارات والخبرات تحقيقا لمفاهيم النمو والازدهار الاقتصادي واحتضانا وحماية لحرية الفكر والنقاش فيما يمسُّ العمل العلمي والتجريب.[٢]

وتسعى الجامعة إلى تحقيق خطتها البحثية من خلال أربعة محاور إستراتيجية ترتكز على مجالات العلوم والتقنية التي تهم المملكة والمنطقة والعالم، وهي تتمثل في الموارد، والطاقة البيئية، والعلوم البيولوجية، والهندسة البيولوجية، وعلم هندسة المواد، والرياضيات التطبيقية، والعلوم الحاسوبية، وعلى ضوء هذه المحاور استحدثت الجامعة عددا من مراكز البحوث المتخصصة، وقررت منح شهاداتها في الدراسات العليا فقط في أحد عشر تخصصا علميا تدور في فلك البرامج السابقة.

لقد حقق الملك عبدالله بن عبدالعزيز حلمه الذي راوده قبل ربع قرن مضى مستعينا - بعد توفيق الله - بعزمه وتصميمه وهمته الطموحة، وجاءت جامعة الملك عبدالله مشروعا رائدا وتنمويا لمستقبل هذا الوطن والعالم، ولتكون في القادم القريب من أفضل مراكز العالم المتميزة في البحث العلمي والابتكار، والإبداع واحتضان الموهوبين من أبناء المملكة ودول المنطقة والعالم بأسره. ومما يذكر في هذا الصدد أن الجامعة قامت على منحة

(١) رؤية الجامعة ورسالتها، حسب ما ورد على موقع الجامعة الشبكي.

(٢) تنظر: مجلة اتجاهات، العدد: ١٣١، سبتمبر ٢٠١٠م .

بلغت عشرة آلاف مليون ريال في شكل وقف يصرف على الجامعة، وبهذا جاءت تلك الجامعة الفتية لتكرس المبدأ المتبع في بعض شقيقاتها من الجامعات السعودية التي سبقت إلى نظام الوقف، وهو النظام المتبع في كبريات الجامعات في العالم المتقدم.

لقد جاء احتضان الموهوبين امتداداً لما حرص الملك عبدالله عليه في سياسة عامة تجلت في المؤسسة التي أنشأها للعناية بهم تحت اسم «مؤسسة الملك عبدالعزيز ورجاله للموهبة والإبداع»، فالفلسفة هي نفسها، غير أن تحققها على المستوى البحثي والتعليمي الجامعي الذي تمثل في جامعة الملك عبدالله جاء تطوراً بقدر ما هو امتداد لتلك الفلسفة أو الاستراتيجية. وهنا نضع أيدينا على مفصل هام وحساس في نظام الجامعة الذي لم يخل من جدل في بعض الأوساط السعودية. ففي نظام الجامعة، وهو نظام تعليم عالٍ، يتاح للجنسين العمل جنباً إلى جنب سواء أكانوا من الأساتذة أم الباحثين أم الطلاب، ولكن في حدود التعليم والعمل فقط، ومع أن الاختلاط ليس بدعاً في الحياة السعودية قديماً وحديثاً، ومع أن كثيراً من مؤسسات القطاع الخاص كالشركات الكبرى والبنوك تتيح للجنسين العمل معاً ضمن الحدود التي تؤكدها الشريعة الإسلامية وتكرسها الأعراف المرعية في المجتمع السعودي، فإن إتاحة الفرصة للجنسين للعمل والتعليم المشترك كان تجربة رائدة وفريدة اعترض عليها بعضهم وأيدها بعضهم الآخر، ثم اتضح بالأدلة الشرعية أنها على غير ما يراه المعترضون، فالإسلام يمنع الخلوة بين المرأة والرجل الأجنبيين ولكنه لا يمنع اختلاطهما، كما يتضح من السنة النبوية المطهرة وتؤكده الحياة العامة سواء في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام أو فيما تلا ذلك من أزمنة. ومن هنا كانت جامعة الملك عبدالله رائدة على المستويين العلمي والتربوي.

من ناحية أخرى جاءت جامعة الملك عبدالله لتعبر عن مسعى علمي رفيع لوضع المملكة والعالمين العربي والإسلامي في المقدمة بين شعوب العالم في مجالات البحث العلمي، كما أنها جاءت وفي الوقت نفسه لتؤكد الطبيعة الأساسية للحياة في المجتمع المسلم كما هي في أرجاء العالم الإسلامي اليوم بإزالة الحواجز المصطنعة التي لا تزيد في أشد الحالات عن أن تكون موضع خلاف لدى بعضهم. كما أن طبيعة الحياة الجامعية في الجامعة تؤكد أهمية منح المرأة دوراً أكثر فاعلية على مستوى التعليم الجامعي بإتاحة الفرصة لها للاستفادة المباشرة من العلماء المختصين سواء أكانوا زملاء لها أم أساتذة. واستفادة المرأة هنا هي جزء من إستراتيجية كبرى اتبعها الملك عبدالله لتمكين المرأة، كما اتضح لنا، سواء في العمل الحكومي أو الثقافي أو التجاري الاستثماري. ولقد امتدت تلك الاستفادة بشكل أكثر وضوحاً ربما حين ننظر للابتعاث الذي أفسح للإناث مساحة كبيرة وغير مسبوقة في تاريخ التعليم الخارجي السعودي.

د. برنامج الملك عبدالله للابتعاث

قاد الملك عبدالله بن عبدالعزيز برنامجا رائعاً وفريدا من نوعه في السياق التعليمي حين أشرع أبواب الابتعاث الخارجي لأبناء الوطن وبناته دون استثناء بعد أن لحظ بعين ثاقبة توقف النمو الرأسي في التعليم العالي وصعوبة حصول الطلاب والطالبات على مقاعد في الجامعات السعودية مع الكثرة الكاثرة للمتخرجين من المرحلة الثانوية في كل عام، إضافة إلى الانفتاح الذي شهده العالم وإيمان الملك بضرورة مواكبة ذلك الانفتاح وعدم التقوقع في الداخل، ومن هنا أطلق مشروع الابتعاث الخارجي الذي ارتبط باسمه، وكان إطلاقه في العام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م)، ومدته المقررة خمس سنوات مُدّدت بعد ذلك لخمس سنوات أخرى وبلغ عدد المبتعثين خلال تلك الفترة ما يقرب من مئة ألف طالب وطالبة ابتعثوا إلى أفضل الجامعات العالمية في مختلف دول العالم لمواصلة دراساتهم في مراحل التعليم العالي التي تبدأ من البكالوريوس مرورا بالماجستير والدكتوراه ومرحلة الزمالة الطبية. وقد أنجز البرنامج وفق خطة مدروسة، حيث تم تحديد التخصصات المطلوبة وأعداد المبتعثين بما يتوافق مع حاجة القطاعات الحكومية والخاصة في المملكة ليؤدي الشاب والشابة السعودية دورهما في التنمية بشكل فاعل وصحيح.

لقد خصصت الدولة للابتعاث الخارجي أكثر من سبعة مليارات ريال،[١] ولم تستثن دولةً يتوقع أن تضيف انفتاحا علميا ومعرفيا للمبتعثين، فمن الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا غربا إلى اليابان والصين و الهند شرقا إلى بعض الدول العربية وغيرها من دول العالم لاسيما العالم المتقدم في مجالات العلم والمعرفة. وقد وضعت للبرنامج ضوابط تؤكد انتظام الطلاب في الدراسة وفي التخصصات المطلوبة بحيث يتحقق الهدف المنشود من ذلك البرنامج الضخم.

لقد كان الملك عبدالله يعي جيدا أهمية الانفتاح على الآخر وضرورة التزود بالعلم والمعرفة في التخصصات التي تتطلبها طبيعة العصر، ويعي أيضا الضغط الشديد الذي يواجه الجامعات السعودية وحاجتها الماسة إلى تخفيف ذلك الضغط ومن هنا أطلق مبادرة الابتعاث مشروعا نوعيا يحقق المواءمة مع سوق العمل. ذلك أن الابتعاث مقصور على تخصصات علمية وتطبيقية متناغمة مع احتياجات التنمية.

إن برنامج الملك عبدالله للابتعاث يمثل مشروع جودة يسهم في توفير الكفاءات المؤهلة ولذا لم يكن غريبا، كما سبقت الإشارة، أن يأمر الملك بتمديد البرنامج لخمس سنوات أخرى ابتداء من العام ١٤٣٢هـ (٢٠١٠م)، حيث انتهت الفترة الأولى.[٢]

---

١) خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز: الرؤية الشاملة لإدارة التنمية:١٩٤ .

(٢) منجزات التنمية: ٥٨٢، و مجلة اتجاهات، العدد: ١٣١، سبتمبر ٢٠١٠م . (عدد خاص بمناسبة مرور خمس سنوات على تولي الملك عبدالله)

ولم يكتف الملك عبدالله بإتاحة الفرصة للطلاب والطالبات بالابتعاث وإكمال الدراسة فقط، بل أمر بزيادة مكافآتهم هناك بمقدار ٥٠٪، كما وافق على ضم أكثر من سبعة آلاف طالب وطالبة من الذين يدرسون في الجامعات الخارجية على حسابهم الخاص إلى المشروع،[١] لتكون دراستهم على حساب الدولة أسوة بزملائهم، وما كانت هذه المبادرات الخلاقة إلا شعورا من الملك بأهمية التعليم وتعزيز الكفاءات الوطنية، وتفعيل دورها الحضاري في خدمة الوطن وبرامج التنمية المختلفة.

هـ. مشروع عبدالله بن عبدالعزيز وأبنائه الطلبة والطالبات للحاسب الآلي (وطني)

مشروع (وطني) مشروع تنموي طموح، ويهدف إلى تزويد كل طالب وطالبة في قطاع التعليم العام بجهاز حاسب يستطيع أن يتعامل معه بإجادة تامة ويستفيد من تطبيقاته المختلفة، وقد أطلق الملك عبدالله هذا المشروع حين كان وليا للعهد في العام ١٤٢١هـ (٢٠٠٠م)، وتبناه من ألفه إلى يائه، وقال عنه:

«إنه مشروع حيوي يخدم الدين والوطن في الحاضر والمستقبل في ظل غزو علوم التقنية والحاسب الآلي والانترنت للعالم بسرعة مذهلة، ويجب ألا نكون في المملكة بمعزل عن مجاراة هذا التطور في علوم العصر حتى نستطيع أن نقف إلى جانب الدول المتقدمة في مجال التقنية والمعلومات».[٢]

لقد تبنى الملك عبدالله خيار تقنية المعلومات؛ لتحقيق الأهداف التنموية وتهيئة الأجيال القادمة لمواجهة تحديات العصر واشتراطاته المعقدة، ومن هنا سعى هذا المشروع الطموح إلى إدخال التقنية إلى جميع مدارس التعليم العام في المملكة وعمل على تزويد الطلاب والطالبات بأجهزة الحاسب الآلي وإكسابهم مهارات استعماله، واستكشاف تطبيقاته المتنوعة في المجالات التعليمية والحياتية المختلفة، ولقد عُدّت تجربة المملكة من خلال هذا المشروع رائدة ومميزة على مستوى الوطن العربي.

خامساً: التنمية الثقافية

حين صدر المرسوم الملكي عام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م) بضم النشاط الثقافي في المملكة إلى وزارة الإعلام ليصير اسم الوزارة بذلك «وزارة الثقافة والإعلام»، كان واضحاً أن الرجل الواقف وراء ذلك القرار هو ذاته

(١) السابق نفسه ، والموقع الشبكي لوزارة التعليم العالي .

(٢) مجلة اتجاهات، العدد: ١٣١، سبتمبر ٢٠١٠م .

الذي وضع الثقافة والنمو الثقافي للمملكة منذ وقت طويل نصب عينيه. إنه ذات الرجل الذي عمل على تأسيس أول مهرجان سعودي يعنى بالتراث والثقافة، والذي حرص على إثراء الحياة الثقافية السعودية بعطاءات مختلفة من داخل المملكة وخارجها. كما أنه المسؤول ذاته الذي آمن بما يعد عصب الحياة الثقافية والإبداع وهو الحرية المسؤولة من خلال الحوار المفتوح والشجاع على مختلف القضايا، وذلك بتأسيسه وفي العام ذاته «مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني»؛ ليكون منبراً للفكر المتولد عن الاختلاف الطبعي بين الأفراد من أهل الثقافة والإبداع.[1]

ما حدث هو أن معظم الاختصاصات الحكومية المتعلقة بالثقافة جمعت في جهاز واحد جُعل جزءاً من وزارة الإعلام لتصبح بذلك وزارة ثقافة أيضاً، ولتعنى من ثم بتنظيم الحياة الثقافية في المملكة وتطويرها بما يخدم المبادئ الأساسية والطموحات الكبرى التي تتمثلها الحكومة والشعب في المملكة وتسعى إلى تحقيقها. وضمن الإطار التنظيمي لهذه الوزارة شكلت وكالتان تختص إحداهما بالشأن الثقافي المحلي والأخرى بالشأن الثقافي الدولي. وكان أن تحقق إثر ذلك العديد من الإنجازات على المستويات التنظيمية والتطويرية كان من نتائجها دفع الحياة الثقافية عبر مؤسساتها وقنواتها القائمة إلى المزيد من العطاء.

كان من أبرز النتائج التي ترتبت على العناية الجديدة بالحياة الثقافية إقامة أحد أكبر معارض الكتب العربية في الرياض، هو معرض الرياض الدولي للكتاب الذي يقام سنوياً برعاية خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله والذي تحول في زمن قياسي إلى أحد أكبر التظاهرات الثقافية العربية سواءً في عدد دور النشر المشاركة أو في الندوات المصاحبة. غير أن العلامة الفارقة للمعرض، كما للحياة الثقافية بشكل عام في عهد الملك عبدالله، هو المساحة المتسعة للحرية الفكرية، تلك المساحة غير معهودة في تاريخ المملكة والتي جعلت فعاليات معرض الكتاب، كما هي الفعاليات الثقافية الأخرى المقامة في مختلف مناطق المملكة، تتسق مع عطاءات مهرجان التراث والثقافة المعروف بمهرجان الجنادرية. لقد شعر المعنيون بالحركة الثقافية والمستفيدون منها بأنهم يستعيدون مرة أخرى ندوات الجنادرية التي بدأها عبدالله بن عبدالعزيز في الحرس الوطني وكأن ما قام به الحرس الوطني في عهد رئيسه عبدالله يمتد شاسعاً الآن ليصير بحجم الوطن. كما أن السجالات والحوارات الفكرية المصاحبة للمعرض أمست مرتبطة بذهن البعض بما تقدمه ندوات الحوار الوطني الثماني سواءً من حيث القضايا المطروحة أو من حيث مساحة الحرية المتاحة أو من حيث نوع المشاركين الذين يمثلون مختلف أطياف المجتمع السعودي والعربي

(١) في كتاب حول "الحوار في فكر خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز" (١٤٣١هـ/٢٠١٠م) توصل الباحث الأستاذ سعيد بن ناصر أبو ملحة إلى أن "الحوار يشكل لدى خادم الحرمين الشريفين قيمة جوهرية، ومرتكزاً عميقاً للتواصل بين الشعوب والأمم، كما يشكل ركناً أساساً لحل كل خلاف ..." (ص٢٨).

المشارك، ومن ذلك الدور الواضح الذي باتت المرأة تؤديه في تفعيل تلك الحوارات وتطويرها وتعميق أثرها.[١] ففي تعليق بعض المثقفين والمشاركين في معرض الرياض الدولي للكتاب لعام ١٤٣٢هـ (٢٠١٠م) رأى أحدهم أن المعـــرض هو «واحـــد من أهم التظاهرات المحلية والعربية»، ورأت إحدى المثقفـات السعـوديات «أن التطور المستمر في معرض الكتاب وضم نساء إلى اللجنة الثقافية فيه يشي بالخطوات الواثقة والمهمة التي تتخذها المثقفة السعودية».[٢]

ولم تقف العطاءات الثقافية في عهد الملك عبدالله عند تلك الحدود بل امتدت لتدعم الثقافة بجوائز للترجمة وللتراث والثقافة بشكل عام، كما أنها تواصلت في شكل دعم لمكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ومكتبة الملك فهد الوطنية، وفي دعم مشروعات رائدة كالفهرس العربي الموحد، وغير ذلك مما يثري الثقافة ليس في المملكة فحسب وإنما في الوطن العربي والعالم الإسلامي كله، بل والعالم أجمع.

سادساً: المواصلات

ضمن اهتمام الملك عبدالله – رحمه الله – بكل ما يخدم الحرمين الشريفين وضيوفهما على مدار العام، وفي اطار تطوير وسائل النقل بين مدن ومناطق المملكة، وما لذلك من انعكاسات اجتماعية وثقافية واقتصادية، جاء العمل على مشروع سكة حديد ضخم هو «مشروع قطار الحرمين السريع» الذي يربط منطقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة مروراً بمدينة جدة بطول ٤٨٠ كيلو متر، وهو مشروع يخدم مطار الملك عبدالعزيز الدولي بجدة. ومن المتوقع أن يخدم القطار السريع ما لا يقل عن ٣ ملايين راكب سنوياً. ويختصر القطار ذو السرعة البالغة ٣٠٠ كم في الساعة المدة الزمنية بين مدينتي مكة المكرمة وجدة إلى أقل من نصف ساعة والمسافة بين مدينتي المدينة المنورة وجدة إلى نحو ساعتين ونصف. ومن المتوقع بناء محطة في مدينة الملك عبدالله الاقتصادية في مرحلة تالية.

---

(١) لحظت الكاتبة الألمانية إريس غلوسماير قدرة الملك عبدالله على حفظ التوازن بشكل دقيق بين الأطراف المتحاورة بحيث لا يشعر أي طرف أو فئة أنها مميزة عن غيرها. تقول: « ابتداء من صيف عام ٢٠٠٣م، قاد ولي العهد عبدالله سلسلة من الحوارات الوطنية؛ الأمر الذي جعله يقود كثير من مبادرات الإصلاح التي كانت على وشك الاصطدام بالعناصر المحافظة في المجتمع، أكد ولي العهد بذلك دوره بوصفه حاكماً يتوسط بين العناصر المتصارعة في المجتمع على نحو دقيق؛ فبدلاً من تفريق الجهات المختلفة، قام بجمعهم». انظر:

Iris Glosemeyer. «The Saudi Political System.» in Paul Aarts et al. eds.. Saudi Arabia in the Balance (London: Hurst & Co.. 2006) p. 226: "Starting in the summer of 2003. Crown Prince Abdullah took the lead in a series of national dialogues. thus putting himself at the head of the various reform initiatives that were about to clash with traditionalist elements of society. The Crown Prince thus fulfilled his role as the ruler who mediates between conflicting elements of society in a rather sophisticated form; instead of keeping the different groups apart he brought them together."

(٢) جريدة «الشرق الأوسط»، الأحد ٥/ ٢/ ١٤٣٢هـ؛ (٢٠١١/١/٩م).

هذه النقلة النوعية في المواصلات تأتي ضمن مشاريع أشمل لتطوير انتقال المسافرين والبضائع في مناطق المملكة كافة، فهناك مشاريع لقطارات تربط شمال المملكة بجنوبها وشرقها بغربها مما من شأنه رفع مستوى الخدمات وتسهيل الحركة وزيادة معدلات الأمان للجميع. ومن المتوقع انتهاء هذه المشروعات في مدد زمنية قصيرة وبعضها أوشك على الانتهاء فعلاً.

في العام ١٤٣٣هـ (٢٠١٣م) أضيف إلى تلك المشروعات العملاقة مشروع يعد الأكبر من نوعه في العالم هو «مشروع الملك عبدالعزيز للنقل العام» المعروف بـ «مترو الرياض». صدرت موافقة مجلس الوزراء على تنفيذ ذلك المشروع في ٢ جمادى الأولى ١٤٣٣هـ (٢٥ مارس ٢٠١٢م) وخصص له ٢٢،٥ مليار دولار ليغطي مدينة الرياض بقطارات وأنفاق وحافلات للركاب بهدف تخفيف الازدحام المروري وتحسين النشاط الاقتصادي في العاصمة. وسيشمل المشروع خطط للسكك الحديدية تمتد على مسافة ١٧٦ كيلو متراً تتضمن ٨٧ محطة وتعمل عليها قطارات كهربائية تعمل دون سائقين. ويتوقع أن يستوعب المشروع ١،١٦ مليون راكب يومياً مع بداية التشغيل ترتفع إلى ٣،٦ ملايين راكب بعد عشر سنوات.

سابعاً: حقوق الإنسان

إذا كانت الثقافة إلى جانب الاقتصاد والتعليم أركاناً أساسية في أيِّ تنمية مستدامة، فإن الاهتمام بما يكفل للإنسان حقوقه ويدعم مطالبه العادلة في حياته اليومية ومعاملاته ركن آخر لا يستهان به في أيِّ عملية تنموية. فمن المهم أن يدرك الإنسان، بوصفه فرداً في مجتمع، بأن هناك من الأنظمة والمؤسسات ما يقف إلى صفه في الحالات التي تهدد بوقوع الظلم عليه، ولاسيما تلك الأنظمة والمؤسسات التي تنتمي إلى ما يعرف بالمجتمع المدني الذي يعني وقوف الأفراد والجماعات إلى جانب المؤسسات الرسمية في دعم حقوق المواطنين وتوفير احتياجاتهم. فإذا كان القطاع الخاص شريكاً للدولة في التنمية الاقتصادية والبشرية والتعليمية، فإن مؤسسات المجتمع المدني تقف شريكاً آخر في دعم التطور المجتمعي وجهود الدولة للارتقاء بكل ما يوفر لأفراد المجتمع حياة كريمة بحفظ حقوقهم وتعريفهم بواجباتهم. هذا ما تحقق في المجتمعات المتقدمة التي طالما أكد الملك عبدالله على ضرورة الإفادة مما حققته دونما إخلال بثوابت العقيدة الإسلامية وقيم المجتمع السعودي، لاسيما أن الكثير مما دعت إليه الأنظمة المعاصرة فيما يتعلق بحقوق الفرد وحماية المجتمع هي مما دعا إليه الإسلام وأكده على مختلف الأصعدة.

لم يكن بدعاً والحال كذلك أن تحرص حكومة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله على دعم كل توجه في سبيل دفع المظالم عن المواطنين، واتخاذ كافة السبل التي من شأنها تأكيد تلك الحماية، ليس فقط من

خلال القضاء الذي يعد من الحقوق الأساسية المرعية في المملكة ومن قواعد نظام الحكم، وإنما أيضاً من خلال منظمات وهيئات تدعم حصول الفرد على حقوقه؛ مما يعد رافداً للأنظمة القضائية والأمنية. من هنا جاء إنشاء مؤسستين مختلفتين ومتصلتين في الوقت نفسه، حيث تعمل كلتاهما ومن منظوريهما المستقلين على دعم حقوق الإنسان. المؤسسة الأولى مؤسسة أهلية عرفت بالجمعية الوطنية لحقوق الإنسان، في حين عرفت الثانية – وهي هيئة رسمية – بهيئة حقوق الإنسان.

أنشئت الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان في ١٤٢٥/١/٢٨هـ الموافق (٢٠٠٤/٣/١٩م)، بينما أنشئت هيئة حقوق الإنسان بعد ذلك بسنة ونصف تقريباً. و تعد المؤسستان من مكونات المجتمع المدني المشار إليه آنفاً، وهو مفهوم ناشئ في المملكة دعمت الدولة نشوءه وتأصيله على الرغم من شعور بعض أطياف المجتمع بالريبة تجاهه. وكان مما أكدته المؤسستان أن حقوق الإنسان وصيانتها هي من المبادئ التي كان الإسلام سباقاً إليها، فهي ليست غريبة عن المجتمع المسلم، وأن العمل بمقتضاها هو من ثم عمل بما أمر به دين الله الحنيف، مثلما أن العمل به هو مما نص عليه النظام الأساس للحكم في المملكة، إلى جانب أنه ضمن ما أكدته المعاهدات والقوانين الدولية. ذلك ما أوضحه البيان التأسيسي للجمعية الوطنية لحقوق الإنسان في موقع الجمعية على الإنترنت حين أكد تلك المبادئ وأنه جاء لدعم جهود مؤسسات الدولة المعنية بهذا الشأن. ففي حيثيات تأسيس الجمعية ورد أنها تأسست انطلاقا من كتاب الله العزيز والسنة النبوية المطهرة ومن النظام الأساس للحكم في المملكة العربية السعودية الصادر بالأمر الملكي رقم أ / ٩٠ وتاريخ ١٤١٢/٨/٢٧هـ (١٩٩٢/٣/٢م). واستشعارا لأهمية حقوق الإنسان في هذا الوجود، وتثقيف الفرد والمجتمع بها، وإجراء البحوث والدراسات المقارنة في مجال هذه الحقوق في الإسلام، وفي الإعلانات والمواثيق والصكوك والاتفاقيات الدولية. وإسهاما في الدفاع عن حقوق الإنسان تحقيقا لكرامته كما كتبها الخالق سبحانه وتعالى بقوله (ولقد كرمنا بني آدم). ودعما لجهود الدولة ومؤسساتها في مجال إعداد التنظيمات المتعلقة بحقوق الإنسان وتطبيقاتها. وسندا لحقوق المواطن في مراقبة ما يتعلق بحقوقه ومتابعتها كما أقرها الشرع المطهر، وكما تنظمها الأنظمة المرعية وحمايته من المخالفات أو التجاوزات التي قد ترتكب بحقه. وعملا بمبدأ المشاركة الشعبية المنظمة للإسهام في خدمة المجتمع وبناء مؤسسات المجتمع المدني. وبعد الاطلاع على العديد من الأنظمة والتجارب العالمية في مجال تنظيم أداء اللجان والجمعيات الوطنية الخاصة بحقوق الإنسان. وإسهاما في الجهود الدولية والتعاون العالمي في هذا المجال. وبناء على التنسيق المبدئي الذي تم مع الجهات المعنية بهذه الحقوق أحكاما وتنفيذا وعلاقات دولية ممثلة في وزارات العدل والداخلية والخارجية في المملكة العربية السعودية.

أما مهام الجمعية فقد حددها نظامها بالآتي:

١ / العمل على حماية حقوق الإنسان وفقاً للنظام الأساس للحكم الذي مصدره الكتاب والسنة ووفقاً للأنظمة المرعية وما ورد في الإعلانات والمواثيق الخاصة بحقوق الإنسان الصادرة عن جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي والأمم المتحدة ووكالاتها ولجانها المختصة وبما لا يخالف الشريعة الإسلامية.

٢ / التعاون مع المنظمات الدولية العاملة في هذا المجال.

٣ / الوقوف ضد الظلم والتعسف والعنف والتعذيب وعدم التسامح.

اختصاصات الجمعية:

١ / التأكد من تنفيذ ما ورد في النظام الأساس للحكم وفي الأنظمة الداخلية في المملكة ذات العلاقة بحقوق الإنسان.

٢ / التأكد من تنفيذ التزامات المملكة تجاه قضايا حقوق الإنسان وفق ما ورد في إعلان القاهرة لحقوق الإنسان في الإسلام وميثاق الأمم المتحدة والمواثيق والصكوك الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان.

٣ / تلقي الشكاوى ومتابعتها مع الجهات المختصة والتحقق من دعاوى المخالفات والتجاوزات المتعلقة بحقوق الإنسان.

٤ / تقديم الآراء والمقترحات للهيئات الحكومية والأهلية للعمل على التثقيف ونشر المعلومات في مجال حقوق الإنسان.

٥ / التعامل مع قضايا حقوق الإنسان في الهيئات الدولية بشكل عام والمنظمات الدولية غير الحكومية بشكل خاص.

٦ / دراسة المواثيق والصكوك الدولية الخاصة بحقوق الإنسان الدولية.

إن من يتأمل حجم المنجزات ونوعها في عهد الملك عبدالله لن يستغرب أن تتطور هذه الجوانب الحضارية في عهده، فالرجل الذي ذهب بنفسه لمشاهدة أوضاع الفقراء في مدينة الرياض، والذي ناصر حصول المرأة على الكثير من الحقوق التي لم تتمتع بها من قبل، والذي اتخذ إجراءات حاسمة للكشف عن الفساد ومحاربته، هو رجل راعٍ لحقوق الإنسان في أهم جوانبها وهو من ثم من لا يستغرب منه إنشاء هيئات ترعى حقوق الإنسان في كافة المجالات. ولعل مما يعرفه الكثيرون عن الملك ولم يعد بحاجة إلى استشهادات كثيرة أو توثيق مدقق هو صراحته الاستثنائية في بعض الأمور الحساسة ومنها ما يتصل بحقوق الإنسان التي تكاد تضيع نتيجة إما لفساد

إداري أو لتقاليد اجتماعية لم تعد مناسبة. ففي حديث له لجريدة الشرق الأوسط حين كان ولياً للعهد اتضحت صراحته حول هذه المسائل:

«قناعتي دوماً وأبداً أن مخافة الله واحتسابه في كل صغيرة وكبيرة أمرمطلوب في كل إنسان مُكلف، وهي الضمان الأكيد وصمام الأمان في سلوك وعمل المُسلم، ونحن مجتمع يوصينا ديننا الحنيف بالتكافل والتعاون والتراحم، وطبعي جداً أن يكون للشفاعة مساحة في حياتنا، ولكن بما لا يخالف النظم أو يكسر اللوائح ويتعدى على حقوق الآخرين، أما وجود الواسطة والمحسوبيات في تعاملاتنا الرسمية، فشيء للأسف أشعر به وأعرف عنه الكثير بما يصلني من شكاوى وتظلمات، ويعلم الله كم يؤلمني الالتفاف على النظام أو تسخيره لغير ما شرع له، وعلى أي حال فكل مسؤول حكومي لديه تعليمات واضحة في هذا الشأن والأجهزة الرقابية تقوم بدورها، وبقدر تلك المسؤولية سيكون كل مسؤول محاسباً أمام الله - جل جلاله - ثم أمام ولي الأمر وأمام الجميع، فالحق يعلو ولا يُعلى عليه، ومصالح الأمة مقدمة على المصالح الشخصية ولا مكان للأهواء والرغبات أمامها».[1]

ثامناً: المرأة السعودية

من حقوق الإنسان إلى حقوق المرأة يبدو الانتقال سلساً ومنطقياً، فهو انتقال من العام إلى الخاص ليس إلا. وتؤكد حقائق الواقع الملموس أن المرأة السعودية لم تشهد حضورا ومساندة كتلك التي لقيتها من عبدالله بن عبدالعزيز، سواء حين تولى إدارة البلاد عام ١٤١٦هـ (١٩٩٥م) بوصفه ولياً للعهد ونائباً لرئيس مجلس الوزراء وبتكليف من أخيه الملك فهد - رحمه الله - أو حين تولى الملك في العام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م)، ولذا فإن كثيرا من المهتمين والباحثين يعدون هذا العام الأبرز في مسيرة المرأة السعودية، إذ صدرت فيه كثير من القرارات والأنظمة التي تعزز حضور المرأة في خدمة المجتمع بوصفها الشريك الذي يقاسم الرجل كافة الحقوق والواجبات، وكان من تلك القرارات إصدار نظام البطاقة الشخصية للمرأة؛ مما فتح أمامها سبلاً كانت مغلقة سواء في مراجعة الجهات الحكومية أو الخاصة أو فتح سجل تجاري ومباشرة أنشطتها التجارية بنفسها.

كما أن من ذلك تعزيز النجاحات الوظيفية والتعليمية للمرأة السعودية، ووصولها إلى مناصب لم تكن لتصل إليها لولا اقتناع الملك بجدارتها وقدرتها، فكانت المرأة السعودية مديرة لجامعة،[2] ونائبة لوزير التربية

(١) جريدة «الشرق الأوسط» ١٤٢٣/٣/١هـ؛ (٢٠٠٢/٥/١١م).

(٢) هي الأميرة الجوهرة بنت فهد، مديرة جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن للبنات بالرياض سابقاً وقد عينت بعدها د. هدى العميل مديرة للجامعة نفسها .

والتعليم،[١] ومديرة لمستشفى،[٢] ومساعدة لمدير الشؤون الصحية،[٣] ومديرة لفرع الضمان الاجتماعي.[٤] ولم يقف الأمر عند القطاع الحكومي فقط، بل تجاوزه إلى القطاع الخاص الذي تولت فيه المرأة العديد من المناصب القيادية، كان أهمها وصولها إلى منصب مديرة مصرف.[٥] وهذه المناصب – وغيرها كثير – أثبتت فيها المرأة السعودية نجاحا منقطع النظير، وأدت دورها التنموي والريادي، ومازالت تؤديه على أكمل وجه.

وعلى مستوى الحضور العلمي والإبداعي سجلت المرأة السعودية في عهد الملك عبدالله حضورا لافتا، فكرمت الدكتورة خولة الكريع بوسام الملك عبدالعزيز من الدرجة الأولى، وكرمت الدكتورة ريم الطويرقي عالميا لإنجازاتها في مجال الفيزياء، وكرمت الدكتورة حياة سندي لبروزها في مجال الأبحاث الوراثية، وهذه ليست سوى نماذج قليلة من الحضور المبهر علميا وعمليا للمرأة السعودية في عهد الملك عبدالله، وهو الرجل الذي آمن إيمانا كاملا بحقوقهن في المواطنة، وقد صرح به في أكثر من مناسبة، لعل أبرزها ما قاله لشبكة تلفزيون (A B C) الأمريكية : «أؤمن بقوة بحقوق النساء، أمي امرأة، وأختي امرأة، وابنتي امرأة، وزوجتي امرأة .. .»[٦]

وفي خطوة تعد استثنائية، حرص الملك عبدالله على اللقاء المباشر بالنساء السعوديات في عدد من المناسبات الوطنية وأن يكون هذا بارزاً في الإعلام، وهو ما لا يدع مجالاً للبس بأنه يريد إشعار المرأة بحقها في المواطنة والتعرف على احتياجاتها عن قرب ومنحها مزيدا من الثقة لتسهم في عملية الإنماء والتنمية، إذ ليست بأقلّ من شقيقها الرجل في شيء، وهي الحقيقة التي كان الملك يقررها ويؤكد عليها في كل لقاء مع النساء السعوديات.

وعلى مستوى اهتمام الملك بتعليم المرأة السعودية وتثقيفها، فقد كان قرار إنشاء جامعة خاصة للبنات من أوائل قراراته حين تولى الملك، ويعد مشروع هذه الجامعة من أضخم المشروعات الجامعية على مستوى الشرق الأوسط. ففي المدينة الجامعية التي قامت على مساحة تقدر بثمانية ملايين متر مربع تشمخ تلك الجامعة مصافحة القادم من مطار الملك خالد الدولي بالرياض بمنشآت هائلة تمتد من المباني الأكاديمية إلى المباني البحثية إلى مناطق الإسكان والترفيه إلى جانب الجوامع وما يتصل بكل ذلك من مستلزمات. وجامعة الأميرة نورة واحدة من عدة منشآت جامعية ضخمة أمر الملك عبدالله بتنفيذها في مناطق أخرى بالمملكة.

---

(١) هي الأستاذة نورة الفايز، نائبة وزير التربية والتعليم لشؤون تعليم البنات .

(٢) هي الدكتورة سناء فلمبان، مديرة مستشفى الملك سعود بجدة .

(٣) هي الدكتورة نهى دشاش، مساعدة مدير الشؤون الصحية بجدة لشؤون الرعاية الأولية .

(٤) هي الأستاذة أسماء بنت عبدالله بن خميس مديرة فرع أول مكتب نسوي للضمان الاجتماعي .

(٥) هي الأستاذة ناهد طاهر، رئيسة مجلس إدارة مصرف (غلف ون) في البحرين.

(٦) وكالة الأنباء السعودية (واس) .

لقد حرص الملك في كل مناسبة أن يعلي من شأن المرأة السعودية، ويعزز من دورها في خطة التنمية، ويؤكد على مكانتها الكبيرة في نفسه من حيث هي مواطنة تؤدي أدوارا ريادية في رعاية الأسرة، وتشارك بفاعلية في مسيرة التنمية الوطنية، ومن كلماته المهمة في هذا السياق قوله: «لا يمكن أن نتجاهل بأي حال من الأحوال دور المرأة السعودية ومشاركتها في مسؤولية النهضة التنموية التي تشهدها بلادنا، وفي خدمة دينها وبلادها وبناء الوطن باعتبارها نصف المجتمع، إننا نتطلع أن يكون للمرأة دور كبير بحيث لا يحكمنا في هذا المجال سوى ميزان الشرع بما يحقق مصلحة الأمة، وإن قيادة هذا الوطن لن تسمح لكائن من كان أن يقلل من شأن المرأة أو يهمش دورها الفاعل في خدمة دينها ثم بلادها .. .».[١]

قالت مجلة نيوزويك الأمريكية في شباط/فبراير ٢٠٠٩م (١٤٣٠هـ) إن التغيّرات التي تشهدها العلاقة بين الجنسين في المملكة تقترح على الرجل السعودي أن يبدأ بتعويد نفسه على مشاهد لم تألفها عيناه من قبل كأن تتولى امرأة مقابلة المتقدمين على الشواغر الوظيفية - بحسب المجلة - وتابعت أن الحكومة السعودية تعمل على توسيع فرص التعليم أمام المرأة بفتح جامعات للبنات بدلاً من الفصل بين الجنسين في جامعات غالبية طلبتها من الذكور، بل إن المملكة - كما ذكرت المجلة - دشنت أول جامعة مختلطة (جامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية) وتحاول الدولة تشجيع المرأة على الانخراط في صفوف القوى العاملة، وتقوم برعاية مبادرات لحماية المرأة والأطفال ضد العنف المنزلي.

ومضت المجلة قائلة: قرر الملك عبد الله تعيين وزير للتربية والتعليم مهمته التوثق من أن التشديد في المدارس يكون على التقليد الإسلامي في التسامح، وكذلك تعيين امرأة، هي - نورة الفايز- نائبة للوزير لشؤون البنات، وهذه هي المرة الأولى التي تتولى فيها امرأة منصبًا وزارياً. ومن جانبها ذكرت الدكتورة الفايز لصحيفة «غلف نيوز» أن «من يتولى دوراً قيادياً عليه أن يضع جدولاً ويحدد أولوياته ويبدأ في التنفيذ».[٢]

هذه المنجزات كلها اختصرتها الأميرة صيتة بنت عبدالله في كلمة وداعية مؤثرة حول أبيها بعد رحيله - رحمه الله - حين قالت: «ولعل أبرز ما اهتم به هو قضية إدماج المرأة ضمن المنظومة الكلية للاقتصاد، وإشراكها بتنفيذ البرامج، وفي صنع القرار كأولوية قصوى». والحق أن تشجيع الملك عبدالله لبناته في دعم مسيرة التنمية ومشاركتهن الفعلية في تطوير العديد من الفعاليات والمشروعات هو من العلامات المضيئة في تاريخ المرأة السعودية وما حققته من تمكين على مختلف المستويات.

---

(١) صحيفة الوطن السعودية، العدد (١٩١٧) في ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٥م .

(٢) «غلف نيوز» ٢١ فبراير ٢٠٠٩م

تاسعاً: إصلاحات سياسية

امتدت يد التنمية والتطوير في عهد عبدالله بن عبدالعزيز لتشمل مختلف جوانب الحياة في المملكة، وكان طبعياً أن تصل آثارها إلى ما هو أكثر أساسية وتأثيراً في تحقيق الاستقرار السياسي للبلاد. ففي حين أنجز سلفه الملك فهد - رحمه الله - إنجازه الكبير على هذا المستوى وهو المتمثل بإصدار النظام الأساس للحكم، عمل خلفه الملك عبدالله على تتمة ذلك المشروع السياسي الكبير بإصدار نظام البيعة الذي يعد رافداً مهماً لنظام الحكم من حيث هو يضع أسلوباً متكاملاً ومنضبطاً وعادلاً لانتقال الحكم بين أبناء الملك عبدالعزيز - رحمه الله - وأحفاده. صدر نظام البيعة في العام التالي لتولي الملك عبدالله الحكم، أي في عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م)، حيث صدر مرسوم ملكي باعتماد النظام. ولقد جاء هذا النظام مطابقا لمنهج الشفافية والصدق والوضوح الذي تبناه الملك منذ توليه، حيث بيّن الأسس والإجراءات المرتبطة بعملية مبايعة الملك، وتسمية ولي العهد، وانتقال الحكم معهما في حالة العجز أو الوفاة، مع مراعاة كاملة لكل ما يمكن أن يطرأ من ظروف واحتمالات، كما وضع النظام الأسسَ الكفيلة بتنظيم التعامل مع مستجدات تغيّر الملك ونيابة ولي العهد.

إن أهم ما يمكن أن يتركه نظام هيئة البيعة في المجتمع السعودي هو اعتماده على الشفافية المطلقة، وذلك في قلب المؤسسة السياسية للمملكة، وإذا كانت الشفافية حاضرة هنا، فإن حضورها في باقي مؤسسات الدولة وأجهزتها، وبين أفراد المجتمع، سيكون من باب أولى.

إلى جانب الإصلاحات السياسية الداخلية اشتملت المنجزات على الكثير من المبادرات السياسية التي رسخت دور المملكة القيادي على كل المستويات، فجاءت مبادرة الملك عبدالله للسلام لتضع الخطوط العامة والأساسية لأي صلح بين الدول العربية وإسرائيل، فتبنت الدول العربية تلك المبادرة لتصبح مبادرة عربية شاملة. كما أن العالم لن ينسى مساعي الملك عبدالله لحل الخلافات سواء بين الفرقاء الفلسطينيين أو في لبنان، وكذلك سعيه لإصلاح الأوضاع في العراق، وموقفه الريادي تجاه سوريا في محنتها. إننا إزاء عهد حافل بالمنجزات؛ حتى إن الباحث ليحار أين يبدأ وأين ينتهي، ليصل في النهاية إلى القناعة بأن قصارى ما يستطيعه هو إعطاء بعض النماذج التي توحي بحجم الإنجاز ومستواه ليس إلا.

عاشراً: مشروعات الإسكان

يحار الباحث في محاولته رصد المشروعات الكبيرة في عهد خادم الحرمين الشريفين غفر الله له، ويظل ما يرصده ليس أكثر من مؤشرات على ما هو أكثر، غير أن من تلك المشروعات الكبيرة ما يعبر بشكل مباشر عن عمق العلاقة التي ربطت الملك الراحل بشعبه ووطنه من حيث حرص على تحقيق كل ما من شأنه توفير الراحة والرفاهية للجميع. ومن تلك المشروعات التي يصعب إغفالها مشروع الإسكان الذي أقره مجلس الوزراء برئاسته في ١٣ ربيع الأول من عام ١٤٣٢هـ (١٦ فبراير ٢٠١١م) والذي اعتمد إنشاء خمسمائة ألف وحدة سكنية في كافة مناطق المملكة خصص لها ٢٥٠ مليار ريال. ذلك المشروع الأضخم من نوعه والذي ما زال في طور التنفيذ هو أحد المؤشرات على حرصه – رحمه الله – على استثمار عائدات النفط الضخمة التي أفاء الله بها على هذه البلاد في عهده في ما يحقق قفزة تنموية كبيرة.

الحادي عشر: معالجة البطالة

تعد البطالة مشكلة عالمية بوصفها مشكلة لم تستطع أي دولة في العالم التغلب عليها بشكل تام، وكانت حكومة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله حريصة على مواجهة المشكلة بحزمة من الحلول التي درست وأقرت وجرى تنفيذها بالفعل لتسهم في حل المشكلة أو تخفيف عبئها عن كاهل المواطن ولاسيما الشباب. فإلى جانب التوسع في التوظيف، كما في تثبيت العاملين على بند الأجور، طرحت وزارة العمل بقرار من مجلس الوزراء برنامج حافز للعناية بمن يسعون للحصول على وظائف سواء في الدولة أو في القطاع الخاص، وذلك بتخصيص مبلغ ٢٠٠٠ ريال لمن تنطبق عليه شروط البرنامج.

الباب الرابع

الختام

لا تنسونى من دعاكم

الباب الرابع

الختام

لا تنسوني من دعاكم

بتلك العبارة التي تفيض إيماناً بالله وثقة بعباده، العبارة التي تستعصي على النسيان، ودع عبد الله بن عبد العزيز شعبه ووطنه وأمته، وبتلك العبارة نفسها حفظ الناس ذكراه ملزمين أنفسهم تنفيذ وصيته الأخيرة. غير أن مشاعر الملايين كانت مع ذلك تردد المعنى الذي ذهب إليه الشاعر حين قال:

كـأنّ المـوتَ لم يَفـجـع بنفسٍ ولم يـخـطُـر لمـخـلـوقٍ بـبـالِ

نعم ذلك كان شعور الملايين التي استيقظت صبيحة يوم الجمعة الثالث من شهر ربيع الثاني من عام ١٤٣٦هـ (الثالث والعشرين من يناير، ٢٠١٥م) ليقال لها: إن عبد الله بن عبد العزيز في ذمة الله. تابعته الملايين، ليس من السعوديين وحدهم وإنما من العرب والمسلمين، بل من العالم أجمع، وهي على مدى عامين تراه يخرج من عملية جراحية إلى نقاهة ليعود بعدها إلى عملية جراحية أخرى إلى نقاهة. وفي كل مرة كان الحمد لله والتمني من الله له بالشفاء التام. لكن الملك الذي شغل أفئدة أولئك وعقولهم، الذي ملأ حياتهم بالحب والعطاء، لم يكن ليخرج عن إرادة ربه الذي اختاره صبيحة ذلك اليوم بعد أن أدخل مستشفى الحرس الوطني بالرياض قبل رحيله بأسابيع قليلة شاكياً من صعوبة في التنفس.

أجل لقد رحل خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز وكان على الجميع أن يذعنوا لإرادة رب العالمين. غير أن مرارة الفراق لرجل ملأ الدنيا كما لم يملأها كثيرون وأسعد الناس كما لم يسعدهم كثيرون لم تحل دون ذهول الساعات الأولى فكأن الموت لم يفجع بأحد قط، كأنه يحدث للمرة الأولى.

لقد رحل الملك عبد الله وهذه السيرة في طور الاكتمال، وشاءت إرادة رب العالمين ألا تكتمل إلا برحيله رحمه الله رحمة واسعة، فهاهو الفصل الأخير يكتب من سيرته وليس من علاقة الناس به أو تذكر البلاد له أو ترحم الجميع عليه والدعاء له. عبارته التي ظلت ترن في القلوب قبل الأسماع، طلبه من الناس أن يدعوا له، أو بعبارته البالغة العفوية والجمال: «لا تنسوني من دعاكم»، تلك العبارة هي التي تعلو هذا الفصل عنواناً وتذكيراً

لا ينبغي أن يتوقف، بل أن يتصل ما اتصل حب الناس لأبي متعب، ويتأصل تأصل وعيهم بمآثره ومنجزاته التي يصعب تعداد بعضها ناهيك عن حصرها.

في هذه الخاتمة، التي تكتب بعد ختام حياة عبدالله بن عبدالعزيز غفر الله له، ننظر في بعض أبرز الأحداث الشخصية التي استجدت في الأيام الأخيرة، وكذلك في الأصداء الواسعة والعميقة التي تركها غيابه الأليم في نفوس الناس القريب منهم والبعيد، في الوطن وخارج الوطن. ومن المؤلم بطبيعة الحال أن يكون أبرز تلك الأحداث ما عاناه رحمه الله، في بداية مرضه الأخير، من آلام في الظهر اضطرته لطلب العلاج سواء في المملكة أو خارجها. على أن المرض لم يحل دون انشغاله بأوضاع البلاد والعالم، دون متابعة برنامجه الكبير في البناء والإصلاح جزاه الله خير الجزاء.

في بدء ذلك نستذكر أن آلام الظهر ألمت به في النصف الثاني من عام ١٤٣١هـ (٢٠١٠م) واضطرته للسفر مرتين للعلاج وأجريت له بسببها عمليتان جراحيتان في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية ثم في مدينة الرياض في الثالث من المحرم من عام ١٤٣٤هـ (١٧ نوفمبر ٢٠١٢م) لتثبيت تراخٍ في الرابط المثبت على الظهر. وكان من مضاعفات تلكما العمليتين أن ضعفت قدرته على الحركة وإن لم تضعف رغبته في العمل وإدارة شؤون البلاد بما في ذلك لقاء المسؤولين والمواطنين.

لم يتمكن - رحمه الله - في السنة الأخيرة من حكمه من ترؤس جلسات مجلس الوزراء نتيجة لوضعه الصحي فأناب ولي عهده ونائبه آنذاك صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز، الذي بويع بعد وفاته ملكاً للبلاد (وسيشار إليه - حفظه الله - في بقية هذه الملاحظات بالملك سلمان). لكنه على الرغم من ذلك أراد تجديد الدماء في المجلس فأمر بأكبر تغيير وزاري في عهده تمثل في تعيين ثمانية وزراء جدد ووزير دولة في مجلس الوزراء، هم: أ. سليمان الحميد (الشؤون الاجتماعية)، المهندس وليد الخريجي (الزراعة)، المهندس عبدالله المقبل (النقل)، د. عبدالعزيز الخضيري (الثقافة والإعلام)، د. خالد السبتي (التعليم العالي)، د. فهاد الحمد (الاتصالات وتقنية المعلومات)، د. سليمان أبا الخيل (الشؤون الإسلامية)، د. محمد آل هيازع (الصحة)، بالإضافة إلى تعيين د. عصام بن سعيد، رئيس هيئة الخبراء، وزير دولة إلى جانب منصبه في الهيئة.

لقد كان مشهد المتابعين لحالة الملك عبدالله - رحمه الله - في المستشفى وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان، سواء من الأمراء أو العلماء أو المسؤولين أو المواطنين السعوديين، أو من رؤوساء الدولة الشقيقة والصديقة، دالاً وبقوة على عمق وسعة المكانة التي احتلها في قلوب الجميع. وحين جاء خبر انتقاله - غفر الله له - إلى جوار ربه كانت مشاهد الفجيعة لا تقل سعة وعمقاً من أعلى مراتب المجتمع حتى الناس البسطاء

في الشارع حيث عبر الجميع، كل بطريقته ومن زاويته وبإحساسه الخاص عن حزن عميق لفقد رجل ملأ حياتهم رعاية وحباً وحضوراً شخصياً فبادلوه حباً بحب ولم يترددوا في تلبية ندائه بألا ينسوه من دعائهم، كما فعلوا حتى قبل أن يطلب منهم ذلك حين أصيب بوعكته قبل عامين من وفاته.

كان أول من أعلن خبر وفاة الملك عبدالله ونقل حزنه وعزاءه للعالم عامة والشعب السعودي خاصة أخاه الملك سلمان حفظه الله. لقد كانت كلمات مؤثرة حملت من الحزن والألم قدر ما حملت الرضى بقضاء الله وقدره. وكان شعور من تلقوا الخبر الحزين موازياً لما اعتلى وجه الملك سلمان وهو يذيعه عليهم. قال الملك رعاه الله: «بسم الله القائل: (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) والصلاة والسلام على رسوله محمد و آله وصحبه.

بقلوب مؤمنة بقضاء الله وقدره مليئة بالحزن والأسى أتوجه إلى الشعب السعودي الوفي والأمة العربية والإسلامية بالعزاء في فقيد الأمة الغالي خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز – رحمه الله – والذي شاء الله عز وجل أن يختاره إلى جواره بعد أن أمضى حياته مبتغيا طاعة ربه وإعلاء دينه ثم خدمة وطنه وشعبه والدفاع عن قضايا الأمتين العربية والإسلامية.

وإننا نسأل الله تعالى أن يتغمده برحمته وأن يجزيه خير الجزاء عما قدمه من أعمال جليلة في خدمة دينه ثم وطنه وأمته؛ كما نسأله سبحانه أن يرزقنا الصبر والأجر وألا نقول إزاء هذا المصاب الجلل إلا ما أمر الله به إنّا لله وإنا إليه راجعون.

أيها الإخوة والأبناء المواطنين والمواطنات إنني وقد شاء الله أن أحمل الأمانة العظمى أتوجه إليه سبحانه مبتهلا أن يمدني بعونه وتوفيقه، وأسأله أن يرينا الحق حقا وأن يرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلا وأن يرزقنا اجتنابه، وسنظل بحول الله وقوته متمسكين بالنهج القويم الذي سارت عليه هذه الدولة منذ تأسيسها على يد الملك عبد العزيز – رحمه الله – وعلى أيدي أبنائه من بعده – رحمهم الله – ولن نحيد أبدا بدستورنا وهو كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

أيها الإخوة إن أمتنا العربية والإسلامية هي أحوج ما تكون اليوم لوحدتها وتضامنها وسنواصل في هذه البلاد التي شرفنا الله بأن اختارها منطلقا لرسالته و قبلة للمسلمين مسيرتنا في الأخذ بكل ما من شأنه وحدة الصف وجمع الكلمة والدفاع عن قضايا أمتنا مهتدين بتعاليم ديننا الإسلامي الحنيف الذي ارتضاه المولى لنا وهو دين السلام والرحمة والوسطية والاعتدال.

والله أسأل أن يوفقني لخدمة شعبنا العزيز وتحقيق آماله وأن يحفظ لبلادنا وأمتنا الأمن والاستقرار وأن يحميها من كل مكروه ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

من المشاهد التي ستظل محفورة في الذاكرة والدالة بقوة على حجم التفاعل الشعبي الإنساني مع حدث الرحيل مشهد اللوحة التي رسمها أحد الشبان في مدينة جدة والتي تصوره - رحمه الله - في وضع الرحيل، وهي لوحة جدارية بنيت على صورة التقطتها ابنته الصغرى الأميرة سحاب وعرفت بصورة «وين رايح».[1] تلك اللوحة والصورة التي بنيت عليها انتشرت بين الناس في وسائل التواصل الاجتماعي، مصحوبة بمقطع من قصيدة لشاعر شاب يقول بلهجته الدارجة البسيطة والمنبعثة في الوقت نفسه من حرارة العاطفة وصدق المشاعر: «وين رايح/ التفت سلم علينا/ ما روينا من حنانك/ ومنك والله ما اكتفينا».

يقول الباحث والأكاديمي المتخصص في علم الاجتماع السياسي الدكتور خالد الدخيل: «إن الملك عبدالله استطاع أن يحفر له مكاناً واسعاً في الوجدان الشعبي وبقدر يندر مثيله في التاريخ الحديث للمملكة. ويستشهد الباحث في ذلك بما عرفه الجميع من تبسط الملك - رحمه الله - في مواقف كثيرة بعضها أشار إليه هذا الكتاب في مواضع سابقة مثل نزوله للأسواق وتناوله الأطعمة مع الناس ومحاورته لهم وتبسطه معهم في أجواء عائلية يغلب عليها المرح والمحبة، كما أن من ذلك، وبشكل رئيس طبعاً، زيارته لأحياء الفقراء في مدينة الرياض وتفقده أحوالهم وأمره باتخاذ الإجراءات الضرورية للعناية بهم. لقد أكسب ذلك وغيره الملك عبدالله حباً لا يتزعزع في وجدان الناس».

في كلمة مؤثرة نشرتها الأميرة صيته بنت عبدالله إثر وفاة والدها قالت: «ما كان يود كثير من أبناء وبنات الشعب السعودي أن يقولوه؛ لأن عبدالله بن عبدالعزيز كان بكل بساطة أباً للجميع: الأمر بالغ الصعوبة أن ينعي المرء والده فما بالكم بأب مثل الملك عبدالله الذي نعته الأمة العربية كلها .. فلم يكن والدي الملك عبدالله - رحمة الله عليه – أباً لي وحدي، بل كان يشاركني في أبوته كل شعب المملكة .. وعلى الرغم من ذلك لم أشعر يوماً بنقص اهتمامه بي كأب حنون لابنته .. رغم كونه الأب لكل أبناء المملكة .. يكفل الجميع بحنانه ورعايته .. وقد اختص الشباب بجزء وافر من وقته ورعايته فقد كان – رحمة الله عليه – رحيماً حنوناً عطوفاً بكل شباب وفتيات المملكة في قراراته التي اتخذها طيلة فترة حكمه ...».

ثم تشير الأميرة صيته إلى عنايته - رحمه الله - بالمرأة السعودية، العناية التي تعد معلماً كبيراً من

(١) ذكرت ذلك صحيفة "أخبار ٢٤" الإلكترونية: http://akhbaar24.argaam.com/article/detail/201293

معالم رؤيته السياسية الاجتماعية والثقافية وقبل ذلك الإنسانية بشكل عام، الأمر الذي سبق التوقف عنده في مواضع سابقة من هذا الكتاب.

لكنه الجانب الإنساني الشخصي الأكثر حميمية والذي يحضر إلى الذاكرة قبل كل شيء حين يذكر اسم عبدالله بن عبدالعزيز. ذلك الجانب لامسته أيضاً ابنة الراحل الأميرة سحاب بنت عبدالله في قصيدة تنزف حزناً لتنتشر بين الناس سواء بنصها أو بصوت مؤديها. ومن مقاطع القصيدة المؤثرة بشكل خاص قولها بلهجتها الدارجة التي تلامس الوجدان:

كل حاجة من بعد فرقاك تبكي — الفجر والناس والأرض الرحيبة
والشوارع والمباني والصحاري — والقمر من مطلعه حتى مغيبه
تكتبك بدموعها أصغر بناتك — آه يا حزني ودمعـاتي سكيبه
مجلسك نظارتك بشتك عقالك — والزوايا والممـــرات الكئيبـة

غير أن فجيعة الناس برحيل الملك عبدالله تعدت أبناءه وبناته والشعب السعودي والأمة العربية كلها لتشمل العالم أجمع، وهل أدل على ذلك مما ذكر يوم وفاته من أنه سجل أعلى معدل للتغريدات على شبكة تويتر العالمية في مؤشر يتجاوز ردود الفعل الرسمية إلى وجدانات الناس واهتماماتهم الشخصية. أما حين نأتي إلى الجوانب الرسمية فإن مدينة الرياض شهدت حشداً نادر المثال من توافد رؤوساء العالم للتعزية فيه رحمه الله، حتى أن الرئيس الأمريكي أوباما اختصر رحلته للهند ليتوقف في الرياض معزياً، وحتى أن علم المملكة المتحدة نكس على قصر باكنغهام حداداً على روحه رحمه الله، في بادرة لفتت انتباه العالم.

إن سيرة كهذه ليس بوسعها - بل ليس بوسع موسوعة بأكملها - أن تلم بموضوعها، فالمهمة ضخمة لكثرة التفاصيل وضخامة المنجز. كل ما يمكن إنجازه هو الوقوف على بعض التفاصيل، والتأمل في بعض المنجزات. وقد سعى الكتاب إلى ذلك من خلال أبوابه الثلاثة التي سعت أولاً إلى رسم سياق تاريخي يساعد على تصور الظروف التي أدت إلى نشوء المملكة العربية السعودية، والجهود الجبارة التي بذلها بناة الدولتين السعوديتين الأوليين وصولاً إلى الدولة السعودية الثالثة والحالية التي أسسها الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه، وتعاقب على عرشها خمسة ملوك كان خامسهم خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز موضوع هذه السيرة (وسادسهم الملك سلمان).

في الباب الثاني كان التركيز على جوانب من حياة الملك عبدالله بدءاً بولادته ثم شبابه وصولاً لتسلمه العمل رئيساً للحرس الوطني ثم توليه العهد وصولاً إلى تسنمه عرش البلاد. وكان السعي في رسم تلك التفاصيل

أن يقف القارئ على معالم تلك الشخصية الكبيرة، إذ تنمو باتجاه القيادة والإنجاز، ولتتضح أيضاً وجوه العلاقة بين مكونات تلك الشخصية وتفاصيل حياتها من ناحية، وما عملت على إنجازه من ناحية أخرى. فقد حرصت السيرة على الربط بين المراحل والتفاصيل قدر الإمكان لكي يتحقق فهم أفضل لشخصية الملك عبدالله.

تلك التفاصيل في السيرة متصلة، كما اتضح، بطبيعة المنجز وحجمه وعمق أبعاده وتأثيره، على النحو الذي سعى الباب الثالث من هذه السيرة لتتبع بعض جوانبه بإلماحات سريعة مردها إلى ضخامة المنجز من ناحية، ولأن الكتاب – من ناحية أخرى – وفي نهاية المطاف ليس دراسة لذلك المنجز بقدر ما هو محاولة لرسم السيرة والشخصية التي تقف وراءه.

تلك الشخصية كانت إلى وقت قريب ملء السمع والبصر ملتحمة بالوطن وأهله التحاماً سعت هذه السيرة إلى إبرازه وإن غلب التلميح على التصريح والإيجاز على التفصيل. لقد عرف عن عبدالله بن عبدالعزيز طوال فترة تسلمه لمسؤولية القيادة لبلاده ندرة سفره للاستجمام أو الراحة، فمكانه المفضل هو مدن المملكة للعمل أو صحراؤها للاستجمام، فقد اعتاد أن يقضي بعض الوقت خارج مدينة الرياض، وهو وقت لا يطول عادة فما إن يذهب حتى تلح عليه المسؤولية وهموم الوطن والناس فيعود. غير أن آلام الظهر التي ألمت به – رحمه الله – في النصف الثاني من عام ١٤٣١هـ (٢٠١٠م) اضطرته للسفر لإجراء عمليتين جراحيتين احتاج بعدهما إلى بعض الوقت للعلاج الطبعي. ذلك الغياب ثم العودة في العشرين من ربيع الأول ١٤٣٢هـ، الموافق (الثالث والعشرين من فبراير ٢٠١١م)، أكدا مرة أخرى أن لعبدالله مكانة استثنائية في قلوب الجميع، المكانة التي أكدها هو في بداية التوعك حين قال: «ما دمتم بخير فأنا بخير»، والتي أكدها الجميع حين رددوا بعد عودته: «ما دمت بخير فالوطن بخير».

لقد أكد الملك عبدالله أن عافية الوطن من عافيته حين أصدر –رحمه الله – سلسلة من القرارات إثر عودته أكدت حرصه على تنمية بلاده ومصلحة أهلها وعمق التلاحم بين القيادة والشعب في فترة تمر بها المنطقة بمتغيرات أثبتت المملكة نتيجة لذلك التلاحم بعدها عن كل ذلك. وقد تضمنت تلك القرارات دعماً متعدداً لقطاعات حيوية منها الإسكان والصحة والتعليم إلى جانب الأنشطة الثقافية والرياضية وغيرها. فمن ذلك دعم رأس مال صندوق التنمية العقارية بأربعين بليون ريال وإعفاء المقترضين المتوفين، إلى جانب دعم رأس مال بنك التسليف بثلاثين بليون ريال وإعفاء المقترضين المتوفين من أقساطه أيضاً، فضلاً عن إعفاء المقترضين الحاليين لمدة عامين. كما أمر بتثبيت بدل غلاء المعيشة الذي أقر قبل ثلاثة أعوام ليصير جزءاً مما تدفعه الدولة من مرتبات. هذا إلى جانب دعم مستحقي الضمان الاجتماعي وذوي الاحتياجات الخاصة وما تتلقاه الجمعيات الخيرية من دعم. ويضاف إلى ذلك كله ما تضمنته القرارات من حرص على حل مشكلات البطالة عن العمل

سواء بتوفير مزيد من فرص التوظيف أو بدفع مكافآت لمن لم يجدوا وظائف حتى تحل مشكلتهم. وليس هذا سوى غيض من فيض جاء بمقدم الملك الذي طلب من شعبه على الرغم من كل ذلك أن يعفوه من الألقاب التي وصف بها مثل «ملك الإنسانية» أو مخاطبته بمولاي وما إلى ذلك من لفتات هي مما عرف به عبدالله بن عبدالعزيز منذ نشأ في كنف والده المؤسس ومما سعى هذا الكتاب إلى التعريف به ولو بإيجاز. سيقول كثيرون: لا داعي لكل هذا التفصيل والتأكيد على مكانة عبدالله بن عبدالعزيز في قلوب الناس، فهي محفورة هناك تذكرهم به وتستحثهم على الدعاء له كما طلب هو حين قال: «لا تنسوني من دعاكم».

وين رايح..؟
التفت سلم
علينا.. ما رونا
من حنانك
ومنك والله
ما اكتفينا..
أحمد زهير

المراجع

المراجع

١- مراجع عربية

أ.الكتب

- خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز: الرؤية الشاملة لإدارة التنمية. الرياض: معهد الإدارة العامة، ط١، ٢٠٠٩م
- ابن بشر، عثمان بن عبدالله: عنوان المجد في تاريخ نجد ،تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ. دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- أبو ريشة، عمر. الديوان. بيروت: دار العودة، ١٩٧٠م.
- أبو ملحة، سعيد بن ناصر: الحوار في فكر خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز. الرياض ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- البازعي، سعد (محرر): دبلوماسية القمة: قراءات تحليلية لزيارات الأمير عبدالله الدولية. الرياض: مكتبة جرير، ١٩٩٩م.
- بوركهارت، يوهان: مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة عبدالله الصالح العثيمين (الرياض، جامعة الملك سعود).
- الحماد، أيمن. الملك عبدالله ثالث الشخصيات العالمية تأثيراً ونفوذاً. جريدة الرياض ٥ نوفمبر ٢٠١٠م العدد ١٥٤٧٤.
- دلول، محسن: الطريق إلى الوطن: ربع قرن برفقة كمال جنبلاط. بيروت: دار العلوم ناشرون، ٢٠١٠م.
- ضاري الرشيد: نبذة تاريخية عن نجد أملاها ضاري الرشيد وكتبها وديع البستاني. الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٦هـ.
- الرواف، عثمان وآخرون: منجزات التنمية في المملكة العربية السعودية. الرياض: د.ن ٢٠١٠م.
- الرويشد، عبدالرحمن بن سليمان: مذكرة مدونة لمركز توثيق سيرة الملك عبدالله بن عبدالعزيز رحمه الله.
- معلومات منشورة على موقع الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله على الشبكة العنكبوتية.
- الزركلي، خيرالدين: الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز. بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٤م.
- العلوي، حسن: عبدالعزيز التويجري: الروح الجامعة. لندن: دار الزوراء، ٢٠٠٨م
- ملك نحبه. مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، الرياض، ط١، ٢٠٠٧م.
- موسوعة تاريخ الملك عبدالعزيز الدبلوماسي. الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٩٩٩م.
- النهاري، عبدالعزيز: عبدالله بن عبدالعزيز: سيرة ملك ومسيرة إصلاح. د. م: د. ن. ٢٠٠٨م.
- وليم فيسي: الرياض: المدينة القديمة، ترجمة د/ عبدالعزيز الهلابي. الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٩٩١م.

ب.مصادر شفاهية

أ. لقاءات للكاتب مع التالية أسماؤهم من أفراد أسرة خادم الحرمين الشريفين أو العاملين معه وقريباً منه

- صاحبة السمو الملكي الأميرة نوف بنت عبدالعزيز آل سعود
- صاحب السمو الملكي الأمير خالد بن عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود
- صاحب السمو الأمير فيصل بن عبدالله بن محمد آل سعود
- صاحب السمو الملكي الأمير عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود
- صاحبة السمو الملكي الأميرة عادلة بنت عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود
- معالي الشيخ عبد المحسن بن عبدالعزيز التويجري
- معالي الشيخ عبدالرحمن أبوحيمد (مع مذكرات غير منشورة).
- معالي الأستاذ فيصل بن عبدالرحمن المعمر

ب. مقابلات تلفزيونية مسجلة

- مع معالي الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري رحمه الله
- مع معالي الدكتور عبدالله الربيعة، وزير الصحة

ج.الصحف والمجلات

- مجلة اتجاهات، العدد: ١٣١، سبتمبر ٢٠١٠م. (عدد خاص بمناسبة مرور خمس سنوات على تولي الملك عبدالله).
- مجلة «الرجل» (ديسمبر ، ٢٠١٠م).
- مجلة الحرمان الشريفان، الإصدار الأول ١٤٣٤هـ..
- أعداد متنوعة من الصحف الآتية :
  - صحيفة الاقتصادية السعودية.
  - صحيفة الجزيرة السعودية.
  - صحيفة الرياض السعودية.
  - صحيفة عكاظ السعودية.
  - صحيفة الشرق الأوسط الدولية.
  - صحيفة الوطن السعودية.
  - صحيفة الحياة اللندنية.

د. التقارير والمواقع الشبكية

- موقع الملك فهد بن عبدالعزيز على الشبكة العنكبوتية: http://www.kingfahad.ws/templet/res02.htm
- التقرير السنوي لوزارة التجارة والصناعة ١٤٣٠/١٤٣١هـ
- التقرير المالي لوزارة الصحة خلال العام ١٤١٧-١٤١٨هـ .
- الموقع الشبكي للهيئة العليا للاستثمار.
- الموقع الشبكي لوزارة التعليم.
- موقع إم بي سي www.mbc.com
- موقع صحيفة الجزيرة www.Aljazirah.com
- موقع أخبار ٢٤ http://akhbaar24.argaam.com/article/detail/201293

٢.مراجع أجنبية

Books and links

- «Abdullah Bin Abdul Aziz Al Saud.» Information for the World's Business Leaders - Forbes.com. Web. 24 Feb. 2011. <http://www.forbes.com/profile/abdullah-bin-abdul-aziz-al-saud>.
- "A Man with a Plan; Saudi Arabia's Crown Prince." The Economist (US) 23 Mar. 2002.
- "A Promise of Reform in Saudi Arabia." Editorial. The New York Times 26 Feb. 2009: A30.
- Baker, Katie. "The Reformer: King Abdullah." Newsweek 30 Aug. 2010.
- Bowen, Wayne H. The History of Saudi Arabia. Westport, CT: Greenwood, 2008.
- Bradley, John R. Saudi Arabia Exposed: inside a Kingdom in Crisis. New York: Palgrave Macmillan, 2005.
- Cordesman, Anthony H. Saudi Arabia Enters the Twenty-first Century. Westport, CT: Praeger, 2003.
- "Crown Prince: More Than an Heir." Time 28 June 1982.
- Dickey, Christopher. "The Monarch Who Declared His Own Revolution." Newsweek 30 Mar. 2009.
- Friedman, Thomas L. "Saudi Time." The New York Times (New York) 8 Dec. 2010: A27.
- Friedman, Thomas L. " An Intriguing Signal From the Saudi Crown Prince." The New York Times (New York) 17 February. 2002.
- Iris Glosemeyer, "The Saudi Political System." in Paul Aarts et al, eds., Saudi Arabia in the Balance. London: Hurst & Co., 2006.
- House, Karen Elliott. "The Saudi Cabinet Shake-Up Portends Real Reform." Http://online.wsj.com/article/SB123535163037745007.html. Web. 25 Feb. 2011.
- Karon, Tony. "Person of the Week: Crown Prince Abdullah." Time 1 Mar. 2002. Print.
- Lacey, Robert. Inside the Kingdom: Kings, Clerics, Modernists, Terrorists, and the Struggle for Saudi Arabia. Toronto: Viking, 2009.
- Lippman, Thomas W. Inside the Mirage: America's Fragile Partnership with Saudi Arabia. Boulder, CO: Westview, 2004.
- Moulana, S. H. "King Abdullah's Reforms Pragmatic: Le Figaro." Asiantribune. Web. 21 Dec. 2010. <http://www.asiantribune.com/news/2010/08/12/king-

abdullah%E2%80%99s-reforms-pragmatic-le-figaro>.

- Richardson, Ben. "Saudi Arabia on Road to Economic Reform." BBC News - Home. Web. 24 Feb. 2011. <http://news.bbc.co.uk/2/hi/business/4734705.stm>.
- Richey, Warren. "Power behind Throne Is Saudi of a Different Stripe." The Christian Science Monitor - CSMonitor.com. Web. 7 Jan. 2011. <http://www.csmonitor.com/2001/1101/p1s4-wome.html>.
- Samore, Gary Samuel. Royal Family Politics in Saudi Arabia (1953-1982). Ph.D. Diss. Boston: Harvard UP, 1984.S. Rob Sobhani, King Abdullah: A Leader of Consequence (Washington DC: Caspian Publishing, 2009)
- Sobhani, Rob. "King Abdullah's 'openness' Strategy." Washington Times10 Oct. 2007.
- "The 500 Most Influential Muslims." The Royal Islamic Strategic Studies Centre. Web. 4 Dec. 2010. <http://www.rissc.jo/index.php/english-publications.html>.
- Weston, Mark. Prophets and Princes: Saudi Arabia from Muhammad to the Present. Hoboken, NJ: Wiley, 2008.
- Wolmer, Leo, et al., "The Mother-Child Dyad Facing Trauma: A Developmental Outlook." The Journal of Nervous and Mental Disease vol. 188, issue 7 (July, 2000).

Magazines and Newspapers

- The Christian Science Monitor;
- Le Monde;
- Newsweek;
- Time; New York Times;
- Wall Street Journal
- Gulf News

مؤسسة الملك عبدالله الإنسانية
King Abdullah Humanitarian Foundation

مركز توثيق سيرة الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود
KING ABDULLAH BIN ABDULAZIZ ALSAUD
BIOGRAPHY DOCUMENTATION CENTER